الحُسَيْن

مَلِكُ المَمْلَكَة الأُرْدُنِيَّة الهاشِمِيَّة

مِهْنَتي كَمَلِك

أحاديث مَلَكِيّة

نشرها بالفرنسية فريدون

صَاحِبُ جم

ترجمة : الدكتور غازي غزيل

مراجعة

الدكتور محمّد عزّت نصر الله

مهنتي كملك

إنَّ حَيَاتي
مَلكٌ لشَعبي

" عبدُالله بن الحسين

١٨ تمّوز - يوليو - ١٩٥١ "

مقدمة ناشر الطبعة العربية

قليلة هي الكتب التي تصدر عن المسئولين الكبار في العالم وتحكي قصة تولي المسئولية في بلادهم، ومدى الدور التاريخي الذي يقومون به ويتحملون نتائجه بشجاعة وإخلاص، دون التأثر بالمتاعب الجمة التي يتكبدونها من جراء الجهر بالحقيقة أو السير على ضوئها في تحمل المسئولية في العمل والتنفيذ.

وكتاب («مهنتي كملك») للحسين بن طلال من تلك الكتب القليلة التي تحكي قصة ملك شجاع اعتلى عرش بلاده في خضم أحداث تاريخية جسيمة أثّرت على مجرى الأمور في المنطقة، وتمخّضت عن إرهاصات عظيمة ودلائل على الدور الفعّال الذي يلعبه الهاشميون في تطور القضية العربية وانحسار المد الصهيوني عن الامتداد إلى شرقي الأردن حتى العراق.

فعلى نحو غير معهود في نشوء الدول العربية الحديثة كانت المملكة الأردنية الهاشمية - بمراحل نشوئها - ضرورة تاريخية في الشرق الأوسط، تحمل رسالة حضارية سامية إلى جانب كونها حاجزاً قوياً يردع التوسع الصهيوني ويحدّ من هجمته المتمادية في فلسطين وخارجها في كل اتجاه، فكانت هذه المملكة الفتية درعاً صلداً وأميناً يصدّ عن الأمة العربية والإسلامية بأسرها العاديات الصهيونية المتوثبة للعدوان، والمتأهبة للفساد والطغيان.

ويضطلع الحسين بن طلال - كأحسن ما يضطلع ملك أو عظيم - بأمانة هذه المملكة ومسئولية استمرارها مشعلاً هادياً ينير الطريق أمام المخلصين، ويسدّ على أعداء الأمة ثغرات تسللهم للعبث بمقدراتها ومثلها، أو الاستهتار بمصالحها العليا وبما تمثّل من مضاء حضاري واندفاع صادق وجريء إلى المستقبل لتحقيق

العزة القعساء للأمة، والمضي قدماً في تأدية الرسالة الإسلامية الهادية للعالم، والمساهمة في بناء الحضارة الكونية، وكبح جماح الشيوعية الدولية التي تسللت للمنطقة مع بداية تسلل الصهيونية وانتشار الأحزاب الهدّامة والحركات المفسدة. . .

ولم يكتف الحسين بن طلال - سليل الأسرة الهاشمية العظيمة - بصفته الشخصية كوارث شرعي للملك الهاشمي والجدارة في الحكم، وإنما أضاف إلى ذلك سلاح العلم والإيمان، وقد أعدّ إعداداً ممتازاً لتولي الأمانة في إدارة البلاد، وقيادة الأمة وتوجيه رجالها الأفذاذ نحو الطريق السويّ والوطنية الحقة، ومناهل الرشد والفلاح. . .

ولقد كانت الأسرة الهاشمية سبّاقة إلى الوحدة العربية والعمل على تحقيقها تحت راية الإسلام ورفع رايتها في كل المحافل، وكافحت في سبيل هذا الهدف أمجد كفاح، ولنا في بقاء العاهل الهاشمي العظيم على رأس الأردن، وفي بقاء الوفاء الكبير لرجاله الشجعان ومضيهم معه في خدمة الأمة والعزم على استرداد القدس وجوارها، الأمل العظيم الذي يداعب قلوب المخلصين والأوفياء لشعبهم وأمتهم ورسالتهم في الحياة، والذي يضيء السبيل لمحرري القدس وفلسطين وبفتح الطريق اللاحب للنشامى صانعي المستقبل في مضيهم إلى الجهاد مع الملك وثباتهم على العهد.

وتولي المُلك ليس ترفاً عند الحسين بن طلال، وإنما هو حق، وواجب، ومسئولية.

هو حق، لأن النظام الملكي أرفع أنظمة الحكم في التاريخ البشري وأسماها، ولا يتولى الملك إلّا العظماء من الناس والأسياد، وهو أجدر الأنظمة في تحقيق السعادة وضمان الخير والسلامة والاستقرار والعمل المنظّم الهادف والبنّاء.

وهو واجب، لأن في تكاثر اللاهين والمفسدين مدعاة للانحلال، فكان واجباً على الحسين أن يلي الحكم ويقطع دابر الأعداء المتلاعبين بمقدرات الأمة

والخارجين على رسالتها الحضارية ومثلها الإنسانية وعظمتها التاريخية ودورها في بناء الحضارة واستمرارها. . . .

وهو مسئولية، لأن الحكم أمانة ـ هكذا يفهمه الهاشميون ـ وفي تاريخهم المعاصر وجد المغفور له الملك عبدالله بن الحسين أن من الأمانة أن يحمي الجزء الفلسطيني الذي سلم من العدوان وأنقذته قواته من الوقوع في القبضة الصهيونية في حرب ١٩٤٨، فكان أن وافق الملك الشيخ على إرادة الفلسطينيين بضم الضفة وإبعاد الطامعين عن التلاعب بمقدرات الشعب الفلسطيني في منطقة القدس.

وكافحت حكومة الملك عبدالله في درء المخاطر عن هذا الشعب الذي صدعته النكبة، وعملت على ردّ الغوائل عنه بكل ما وسعها من جهد، فنظمت البلاد وجعلتها كتلة متماسكة في وجه الصهيوني الرابض على خط النار ينتهز غفلة أو ثغرة في صفوف العرب الذين جاءوا لإنقاذ أهل فلسطين العزّل من المذابح الصهيونية التي دبرت لاقتلاع العرب من أرضهم واضطرارهم للنزوح إلى البلدان المجاورة طلباً للنجاة، بعد أن جرّدتهم القوات المنتدبة من كل سلاح وتركتهم طعمة للنيران والمذابح ـ كمذبحة دير ياسين الرهيبة، في الوقت الذي عطلت فيه قرارات الأمم المتحدة فعاليات الجيوش العربية التي جاءت للإنقاذ والمحافظة على الأمن في الأرض المقدسة.

وبعد فشل مؤتمر غزة الكبير في إعلان حكومة عموم فلسطين وإعادة تنظيم الشعب، كان من المحتم على الملك عبدالله حماية الضفة إلى جواره بقبول قرار أهلها في مؤتمر اريحا بالانضمام إلى الأردن وتفويت المؤامرات الصهيونية الرامية لالتهام منطقة القدس وتدمير الأقصى.

وشهدت المنطقة أحداثاً جديدة أفرزتها ثقل المصيبة وعظم النكبة في فلسطين، إلاّ أن المؤامرة العاتية استمرت عبر قنوات جديدة حتى أجبر الأردن ـ ملكاً وحكومة وشعباً ـ على التخلي عن الضفة ـ وفي أحلك الظروف ـ لمنظمة التحرير الفلسطينية في زمن يحتم إبقاء الضفة الغربية في حمى الأردن وإدارته

ومسئوليته التاريخية إلى أن يحين الوقت ويتحقق تقرير المصير والاستقلال الشامل للفلسطينيين على كامل التراب الفلسطيني المقدّس. فمنظمة التحرير الفلسطينية بوضعها الراهن غير مؤهلة بما فيه الكفاية، ولا تقوى ـ في ظل الواقع العربي والدولي المتأزم ـ على حماية الضفة وإدارتها والتمسك ـ في نفس الوقت ـ بأيديولوجيتها الأساسية بتحرير كامل التراب الفلسطيني. ثم إن المؤامرات التي تحاك ضد المنظمة تجعلها في وضع شديد الحركة، في مد وجزر، لا تحتمله الضفة في عهدة المنظمة، وتكون في منأى عنه بتوفر السلطة الأردنية وقيامها بمسئوليتها التاريخية حيال فلسطين والأمة العربية الإسلامية بأسرها.

ويتضمن كتاب («مهنتي كملك») كثيراً من أسرار هذه الحقبة من التاريخ الفلسطيني العربي، وهو كتاب صاغه الحسين بن طلال على أسئلة لصحفي فرنسي وتخيّر كلماته بدقة متناهية أعرب فيه عن حبه العظيم للشعب العربي الفلسطيني المسلم الذي له في نفسه مكانة الصدارة والأولوية في النضال، وبحث الملك فيه موضوع الضفة الغربية إلى جانب الوضع التاريخي للقضية الفلسطينية وموقف الأردن الهاشمي حيالها. وألمّ ـ إلمامة سريعة ـ بمراحل نشوء المملكة الأردنية الهاشمية فكشف حقائق تاريخية وشخصية هي على جانب كبير من الأهمية، ومن الواجب اطّلاع العرب عليها واستخلاص العبر منها في تصميمهم على تحرير الأرض وصيانة المقدّسات الإسلامية من العبث الصهيوني الآثم.

وإحساساً مني بتجرد الملك في كتابه، وحديثه فيه من موقع المسئولية والإخلاص للأمة.. ونظراً لأهمية الكتاب في المجالين الأردني والعربي، وعلى مستوى العالم، قمت بنقله من الفرنسية إلى العربية، مراعياً سلامة النص العربي الأصيل المترجم، وعمدت إلى نشره بين الناس ليكون عمدة الباحثين في أبحاثهم، وأصلاً يعتمد في الدفاع عن الحق العربي الذي تصرّ المؤامرات الدولية على تجاهله، وتعمل ـ في محافلها ـ على انتهاكه، وتعريض المصالح العربية الإسلامية العليا للخطر باستمرار تفتيت الشعب العربي الفلسطيني المسلم وتسليمه لعوامل الإفناء والإبادة والانحلال.

إنّ كتاب («مهنتي كملك») يشكّل درساً عملياً وأمثولة للحكّام المخلصين، وللذين يودون السهر على مصالح شعوبهم وأممهم، وإغناء البشرية بتجاربهم الشخصية الغنية بالعبر والدروس لضمان الحضارة الإنسانية أن تأخذ مجراها في العالم وتحدث أثرها الطيب بأن تملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، فيسود الأمن في الأرض ويعم الخير والاستقرار في كل مكان.

(«مهنتي كملك») يشق طريقا لاحبا امام العرب لاستيعاب النظرة الاردنية الهاشمية الرسمية نحو كافة القضايا السياسية والمشاكل الراهنة التي تنتظر الحل السليم، والنظرة الواقعية، الصادقة والفعّالة.

عصام ت. مصري
طرابلس (لبنان) ١٩٨٧

مقدمة
الطبعة الفرنسية

كانت السيارة ذات اللون المعدني الأسمر من طراز (لينكولن كونتيننتال) تمر متريثة في شوارع عمان المزدحمة. وعلى الطريق البالغ خمسة كيلومترات والذي يفصل قصر بسمان الملكي عن مقر القيادة العامة للقوات المسلحة، كانت السيارة الملكية تتوقف مراراً أمام الأنوار الحمراء. وكان الحسين بكل تواضع وديمقراطية يكبح جماح السيارة ويتوقف. كنت وقتئذ أجلس إلى جانبه، وكان مرافقه العسكري الرائد بدر الدين ظاظا يجلس في المقعد الخلفي، بلا أي حرس حتى ولا أية درّاجة نارية تتقدم السيارة الملكية ولا أي شرطي.

عرف بعض المارة مليكهم فجعلوا يصفقون. واتخذ رجال الشرطة الذين كانوا يتولون تنظيم حركة السير، موقف التهيؤ، رافعين أياديهم بالتحية العسكرية، وكان الملك بادي السعادة. إنه يحب أن يتجول متنكراً بين أبناء شعبه، ليتحسس نبضات قلب الأمة. ومن بعيد، إنطلق صفير أبواق سيارات الحرس الملكي منذراً باقترابها، فتبسّم الحسين، ومال عليَّ قائلاً: «ما رأيك في أن نسبقهم؟». ثم زاد من سرعة السيارة وانطلق وكان واضحاً أن بعض لحظات من الهدوء أو الاسترخاء والراحة نادرة بالنسبة للمليك، وعزيزة.

وعند مدخل الثكنة العسكرية، وأمام رجال هيئة أركان حربه بكاملهم، وعلى رأسهم المشير حابس المجالي والفريق زيد بن شاكر، برزت سيارتا الحرس من طراز شيفروليه، فوجه إليَّ الملك نظرة ذات معنى.

طوال هذه الأيام التي أمضيتها في معية العاهل الهاشمي والتي تمكنت خلالها

من التحدث إليه طويلاً، ومشاهدته كيف يعيش، ومن خلال مرافقته في جولاته، تبيّن لي أن الحسين يتمتع إلى أقصى الحدود ببعض لحظات من الحرية، سواء وهو يقود سيارته، بمعزل عن حرسه الخاص، أو وهو يقود طائرته الهيليكوبتر، أو وهو يتجول في البادية لإمعان الفكر والتأمل في مستقبل بلاده أو التحدث إلى البدو «الأكثر إخلاصاً بين المخلصين»، أولئك الذين لم يخونوه أبداً والذين وقفوا دوماً إلى جانبه في أحرج وأصعب لحظات حياته.

في قصر يقوم على إحدى تلال عمان السبعة، يقيم الملك الحسين مع أسرته. والقصر غاية في البساطة، حيث ينـدر أن تجد فيه الأثاث الثمين، وحيث ينعدم وجود الأواني الذهبية. لقد تعمّد الهاشميون هذا التقشف منذ أربعين جيلاً، أي منذ أن بُعِث جدهم الأعظم الرسول ﷺ، لقد كانوا فقراء وسيبقون كذلك. لقد تغيّر الزمن بلا شك في يومنا هذا، وأصبح الحسين يمتلك سيارتين شخصيتين، وبعض الدراجات النارية وطائرة هيليكوبتر. ولكن هل هكذا يتصوّر الغربيون المقتنيات الملكية؟! . .

عندما يجتاز المرء السور الحديدي الأسود لقصر الملك، يشاهد جماهير عمان الغفيرة التي تنشط إلى أعمالها، ويقع بصره على مخيم للاجئين الفلسطينيين، يستطيع الحسين أن يراه من على سطح قصره.

لقد قال لي الحسين مرة: «إنني أحب هذا الشعب حباً عظيماً فلولاه لما كنت شيئاً مذكوراً».

ويتأجج عندئذ في نفسه، الحنين إلى الماضي، ويعود بذاكرته القهقرى عبر الزمن، فيرى نفسه فتى صغيراً، ينمو ويترعرع مع الشعب، وبين أبناء الشعب.

«إنّ حياتي ملك لشعبي . . . ».

لقد استقرت هذه العبارة في ذهن الحسين منذ تموز (يوليو) من عام ١٩٥١، حين قالها جده المغفور له الملك عبدالله وهو في طريقه إلى القدس، ليقوم برحلة

لن يعود منها، إذ إنه اغتيل على مرأى من حفيده الحسين في المسجد الأقصى.

وبعد مضي سنة على غياب الراحل العظيم، يعتلي الحسين عرش الأردن وهو لمّا يبلغ السابعة عشرة من العمر. إنه لن ينسى أبداً الجسد الدامي لهذا الشيخ الجليل الذي كان يجلّه ويوقره، إنه لن ينسى أبداً الحركة التي صدرت عنه لتغطية جثة الملك الشهيد بردائه الملطّخ بالدماء. وهو لن ينسى أيضاً هذه الرصاصة التي أطلقها الجاني والتي ارتدّت عن بزته العسكرية.

منذ ذلك اليوم، تغلّب هذا الرجل (الذي كان العالم أجمع يسميه الملك الشاب الشجاع) على المؤامرات التي كانت تحاك، وقضى على الفتن والأزمات. كان في الوقت ذاته موضع تقدير واحترام كل أولئك الذين عرفوه معرفة جيدة. ومنذ ما ينوف على العشرين عاماً والحسين قد كرّس حياته، لقضية شعبه وللسلم في الشرق الأوسط، رافضاً التدخلات التي لا مبرر لها، شاجباً للإرهاب والاغتيالات، وداعياً إلى الاعتدال والاتزان، وإلى الحوار والتشاور والتداول.

لقد أتيح لي، طوال العشرين عاماً الماضية محادثة عدد كبير من رؤساء الدول ورجال السياسة ذوي المواقف والآفاق والآراء والمعتقدات المتباينة وقد كان الحسين، ملك المملكة الأردنية الهاشمية، أكثرهم جاذبية، وأعظمهم سحراً، وأشدهم تأثيراً على النفس والعقل. فذكاؤه، وحماسته الدافقة وصفاء سريرته، وطهارة قلبه وخلوص نيّته، وصراحته، وتواضعه الجم، كل ذلك جعل منه شخصية فذّة. وكان الملك متديناً عميق الإيمان، يرجو الخير للجميع وكان متسامحاً، ومن شدة تسامحه، كان يعفو عن الأخطاء، حتى الخطيرة منها، بحيث أعاد إلى رفاق صباه الذين تآمروا عليه في الخمسينيات، كرامتهم، ومنحهم ثقته من جديد. وكان واسع الأفق، فلم يدر ظهره لشعوب أوروبا الشرقية وللأقطار التي اختارت طريقاً أكثر ميلاً إلى اليسار، كما أن صداقته المخلصة لرجال مختلفين، في نظرهم إلى الأمور، كشاه إيران والرئيس السادات أو الملك الحسن الثاني ملك المغرب، جعلته يحاول الاحتفاظ بعلاقات جيدة، رغم مختلف الصعاب والمعوقات، مع بعض الدول العربية التقدمية وزعمائها.

لقد عرف جلالته تشرتشل، وأيزنهاور، وكندي، وجونسون، ودي غول، وخروتشوف، وعبد الناصر، ونهرو. وهؤلاء جميعهم قد انتقلوا إلى العالم الآخر. واجتمع مرات عدة مع إيدن، وماكميلان، وهيث، ونيكسون. وهؤلاء قد انسحبوا من الحياة العامة، يقول الحسين بأن: «اتصالي بكل فرد من هؤلاء قد زادني ثراء وغنى معنوياً. لقد تعلمت من كل شخص منهم، شيئاً ما. وهذا في نظري أمر جوهري. إنه شتان بين همرشولد، وفيصل، بين أوثانت وبومبيدو، ومع ذلك، فإن كلاً منهم قد سحرني وملك عليَّ نفسي».

إنّ حياة الحسين وحياة الهاشميين ككل، تمثل جزءاً من كفاح الإسلام من أجل الحرية.

يقول الحسين: «لقد دفن جدي الأكبر في القدس، ومات جدي على مرأى مني في القدس أيضاً. وإنني أنتسب إلى الجيل الرابع من أولئك الذين ناضلوا في سبيل الحرية والاسترداد الكامل لترابنا الوطني. وسأواصل النضال في هذا الاتجاه حتى آخر قطرة من دمي».

لقد تغيرت بشكل مأساوي حياة جلالته كمسئول عن سلامة التراب الوطني لبلاده، في هذه الأشهر القليلة الماضية، منذ مؤتمر القمة المعقود في الرباط في تشرين الأول (اكتوبر) من عام ١٩٧٤، لقد أصيب بطعنة في الظهر من قبل أولئك الذين يسميهم اصدقاءه. فقد حملوه على التخلي عن المطالبة بالأراضي الواقعة غربي نهر الأردن، بما في ذلك القدس وتركها للفلسطينيين. فنزل عند ارادتهم. ويقول الحسين: «لقد قبلت بذلك لأن العالم العربي وعشرين دولة عربية قد طلبت مني ذلك.».

ولسوف يحكم التاريخ فيما بعد حول ما إذا كان هذا الحل هو الحل الأمثل، الحل الوحيد. لقد عمل أفراد أسرته باخلاص وبإستمرار لخير الشعب الفلسطيني وحماية حقوقه القومية المشروعة. واليوم كما يقول الحسين: «لا فائدة ترجى من التشبث بماض انتهى أمره. ولا أهمية لمشاعري الشخصية، لأن ما أصبو إليه كان

وسيبقى، مساعدة اخواني على استرداد وطنهم المفقود» وانطلق الحسين يعمل على أسس جديدة، فقرر مساندة منظمة التحرير الفلسطينية بدون تحفظ، بوصفها الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني.

يقول الحسين: «إن مهنتي كملك، ليست سهلة هيِّنة. وأنني لا ارجو أن تؤمن بذلك». فهو ينهض منذ الساعة السادسة صباحاً، ويعتكف في مكتبه في قصر بسمان. ثم يستقبل كل يوم مساعديه الاقربين، والوزراء وقواد الجيش والسفراء. وليس له ساعة محددة لتناول الطعام، حتى أنه أحياناً لا يجد الوقت لتناول أي شيء، ويختتم يومه في الساعة العاشرة أو الحادية عشرة ليلاً. وهو لا يكاد يجد متسعاً من الوقت يخصصه للحياة العائلية. فإذا غادر جلالته مكتبه الخاص، يكون قد ذهب إلى أحد المعسكرات، أو إحدى الثكنات العسكرية أو زار أحد الميادين الخاصة بالمدرعات والدبابات أو أحد المدرجات للاجتماع برجاله من الطيارين. ومن النادر أن يقاسم رجاله المخلصين من سكان البادية طعامهم، وهو أمر يحسّ من جرّائه بالأسف الشديد.

عندما هوجم الحسن الثاني ملك المغرب بالرشاشات وهو على متن طائرته البوينغ، بعد مضي سنة على مؤامرة الصخيرات،وبينما كان العالم بأسره يتساءل عن مصير الملكية الشريفيّة، كان هنالك رجل واحد فقط قد طار لنجدة صديقه، وجاء إلى الرباط لمساعدته على التغلب على هذه المحنة. أما هذا الرجل فقد كان الحسين. إن هذا الموقف منبثق من طبيعة الملك الشاب الذي بدأ الشيب يتسرّب إلى رأس جلالته بمرور السنين.

سيبلغ الحسين الأربعين من العمر في الخريف القادم (من عام ١٩٧٥). ترى هل يخشى الموت؟ يقول جلالة الحسين: «إنني لا اخشاه إطلاقاً، لأنني رأيته وجهاً لوجه مرات عدة. انني لا أخشى إلا الله وحده.» ولعله يخشى أيضاً ألا يستطيع إنجاز مهمته التي ما زالت بعيدة المنال، ألا وهي أن يجعل من الأردن في عام ١٩٨٥، دولة تتيح لها مواردها ألوفاء بحاجاتها بنفسها.

وليست حياة الحسين إلا مرحلة. انها فترة انتقال في تاريخ الأردن. يقول

جلالته: «إنني أبـذل كل مـا في وسعي لكي تجد الأجيـال القادمـة ظروفـاً حياتيـة أفضل من ظروفنا». إنه يفكر بلا انقـطاع بالغـد، وبالغـد الذي يليـه. انه يفكـر بأردن أعوام الثمانين، يقول الحسين: «أرجو أن نغدو قدوة لسائر الأقطار الأخرى في هذه المنطقة».

ويقول: «ولكن ما زال أمـامنا طـريق طويلة واجب الاجتيـاز، طريق مـليء بالعقبات. ولسوف أكون إلى جانب شعبي لمساعدته على تذليلها».

فريدون صاحب جم

***لايعرف الناس، ياصاحب الجلالة، إلا القليل عن أسرتكم وعن طفولتكم، ويقال بأنكم كنتم من الناس الفقراء، وأن موارد أسرتكم كانت محدودة.**

ـ كانت طفولتي بسيطة وجد سعيدة. وكنت دوماً شديد التعلق بوالديَّ. أما والدتي الملكة زين التي بقيت دوماً إلى جانبي والتي تعيش في الوقت الحاضر، في عمان. فامرأة تثير الاعجاب. إنها ليست جميلة فحسب، بل هي أيضاً موفورة الذكاء. وكانت حكمتها وشجاعتها ونصائحها ذات تأثير حاسم بالنسبة إليّ.

لم تكن أسرتنا في الواقع تعيش في بحبوحة، وهذا أقل ما يمكن قوله، ولا نبالغ إذا قلنا بأننا كنا فقراء. في عام ١٩٥٠، عندما كان والدي ولياً للعهد، كان يتقاضى من الدولة راتباً مقداره ألف دينار، وقبل ذلك، في الاربعينات، كان الراتب أقل بكثير. وبالطبع لم نكن نملك ثروة شخصية.

وإليك قصة تصف لك مدى فقرنا. بعد سنة من مجيئي إلى هذه الدنيا، ولدت للأسرة طفلة صغيرة، إلا أنها ماتت بعد شهرين من ولادتها، من جراء البرد القارص في عمان. فقد قضى عليها مرض ذات الرئة، لأننا كنا لا نملك من الموارد ما يسمح بتدفئة بيتنا الصغير.

واني لأذكر رحلة قمنا بها بعد بضع سنين، لزيارة ابن عمي فيصل في بغداد، فتعلقت نفسي بدب ضخم من القطيفة، ولم أكن أرغب في الانفصال عنه بأي ثمن، ولكن في لحظة العودة إلى عمان، اضطررت مع ذلك إلى التسليم بتركه لابن عمي. ولقد تمزق قلبي من جراء ذلك، وفي اليوم التالي، اشترت لي أمي دباً مماثلاً بعد أن باعت آخر حلية كانت في حوزتها.

لقد كان تشجيعها لي طوال عمري، يشد من عزيمتي في خلال الأزمات والفترات العصيبة. ومن المؤكد أنه لولا تضحية أمي واخلاصها وصبرها لما كان في مقدور أبي أن يحكم بلادنا حتى خلال الفترة القصيرة التي دام فيها حكمه. ولو أن أبي الذي كان يعرف أمي إلى جانبه، لم يتدخل بعزم وتصميم بعد اغتيال جدي في تموز (يوليو) من عام ١٩٥١، لكان من المحتمل أن يكون تاريخ الأردن اليوم مختلفاً عما هو عليه الآن.

عندما كنت صبياً صغيراً، كنا نقيم جميعاً في دارة متواضعة تتألف من خمس حجرات مع غرفة استحمام واحدة تحيط بها قطعة أرض صغيرة في جبل عمان، أحد تلال العاصمة السبعة، لقد كان ابن عمي فيصل ملك العراق يوحي إليّ بانطباع أنه يعيش في عالم غني ثري. وانني لأذكر زيارة أخرى قمت بها إلى بغداد عندما كان لي من العمر عشر سنين. فقدم لي فيصل، بمثابة هديّة الوداع، دراجة متألقة متلألئة، وقد كان لدي شعور بأنني لن أمتلك أبداً في حياتي شيئاً أجمل منها. وطوال سنة كاملة بقيت الدراجة محتفظة بالجمال واللمعان اللذين كانت عليهما في اليوم الأول. وكنت في الصباح والمساء، أدلكها وألمعها وأجعلها تضيء وتشع.

وفي أحد الأيام جاءتني أمي وقالت لي بلطف: «إنني أعرف بأنني سوف أشق عليك، ولكن وضعنا المالي يبعث على الهم والقلق، فلكي نستطيع الخلاص من هذه الحال، لابد لنا من بيع بعض المتاع الذي لدينا، فهل يضايقك يابني العزيز أن نبيع دراجتك؟».

ولقد جاهدت نفسي لاحتباس دموعي. إنهم يستطيعون بيع كل شيء ولكن ليس دراجتي!

وقالت لي أمي من باب التسرية عني وتعزيتي « انك تعرف بأن عليك أن تواجه وتتغلب على الكثير من خيبة الأمل، كن قوياً، فسيأتي يوم تنسى فيه الدراجة، وتقود أجمل السيارات».

لقد قدت أجمل السيارات فعلاً فيما بعد، ولكنني لم أنس أبداً هذه الدراجة التي بيعت في اليوم التالي بخمسة دنانير.

ليس الفقر عيباً. ولقد أثبت لي مستوى معيشتنا المتواضع، انني أستطيع أن أحيا حياة أبسط من الحياة التي عشتها فيما بعد، وعلمني أيضاً أن أقدر قيمة المال إلى الحد الذي أصبحت فيه الآن أشعر بمتعة كبرى في منح العطايا للمعوزين.

وعلى الرغم من فقرنا، فقد كانت حياتنا سعيدة نسبياً. فقد اختلفت إلى سبع مدارس متباينة سواء في عمان أو في الاسكندرية، وقد كنت دوماً أشعر بفرح شديد في مصادقة الصبيان الآخرين، وأن أعامل تماماً مثل الآخرين. ولكن لئن صادقت عدداً كبيراً من هؤلاء فإن القليل منهم قد أصبحوا من الخلان الأوفياء الحقيقيين.

ولعل ذلك يعود إلى أنني أغير مدرستي باستمرار. وكأن قوى متعارضة تتجابه فيما بينها بالنسبة لتعليمي. فما أكاد أسجل في مدرسة حتى يجيء جدي صاحب السلطة التي نعلمها ونعترف بها جميعاً، فيقرر أنني أحتاج إلى دروس خاصة في التربية الدينية، الأمر الذي يعيدني إلى البيت لكي أتلقى هذه الدروس على انفراد وعندئذ يأتي دور أبي ليقرر تغيير المؤسسة . . . وأخيراً نجحت في أن أسجل نفسي في كلية فيكتوريا بالاسكندرية، وهي مؤسسة تمزج التعليم باللغتين العربية والانكليزية، وبذلك فتح أمامي عالم جديد، عالم لم أكن أعرفه قط، مع ما فيه من رياضة، ككرة القدم والكريكت، ومن قراءة، ومن مصاحبة حقيقية للرفاق. وما زلت أذكر تماماً حتى اليوم، المهجع الكبير الذي كنت أتقاسمه مع ثلاثين من الفتيان الآخرين ورذاذ الماء المثلج الذي كنت أستحم به كل صباح، واللباس المدرسي المصنوع من نسيج الصوف الخفيف. وقميص الرياضة الخاص بالكلية. وإنني لأرى نفسي أيضاً كيف كنت جالساً على حافة سريري، بعد ظهر أحد الأيام، أحاول جهدي ادخال خيط في ثقب أبرة لترقيع قميص الرياضة الذي كنت قد مزقته. وأخيراً نجحت في ذلك لأنني كنت أعرف أن والديَّ كانا لا يملكان ما يتيح لي شراء قميص آخر.

كان جدي يساعدنا مالياً لتسديد الأقساط المدرسية لأن أبويَّ ما كانا ليستطيعان ذلك لوحدهما. وربما يبدو هذا غريباً، ولكن لا تنسوا أن والدي كان يتلقى راتباً سنوياً متواضعاً. ولما كان عددنا في البيت كبيراً، وكان يحمل لقب ولي للعهد، فلم تكن الحياة هينة بالنسبة إليه.

لقد كان جدي بصفته ملكاً، يتلقىٍّ تعويضاً من الدولة يكاد لا يفي بالضرورات التي كان يستوجبها مركزه، ومع ذلك فقد كان يتوصل إلى تدبير أموره، مع تقديم مساعدة لنا ودفع أقساطي المدرسية. فيما يتعلق بالنقود السائلة، فقد كنا غالباً في ضيق، الأمر الذي كان يضعني في موقف غريب. فقد كنت أختلف إلى مدرسة ممتازة في حين أن نقود الجيب التي تردني كانت مضحكة حقاً.

كل هذا عاد علي بخير كثير وذلك بلا شك من جراء العادة التي اكتسبتها في وقت مبكر وهي أن أكون مقتراً جداً، مما جعلني فيما بعد أراقب مالية بلادي بعين نقادة.

إن السنتين اللتين أمضيتهما في كلية فيكتوريا تحسب بين أجمل سني عمري. فقد كنت أتلقى تعليماً طبيعياً تماماً، وأمارس الألعاب الرياضية في الوقت نفسه. وكنت أتابع دروساً بالعربية وبالتعليم الديني. وأصبحت من أمهر اللاعبين بالسيف مما أثار فرح جدي الذي كان يتابع علاماتي المدرسية باهتمام. وخلال الفصل الأخير في الاسكندرية، فزت بمدالية في لعب السيف، وكان سجل علاماتي جيداً تماماً، فبلغ سرور جدي بذلك حداً كبيراً حمله على رفع درجتي العسكرية الفخرية إلى رتبة رئيس.

في نهاية هاتين السنتين، عندما بلغت من العمر بين الخامسة عشرة والسادسة عشرة، ازداد جدي تعلُّقاً بي، فأصبحت أكثر قرباً إليه ولا سيما خلال الإجازات الكبرى: وقد كان يعتبر أن الإجازات هي المناسبة المنشودة لمضاعفة الجهود. .

لقد كان رجلاً شديداً وعادلاً، ولقد وصفه السير ألك كيركبرايد، الوزير

الانكليـزي في شرقي الأردن بأنـه «عاهـل ذو عينين تشعـان فطنـة، وعقل يتـوقد ذكاء». فقد كان رجلاً من البادية. ربيَّ بين القبائل البدوية المحاربة. وكان يشعـر حتى آخر يوم من حياته بأنه طليعة النضال من أجل الإستقلال العـربي طوال عشر سنـين ولكن النصر الكامـل قد سلب منـه بما يخـالف الحق والعـدل، فهـو لم يكن جندياً فحسب، بل كان ديبلوماسياً عليماً خبيراً إلى أقصى الحدود، وكان أديباً كبيراً ينشد القصائد الشعرية طوال سـاعات، وكـان إلى هذا شـاعراً هـو نفسه كـما كان لاعباً ماهراً في الشطرنج. كان شيخاً ذا مناقب مذهلة تثير الإعجـاب. وكان حـاد الـطبع أوتـوقراطيـاً في الغالب. أحـال شرقي الأردن إلى بلاد سعيـدة يحلو العيش فيها.

أما والدي المأسوف عليه الذي أضحى ملكاً فيما بعد، فقد كان مختلفاً تمـاماً عنـه. إذ كان أكـثر الناس لـطفاً وأخلقهم بـالمحبة والـوداد. كان طيبـاً كريمـاً كثير السحر والجاذبية. عندما كنا أطفالاً، كنا نجلس في مقابلته ونصغي إليه وهو يبتكر لنا القصص المدهشة. وهكذا كانت أسرتنا الصغيرة متحدة القلب إلى أقصى حد. وكان الحب الذي ينبعث منها ذا أهمية بالغة بالنسبة إلينا.

كان والدي بالغ الإستقامة. فلم أصـادف في حياتي رجـلاً واحداً لا يحبـه. ولكن المـرض الذي كـان يعاني منـه قد أعـاقه لسـوء الحظ عن الاستمرار في إدارة شئون الملك بحكمة. ومع ذلك فقد نجح، عـلى الرغم من قصر فـترة حكمه، في تحسين العلاقات التي كانت متـوترة بـين الأردن والعربيـة السعوديـة، ومصر. لقد كان الواضع الرئيسي لدستورنـا ومع ذلـك فلا بـد لي من القول بـأن العلاقـة بين والدي وجدي لم تكن جيـدة. فقد كـان الرجـلان متباعـدين من حيث النظرة إلى الحياة والسن. والواقع أن جدي لم يتبـين على الـوجه الصحيـح إلى أي مدى كـان والدي مريضاً: كان يرفض هذا المرض، فقد كـان الملك الشيخ من وفـرة الصحة ومتـانة البنيـان إلى الحد الـذي جعله لا يتمكن من تفهم معنى المـرض والمكـابـدة والمعاناة. أما نحن فقد كنا نعرف ذلك ونحيط والدنا بالكثير من العنايـة والرعـاية والحب. في حين أن جدي كان يعيش إلى حد ما، في بطولات الماضي، وكان يرى

الأشياء على وجه آخر، وهذا ما أصابه بأشد خيبة أمل مرارة في حياته.

واني لأذكر حادثة ترددت طويلاً في روايتها لأنها كانت شخصية وإليكها فهي بليغة الدلالة:

في أحد الأيام، اغتيل رياض الصلح، وهو شخصية سياسية لبنانية كانت في زيارة الأردن. وقد وقع الحادث في يوم الإثنين الذي سبق مقتل جدي. قتل ضيفنا في سيارة جدي وكان المرافق العسكري لجدي في صحبته. وعلمت النبأ بعد الظهر، فأسرعت إلى القصر. فوجدت الملك عبد الله غاضباً غضباً لم أعرف له مثيلاً من قبل. لقد كان يرى أن من غير المعقول أن يقتل ضيف في الأردن. وكان غضبه يزداد كلما اتضحت التفاصيل. ثم دخل الحجرة مرافقه العسكري الذي كان قد نجا من الموت، فألقى عليه جدي نظرة احتقار وخاطبه قائلاً: «كيف تجرؤ أن تبقى حياً؟» وقد كان على عمي الأمير نايف، وهو أخ لأب والدي، كان عليه أن يكون إلى جانب الملك، ولكنه كان غائباً في هذه اللحظة العصيبة. وصرخ بي جدي قائلاً: «أين عمك؟ إذهب وابحث عنه وأحضره!».

فاندفعت إلى الخارج. ومضت لحظات لم يكن عمي خلالها قد عثر بعد عليه. وكان الناس يقبلون مسرعين في أعداد متزايدة. والتفت جدي فجأة وقال: «لقد اختفى! أين ذهب؟». فذهبت من جديد لأبحث عنه. وأخيراً هدأت العاصفة وبقيت وحدي مع الملك. فنظر إلى بوجه يعلوه الإصفرار من الحزن والألم. ثم وضع يده على جبيني قائلاً في حشرجة وألم: «هذا اليوم هو أكثر أيام حياتي إيلاماً وشدة! ابن مريض أتحمل عبأه، والآخر في أوج الأزمة يجد الوسيلة للاختفاء!».

وبقليل من الرجوع بالفكر إلى الوراء فهمت الآن لماذا أصبح جدي كلما تقدمت به السن أكثر تسامحاً معي، ومحبة لي وعطفاً علي. ربما كان ذلك لأنني قد غدوت في نظره الإبن الذي كان يتوق أن يكون له.

وعندما تولى بنفسه أمر تثقيفي لا سيما خلال العطل الصيفية الأخيرة أصبح

صلباً لا يلين. فقد كان ينهض دوماً عند مطلع الفجر ليزاول أعماله، وهي عادة غدت بالنسبة إلي فيما بعد مفيدة جداً بحيث أنني كنت أجد نفسي ناهضاً في غالب الأحيان في حوالي الساعة السادسة صباحاً فأعمد إلى الإغتسال بسرعة في بيتنا الصغير، وما أن تحين الساعة السادسة والنصف حتى أكون في الطريق إلى القصر. وهنالك كان كل شيء جاهزاً. فقد كان ثمة غرفة تستخدم كقاعة تدريس. أما أستاذي فقد كان دوماً ينحّي عن مهمته لأن جدي نفسه هو الذي كان يبدأ في إلقاء الدروس. فقد كان يفتح كتاباً في اللغة العربية، أو مجموعة من النصوص الدينية ويقول: «يا بني سنبدأ اليوم بهذه الصفحة». ثم يلقي إلى الأستاذ بنظرة تعوزها حرارة المودة ويقول له: «تأكد من أن الأمير قد حفظ دروسه جيداً».

بعد ساعتين من الدراسة يأتي جدي بنفسه ليأخذني أو أذهب للإلتحاق به في مكتبه. فيكون قد سبق له إنجاز الجزء الأساسي من عمله والأمل يداعب خياله في أن أكون قد فعلت مثله. كان جيد الإطلاع على برنامجي الدراسي إلى الحد الذي لم أحاول أبداً أن أخدعه...

وذات يوم، بينما كنت أتابع درساً في اللغة العربية مع أستاذ كان قد اختاره بنفسه، دخل فجأة إلى حجرة الدراسة وبدأ يلقي علي أسئلة. ولقد خيبت أجوبتي أمله إلى الحد الذي جعله يفحص الأستاذ نفسه...

كنا أحياناً نتقاسم فطوراً متواضعاً في الساعة الثامنة والنصف. أما قائمة الطعام فكانت تتألف من القهوة البدوية المعطرة بقليل من حب الهال أو من الشاي بالنعناع مع الخبز المرقوق، بلا زبدة ولا مربى. وكان جدي يقول بأن المرء يعمل بصورة أفضل عندما تكون معدته شبه خاوية.

وغالباً ما كان يشرفني بالقيام بعمل مترجم له في مكتبه في القصر لأنه كان يفهم الانكليزية ولكنه لم يكن يتكلمها. لقد كنت أحب هذا العمل، ولكن كان علي أن أكون محترساً حذراً، فهو لا يتكلم الانكليزية حقاً، ولكن خلال اللقاءات الدبلوماسية كان أكثر من مرة ينحي باللائمة على المترجمين لتغييرهم لمعنى كلمة

واحدة. وان يتمتع بحماسة إدراك غريبة للكلمة الوحيدة التي جرى تشويه معناها. وغالباً جداً ما كنت مترجمه فلم يوجه إلي ملاحظة إطلاقاً. وفي معظم الأوقات كنت أعود إلى القصر قبل صلاة المغرب ثم نتعشى معاً. وكنت أصغي إليه أثناء تناول الطعام وهو يتكلم عن مهام الملك التي تنطوي على المخاطر، أو أنني كنت أشهد مجالسه مع الوجهاء. وكنت أنظر إليه وهو يملي مذكراته ورسائله أو وهو يلعب الشطرنج حتى ساعة متأخرة من الليل، وعندئذٍ كان يقول لي وهو يرى عيني نصف مغلقتين من النعاس: «عد إلى البيت واسترح حتى الصباح».

كان يأذن لي بمرافقته أينما ذهب. وهو الذي علمني أن أفهم أفكار شعبي وتعقد العالم العربي. كما أنه هو الذي علمني إلتزامات المنصب الملكي وكيف يمكن مواجهة الخصم بنجاح. . . ولقد علمني بشكل خاص أن أعظم واجبات الملك، هو أن يخدم دوماً. وأذكر أيضاً أساليبه غير المألوفة في إفحام من يثيرون غضبه. وإليك مثلاً بين أمثال عديدة:

بينما كان يتناول طعام العشاء مع أحد الدبلوماسيين، دار الحديث حول العربية السعودية التي كان ملكها غالباً على خلاف مع جدي. فسأله الدبلوماسي عما إذا كان لا يعتقد بأن من المستحسن لمصلحة القضية العربية أن تجري تسوية لما بينهما من خصومة. فسأله جدي: «ما ذا بلغت من العمر؟

فأجابه: خمساً وأربعين سنة يا مولاي.

فقال له: هل أستطيع أن أسألك عن عمرك عندما قامت الثورة العربية الكبرى؟

فرد عليه: أعتقد بأن عمري كان أنذاك تسع سنين تقريباً يا مولاي. واصفر وجه الدبلوماسي اصفراراً ملحوظاً. . .

«إنك لم تبلغ من العمر تسع سنين عندما كنت أقود بنفسي جيش الشرق الذي حرر العرب. واليوم تطمع في أن تلقي عليَّ درساً في الإخلاص للقضية العربية!».

لقد كان رجلاً مدهشاً حقاً، فقد كان يتمتع بكثير من المواهب الخفية. ففي صباح أحد الأيام كنت أنوي استشارته في أحد الأمور، فذهبت إلى قصره في موعد أبكر من المعتاد، في نحو الساعة السابعة. وكان ما يزال في سريره، إلا أنه كان مستيقظاً. فأدهشني أن أرى عنده أدوات علمية معدة لتجاربه في الفيزياء والكيمياء. وكان على الحائط مكتبة مدهشة ملأى بالكتب العلمية.

كان لديه إحساس عجيب بالدعابة والفكاهة والظرف. وكان يتعاطى السعوط دائماً، وفي أحد الأيام نسي علبة السعوط. وعندما جئته بها جعلت أتفحصها بالفضول الطبيعي الذي يتصف به الأولاد، فنظر إلي وقال: «كأن ذلك يهمك». فلم أجبه. فقال لي: «عليك بالتجربة»، وقدم لي قليلاً منه. ولما كنت لا أعرف أن المسحوق كان قوياً جداً، فقد استنشقت كل محتويات العلبة. عندها جعلت أعطس دون توقف مدة ساعة بينما كان جدي يقهقه ضاحكاً. وهذا كان كافياً بالنسبة لي فلم أتذوق قط هذا النوع من الأشياء.

ومن المؤكد أنني لم أكن أخشاه، لأنني كنت أحبه وأحترمه، ولكن علي أن أعترف بأنني كنت أفعل بعض الأشياء خفية عنه. فمع أنني لم أبلغ سوى الخامسة عشرة، فقد كنت أتدبر أمري لتعلم قيادة السيارات بأخذ بعض الدروس فيها أثناء ساعات فراغي. وما كنت لأعرف إذا كان جدي على علم بذلك أم لا، إلا أنني أميل إلى الاعتقاد بأنه كان يتجاهل الأمر تجاهلاً.. وكنت أخشى أن أطلعه على ذلك مخافة معارضته. وهو لم يكتشف سري رسمياً إلا قبل وقت قصير من وفاته. فقد جئته مرة في السيارة لتناول طعام العشاء، وكنت أتهيأ للإستئذان بالإنصراف بأن أوجه إليه دوماً تحية المساء في القصر دون أن يرافقني قط إلى سطح الدرج. وخرجت وقفزت إلى داخل السيارة. وما كدت أدير المحرك حتى أقبل الملك. فتصلبت في مكاني قليلاً، ثم نزلت من السيارة لملاقاته. فقال لي: «أرى أن تعود إلى البيت». فأجبته متلعثماً: نعم يا مولاي.

فقال: حسن إذهب على مهل وكن حذراً.

وكان هذا كل شيء. ثم عدت إلى البيت. وما كدت أصل حتى كان جرس

الهاتف يقرع. وكان جدي على الخط. فقال لي: «لقد كنت أرغب فقط في أن أتأكد من وصولك سالماً. ليلة سعيدة».

هذا هو إذن الرجل الذي علمني الشيء الكثير والذي كان يحبني حباً شديداً والذي أدين له بأكثر مما أستطيع أن أقوله. إنه هو الذي قال لي في أحد الأيام:

«تذكر يا بني: ان أهم شيء في الحياة هو أن يكون لدى المرء العزم والتصميم على العمل، وأن يكون مستعداً لأن يعطي خير ما في نفسه على الرغم من العوائق ومهما كانت الصعوبات. وعندها فقط تستطيع أن تكون مطمئن النفس مع الله ومع ضميرك».

لقد كان عمري ستة عشر عاماً، وكنت على عتبة حياة جديدة. وكان عليَّ آنئذٍ أن أضع موضع التنفيذ جميع المبادىء التي لقنني إياها، ولكن إذا كان صحيحاً أنه قد أثر فيَّ تأثيراً عميقاً فقد علمني موته في الواقع ما هو أساسي وجوهري.

فالأقطار العربية تختلف عن البلاد الأخرى، والحياة فيها لا قيمة لها، كما أن الموت فيها قليل الأهمية. وبمقتل جدي أصابني القهر والألم شخصياً لأول مرة. وكان هذا اليوم الرهيب مليئاً بالدروس والعبر حتى ولو لم أفهمها في الحال. فقد تعلمت أولاً أن الموت قدر لا مرد له. فعندما يموت المرء فإنه يموت لأن ذلك هو إرادة الله. وبذلك اكتسبت هذه الراحة النفسية التي لا ينالها إلا الذين لا يخشون الموت. وفي الوقت نفسه، فإن الذي يؤمن بالقضاء والقدر عليه أن يعطي خير ما في نفسه خلال الفترة التي تدوم فيها حياته، لا سيما وأن هذه الحياة يمكن أن تسلب منه بنفس السرعة التي سلبت فيها حياة جدي. أي خلال لحظة وهي اللحظة التي استغرقتها رؤية دخان مسدس القاتل وهي تتلاشى في الحرارة اللافحة لصيف في القدس.

وهذه المعتقدات قد ساعدتني مساعدة كبيرة على احتمال فقدان جدي، كما أنها أسدت إلي خدمة جلى في التغلب على الأزمات والمخاطر.

ومما لا شك فيه أن موته قد أتاح لي أن أوضح مفهومي للحياة. وهنالك شيءآخر تعلمته. فإذا كانت الحياة لا قيمة لها تقريباً فإن نصيب الإنسان من هذه القيمة أقل. ولسوف لن أنسى الخداع الإنساني كما بدا لي في هذا اليوم، فإن موقف ونذالة أولئك الذين كانوا يزعمون أنهم أصدقاء جدي، قد أثرا في نفسي تأثيراً عميقاً إلى الحد الذي لم يكن لدي سوى رغبة واحدة: أن لا أغدو ملكاً للأردن، لذلك تلقيت بارتياح نبأ أن والدي الذي كان يعيش في سويسرا، قد بدا عليه التحسن. وعند عودته كنت أرجو أن أتمكن من الرجوع إلى كلية فيكتوريا بعيداً عن التعطش إلى السلطة والطمع اللذين انطلقا من عقالهما بعد وفاة الملك عبد الله. فالسياسيون، كالطيور الجارحة، كانوا يتقاتلون لاحراز بعض الفتات من السلطة، وبعض الطامعين من الأقارب، لم يكونوا ينتظرون سوى قراءة الوصية. وكان بعض الناس يشكّون في أن والدي قد تعافى بمقدار كاف ليرتقي العرش. وبعضهم كان يأمل أن لا يستطيع تولي الملك لأنهم كانوا يشتهون الملك لأنفسهم، وكنت أنظر بحزن وأنا عاجز عن إتيان أي فعل، كيف كان «أصدقاء» جدي العجيبون يتناسون إخلاصهم دون أي تفكير في مصلحة البلاد. لقد رأيت البنيان الذي أنشأه الملك تتزعزع أركانه لأن أقرباءه كانوا عاجزين، ولأن ضعفهم سهَّل تدخل الإنتهازيين. وهذا كان يعني انهيار الأردن الصغير.

*** لقد أثر حادث اغتيال جدكم تأثيراً كبيراً على تطور شخصيتكم ولاشك. ولقد كان حدثاً تاريخياً هاماً في تاريخ الأردن. في أية ظروف وقع هذا الاغتيال؟**

- كان ذلك في يوم الجمعة العشرين من تموز (يوليو) عام ١٩٥١. كان الحر شديداً وكان هذا هو اليوم الثاني من اقامتنا في القدس. في هذا اليوم وفي المسجد الأقصى بالقرب من قبة الصخرة، أحالت هذه المأساة القاسية المريرة الفتى ذا الستة عشر ربيعاً الذي كنته، إلى رجل.

كان الجو ثقيلاً طوال سائر أيام الأسبوع، وكانت نهاية الحرب الأولى العربية الإسرائيلية عام ١٩٤٨، بين أمور أخرى، قد تركت العالم العربي متلاشي النفس، ساخطاً، غاضباً.

كان التوتر يتعاظم ويتسرب إلى كل مكان كالغيوم المسمومة.

في يوم الاثنين السابق، كان اغتيال السياسي اللبناني الكبير رياض الصلح قد ألهب العواطف والاهواء. لم يكن لمصرعه حقاً أية علاقة بجريمة القتل التي تلته. ولكن اغتياله حدث وهو ضيف في الأردن، فتأثرت له البلاد تأثراً عميقاً، حتى أن الوجوه في الشوارع كانت مقطبة. وما كان الناس يكفون عن الصمت، إلا ليندفعوا إلى الصراخ والمناقشات الحادة التي كانت تنذر بقرب حدوث أزمة.

كانت هذه هي المرة الأولى التي عرف فيها الأردن اهانة كهذه، وبديهي أنها كانت أمراً تافهاً بالقياس إلى الأزمات التي ذللتها وسيطرت عليها منذ ذلك الحين، ولكنها كانت أولى هذه الأزمات. لم يكن غضب الشعب موجهاً ضد رجل أو حزب، وإنما ضد هذه القوة الخفية التي حطمت المجرى الهادىء للحياة.

كان السكون والهدوء يخيمان على الأردن عندما كنت صبياً، وكانت الحياة

فيه ناعمة رخية. أما شعبه فكـان يكدح بعـزيمة لا تعـرف الكلال. كـان يعبد الله ويمتثـل لأحكام القـوانين ولا يبتغي إلا العيش بسـلام وضمان مكـان له في الجنـة، عندما اغتيل فجأة زائر رفيع الشأن، . . عندنا، زائر كـان يتمتع بضيـافتنا. وبعـد ذلك ببضعة أيام. . . قتل الملك نفسه.

لقـد فكرت دومـاً بأن مصر كـان لها نصيب من المسئولية في اغتيـالـه، لأن جدي كان له فيها كثير من الاعداء. لم يمض إلا وقت قصير على مغـادرتي المدرسـة في الاسكندرية، عنـدما بـدأت الحملة ضد جـدّي. لقد كـانت مؤامرة تـرمي إلى تفكيك أجزاء الأردن، أما المصريون أنفسهم فلا شأن لهم بذلك. فقد عشت بينهم وأنا أعرفهم. في ذلك الحين كانت الفروقات بين الطبقات عـظيمة. وكـان الهدوء الغـريب للشعب، ينبىء بالإنفجـار. كان يبـدو أن المصريـين راضـين بحكم أي كان. ولكن ذلك لم يكن إلا من قبيل المظاهـر. لقد كـانوا سريعي التـأثر بمـا كان يوحى إليهم، وكانـوا قليلي الإطـلاع على أحـوال العالم العـربي. ولكن المعارضـة الداخلية كـانت تتزايـد. فقد كـان من غير الممكن الابقـاء على هـذا الشعب تحت رحمة الجوع وسياسة التجهيل، كما كان يفعل الحكـام المصريون المتسلطون القسـاة ازاء الفـلاحين قبـل ثورة عـام ١٩٥٢، فأدرك أصحـاب السلطة دلائـل الخـطر، فلجأوا إلى الأسلوب القديم في تقديم كبش الفداء، فكـان الأردن أنسب ما يحقق هذه الغاية. لقد تلقت بلادي، أثناء الحـرب ضد إسرائيـل، أكبر الضربـات. إذ كانت محل الانتقادات من كل نوع، على الرغم من أن جدي قد نبه شعبـه إلى كل ما سوف يحدث قبل ذلك بوقت طويل. لم يكن وعيـه السياسي غـير عادي، ولكن قدرته على التنبؤ وكلفه بالحقيقة اجتذبا إليه طائفة لا بأس بها من الاعداء.

في الـوقت الذي كنـا نتكلم فيه عن الـرحلة إلى القدس، كـان احسـاسنـا الداخلي بما سوف يحـدث قويـاً إلى الحد الـذي جعل جـدي نفسه يبـدو كأنـه يتنبأ بالكارثة وهو الرجل الذي لا يفزع ولا يقلق بسهـولة. وإنني لأذكـر كيف تناقشت معه طويلاً قبل ثلاثة أيام من ذهابنا إلى المدينـة المقدسـة. ودون أن أفهـم السبب، قال لي جدي فجأة بصوته العذب:

«أرجو أن تعرف يا ولدي، أن عليك في يوم ما، أن تتحمل مسئوليات جسام. وإنني لأعتمد عليك أن تصنع المستحيل لكي لا تضيع جهودي سدىً. إنني أعتمد عليك في الاستمرار في خدمة شعبي».

إنني أذكر جيداً هذه اللحظة. فجدي الذي كان بدوياً بقلبه كان شديد الحب للبادية وعوائدها إلى الحد الذي جعله ينصب الخيام في حدائق قصره بنفسه، ويقضي فيها جزءاً كبيراً من وقته. وكان في الأمسيات المعتدلة الطقس يجلس متكئاً على الوسائد الحريرية يحيط به أصدقاؤه الذين يفدون لزيارته. وفي إحدى الخيام، وأنا جالس بالقرب منه كما كان يحدث لي غالباً، وعدته وعداً رسمياً بتحقيق أمنيته. لقد بذلت له هذا الوعد وأنا أعرف تمام المعرفة ما أقدمت عليه، وأتوق إلى الوفاء بوعدي واحترامه. ولكني لم أكن أتخيل لحظة واحدة أن الأمور سوف تتسارع بهذا الشكل.

كان الملك عبدالله، وهو في التاسعة والستين، يتمتع بصحة جيدة. وكان والدي أيضاً يظهر دلائل مشجعة على قرب شفائه. فكان لا بدّ من انتظار وقت طويل قبل أن يرتقي والدي العرش. أما بالنسبة إليّ، فقد كان الأمر أبعد منالاً.

وما كادت تمضي أيام ثلاثة على ذلك حتى كنت أجثو أمام جثة جدي في الوقت الذي كان أصدقاؤه يهربون في كل اتجاه. وبعد مضي سنة أصبحت ملك الأردن. وإنني اليوم لأتمنى أن يكون الوعد الذي قطعته له قد أنعش فؤاده بالقدر الذي شدّد من تصميمي على الرضاء بإرادة الله وخدمة شعب الأردن ما وسعني ذلك.

لقد وقعت أحداث عديدة خلال هذا الأسبوع الفاجع. ففي صباح الأربعاء، عشية رحيلنا إلى القدس، التمس سفير الولايات المتحدة مقابلة الملك.

قال: «يا صاحب الجلالة، هل أستطيع أن أتوسل إليكم بأن لا تذهبوا إلى القدس. إذ يبدو أن هنالك مؤامرة للاعتداء على حياتكم انني لأرجوكم يا مولاي أن تعدّلوا من برامجكم».

فنظر إليه جدي وهو مستغرق في التفكير. ثم قال له:

«أشكركم لتحذيري. حتى ولو صح ما ذكرتموه، فلسوف أذهب على كل حال لأن حياتي ملك لشعبي ومكاني هو بالقرب منه. ولسوف أموت إذا كانت هذه هي مشيئة الله».

في يوم الأربعاء أنهينا استعدادات السفر. ولم يكن مفترضاً أن أقوم بالرحلة إلى القدس. ولكن في المساء بعث إليّ الملك يطلبني وخاطبني قائلاً: «إنك تعلم بأنني طلبت إلى الكثير من الناس مرافقتي غداً إلى القدس، ولكن الغريب أن معظمهم لا يرغبون في الذهاب، فكأنهم يخشون شيئاً. إنني لم أسمع في حياتي أعذاراً بهذه التفاهة». ونظر إليّ لحظة ثم أضاف «هل تريد أن تأتي معي يا ولدي؟» فقلت له: سأكون سعيداً بذلك فحياتي ليست شيئاً يا مولاي، بالقياس إلى حياتك.

ربما كانت اللهجة مسرحية، ولكن الكلمات كانت تصدر من أعماق أعماق قلبي. فنظر إليّ بوقار، ولكنه لم يضف شيئاً. كانت الدموع تترقرق في عينيه. . . ذهبنا إذن إلى القدس معاً. وقد بدأ نهار الجمعة باكراً جداً، لأنه كان قد وعد بزيارة بعض الأصدقاء في نابلس، قبل أن يتوجه إلى القدس للصلاة. فتناولنا فطوراً صباحياً جيداً نسبياً، لأن النهار سيكون طويلاً. ونظر إليّ جدي لحظة، ثم طرح عليّ سؤالاً لم يكن على الأقل متوقعاً:

«لماذا لم تلبس البزة العسكرية؟».

لم يكن لدي أي داع لارتداء الزي العسكري. فالملك الذي كان ذوقه بسيطاً جداً لم يسبق له أبداً أن طلب مني تغيير ملابسي (كان لا يحب ارتداء لباس المراسم والاحتفالات في يوم مخصص للصلاة) يضاف إلى ذلك أنني لم أكن أملك سوى بذلة عسكرية واحدة. وقد أرتديتها في اليوم السابق بمناسبة تقديم سرب الطيارين الأول في القوات الجوية الأردنية. ولما كنت أريد تنظيفها، فقد بعثت بها إلى عمان مع ملابس أخرى شخصية قبل تناول طعام الفطور.

وأمرني جدي قائلاً: «عليك بارتداء البزة العسكرية».

فأسرعت بإرسال ساع لاستعادة الرداء بأسرع وقت ممكن. وغيّرت ملابسي بعد قليل من أجل زيارة نابلس التي لم تستغرق وقتاً طويلاً. ولما كنا متقدمين في الوقت على البرنامج المحدد، فقد استقبل جدي بعض الوجهاء المحليين.

كان بين الزوّار الجنرال كوك الذي كان يسمى وقتئذ كوك باشا، وهو قائد الفرقة الجديدة في الجيش العربي. لم يكن قد مضى على وصوله إلى الأردن إلاّ وقت قليل. ولقد قبلت بسرور طلب الملك أن أقوم بدور المترجم بينهما، لا سيما عندما قال له:

«إنني فخور بحفيدي وغداً سوف أقلده شعار المرافق العسكري».

قليل أولئك الذين كانوا يعرفون أن غداً بالنسبة إلى جدي سوف لن يأتي أبداً. كان هناك رجل يعرف ذلك. ولقد كنت إلى جانب جدي عندما وصل خاضعاً متواضعاً يلتمس المقابلة. كان اسمه الدكتور موسى عبدالله الحسيني. كان من أقرباء المفتي ومن خريجي جامعات المانيا الغربية. لقد خرَّ راكعاً أمام الملك ثم أعرب له، وعيناه تحدقان في عينيه، عن ولائه، متمنياً له طول العمر والسعادة.

وبعد ساعتين كان الملك قد قتل. أما الحسيني، فقد كان تورطه في هذا الاغتيال من الخطورة بحيث تم إعدامه.

كانت حياتي دوماً مرادفة للعزلة. وقد ساءلت نفسي مراراً منذ يوم الجمعة الدموية هذه، عما كانت تخفي هذه الإبتسامات المعسولة، وهذه الإنحناءات، وهذه المجاهرة الحارة بالولاء. واني لأتساءل اليوم عما إذا كان جدي لم يتحسس باقتراب الخطر منه. كان الناس جميعاً على الرحب والسعة في بيته في القدس. وقبل قليل من انطلاقنا نحو المسجد وصل جماعة من الأصحاب فكلمهم جدي عن أولئك الذين رفضوا مرافقته بعبارات كان فيها من معاني التنبؤ بالغيب ما كان سيجعلني لا أنقلها أبداً لو لم يكن يوجد الكثير من الشهود عليها.

قال: «لقد خافوا». وأضاف: «إن الحياة والموت بالنسبة إليّ ليس لهما إلا أهمية قليلة. وإذا كان لا بد من أن أموت، فإني أفضل أن أقتل برصاصة في الرأس. فهو أسرع أنواع الموت».

وعندها نظر أحدهم إلى الساعة، فنهض جدي لأن وقت الإنطلاق كان قد حان.

جلس أحدنا بجانب الآخر. وانطلقنا باتجاه المسجد كانت كل التدابير الأمنية قد اتخذت. وكانت تحرس الطريق قوات مجهزة بكامل أسلحتها. كان القلق بادياً على الوجوه. وما أن دخلنا المدينة القديمة، حتى ترجلنا متجهين إلى المسجد. كان الحرس العسكري من كثرة العدد إلى الحد الذي جعلني أسأل ضابطاً: «ما الذي يجري؟ هل يتعلق الأمر بمسيرة جنائزية؟».

كنت أسير وراء جدي باتجاه خفيف نحو اليمين. لقد تبادل بعض الكلمات في الطريق. ثم انتصب باب المسجد أمامنا تماماً، وقدم حرس الشرف التحية العسكرية.

وعندما دخل جدي المسجد استدار نحو قائد الحرس وسأله عما إذا كان لا يعتقد بأن المراسم العسكرية غير مناسبة في مكان مقدس.

وتقدم نحو المسجد، وما كاد يخطو بضع خطوات، حتى ظهر رجل وراء الباب الكبير إلى اليمين: لم يكن في حالة طبيعية. وكان يمسك بسلاح. وقبل أن يستطيع أحد أن يبدي أية مقاومة، أطلق النار. لم يره جدي أبداً. وكان على بعد مترين من القاتل. فأصيب برأسه، فانهار وقد انتشرت عمامته على الأرض. لم أتبين فوراً ما قد حدث خلال لحظة كانت تبدو دهراً كاملاً، بقي القاتل جامداً غير قادر على الحركة.

إلى جانب قدميّ، كان شكل أبيض مسجى على الأرض. وبقيت لا أفهم أبداً. وفجأة استدار الرجل وفرّ هارباً. فانطلقت في أثره في داخل المسجد. وفي

الوقت الذي انطلق مسرعاً، رأيت من طرف عيني كل أصدقاء جـدي يهربـون في كل اتجاه. إنني ما زلت أراهم، هؤلاء الكبراء وأعيان الدولة وهم يخفون وجوههم ويفرون كأنهم العجائز المذعورات. إن هذه الصورة سوف تبقى محفورة إلى الأبـد في ذاكرتي أكثر من صورة القاتل، لأنها كانت إلى حـد كبير الـبرهان الأكيـد الدائم على ضعف الولاء السياسي وسرعة زواله.

كل ذلك حدث في جزء من الثانية. وكان القاتل يجري في خط متعرج دون أن يعرف في أي اتجاه يفر. وكانت طلقـات الرصـاص تلعلع في كل مكـان داخل المسجد. وفجأة التفت، بعد أن حوصر في زاوية، فاستشففت وجهـه وفمه الأدرد الخالي من الأسنان وكانت عيناه تلمعان والسلاح ما زال في يده اليمنى عندما رأيتـه يسدده نحوي وقد أصبت بما يشبه مفعول التنويم المغناطيسي، لقد حدثت الأمـور بسرعة: رأيت الدخـان وانطلقت الـرصاصـة فترنحت وقـد تزعـزعت أركاني من جراء صدمـة كبرى أصـابت صدري. فتسـاءلت عما «إذا كـان ذلك هـو الموت». وانتظرت ولكن لم يحدث شيء لقد حدثت معجـزة. فقد ضربت الـرصاصـة أحد أوسمتي ثم ارتـدت. لقد سلمت من الأذى بفضـل جـدي ولا شـك، لأن البـزة العسكرية قد أنقذت حياتي.

عنـدما سقط القـاتل بـدوره كان مستمـراً في إطلاق النـار... فـاستـدرت عندها نحو جثة الملك. لقد كنت مصاباً بدوار في الرأس عندما جثوت إلى جـانبها ولكن كنت بشكل خاص غاضباً مغتاظاً. فلم أفكر إلا بشيء واحد وهو أن هؤلاء الرجال الـذين أحبهم جدي ورفـع مقامـاتهم أو ساعـدهم، قد هـربوا. وفككت أزرار ثوبه بينما كان الطبيب يفحصه. وكنت أرجو من صميم القلب أن يكون مـا زال ثمة أمل. ولكن كان كل شيء قد انتهى. فأعدنا تغطيته بثوبه واستعملنا أحد البسط كمحفـة لنقله إلى المستشفى. وكنت أرغب في البقـاء بـالقـرب منــه ولكن الـطبيب أقنعني بلطف بالعـدول عن ذلك، ثم حقنني بـابرة لتجـديد نشـاطي كما قـال. وبقيت لا أفهم أبداً مـاذا حدث إلى أن حـانت لحظة الـذهاب إلى المطار. عندها فجأة أحسست بنفسي وحيداً، وحيداً تماماً!

انتحيت طوال الرحلة مكاناً منعزلاً بعض الشيء. في هذه اللحظة التي اتصفت بالإرتباك والتشوش اللذين لا حد لهما، لم يكن ليستطيع أحد أن يسرّي عني أو يشدد من عزيمتي أو يقوي من معنوياتي. أبداً لا أحد كان في مقدوره أن يفعل ذلك. . . ولقد عمد بعضهم من باب اللياقة المحضة إلى الإعراب لي عن تعاطفهم ومشاركتهم لي في مشاعري.

وقفت وحيداً على مدرَّج المطار أتحسر بشدة على غياب والدي الذي كان يتلقى العلاج في سويسرا. لقد كان ذلك أول درس لي في الشعور بالعزلة.

وقد كنت أحس أيضاً بانحطاط شديد في القوى. وعندما أفكر في الحياة التي عشتها منذ هذا اليوم أدرك أن الثمن الذي كان علي أن أدفعه لم يكن العمل الدائب الموصول الذي أحبه ولا متاعب الصحة التي لاحقتني، ولكنه ثمن أشد فداحة وأشق احتمالاً. لقد كنت طوال مدة حياتي محاطاً بطائفة لا حصر لها من الناس، كنا نتكلم معاً ونضحك معاً، ولكن على مدار السنين وفي قرارة نفسي كنت وحيداً كرجل غريب.

لقد وقفت على مدرَّج المطار وأنا ما أزال تائه الفكر من جراء سرعة تتابع الأحداث، عندما اقترب مني رجل يرتدي الزي العسكري لسلاح الطيران. كان وجهه صارماً تكسوه الغضون والتجاعيد وكان ذا أسنان قوية وشعر أحمر. قال لي باستحياء، وبلهجة اسكتلندية ظاهرة:

«هل تريدون أن تأتوا معي يا مولاي، فلسوف نقوم بالرحلة معاً؟» وقادني أمام طائرة ذات محركين من طراز دوف، ودعاني لأن آخذ مكاني إلى جانبه. ثم أدار المحرك وأقلعنا إلى عمان.

هذا الرجل هو في الواقع الرائد جوك دالجليش من ضباط السلاح الجوي الملكي البريطاني. ولم أتصور في هذا اليوم الذي طويت فيه إحدى صفحات التاريخ، أن دالجليش سوف يعلمني قيادة الطائرات بعد سنتين، وأنه بعد ذلك بسبع سنين كان علينا جوك وأنا وفي نفس الطائرة، أن نقاتل دفاعاً عن حياتينا،

طائرات الميج السورية التابعة لعبد الناصر التي كانت تهاجمنا.

وفي اليوم التالي حملت سلاحاً لأول مرة في حياتي.

لقد مات جدي في مدينته العزيزة القدس. «أجمل مدن الدنيا» كما كان يحلو له أن يقول. لقد كان حبه الأول للحجاز الذي ولد فيه وهو مساحة صحراوية تقع في شمالي اليمن تتوسطها مكة المكرمة، مهد الإسلام، ومن الحجاز بدأ جدي مسيرته نحو الشمال في عهد الثورة العربية الكبرى.

ثم مرت الأيام واستقر في الشمال، وحمل حكمه السلام والاستقلال لما يسمى في يومنا هذا الأردن. ونما حبه للقدس إذ كان رجلاً متديناً شديد الورع والتقوى. فهو لا يدخل أبداً أية مدينة قبل أن يستعلم عن معناها الروحي. ولكن القدس كانت شيئاً آخر: فالأماكن المقدسة فيها والأسوار القديمة والمآذن المتعالية وأشجار الزيتون في الجسمانية، والأسواق الضيقة التي تحيط بدرب الآلام كانت هي أيضاً مهد الأمل والإيمان. فعندما تشرق الشمس، ويبترد الهواء فيها، تغدو مدينة فريدة في نوعها.

والأردن أيضاً بلاد جميلة تمتد فيها الصحارى إلى ما لا نهاية، ويسرح فيها البدو، ولكن الجبال الواقعة في شمالها مغطاة بالغابات الخضراء حيث يجري نهر الأردن، فهي أراضي خصبة صيفاً وشتاءً. إن بلادي ذات جمال يستحوذ على العقل، وتشع فيها بصمات قوية من معاني الخلود. إنها آخر ما تبقى من عالم الأمس بما وسمت به من آثار تمثل ما كان قديماً يشكل إحدى الإمبراطوريات العظمى. انني أحب كل شبر من الأرض فيها. وأحب عمان حيث ولدت في ١٤ تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٣٥ عمان التي شاهدتها تنمو بمضي السنين. وانني لأشعر دوما بنفسي تفيض بالإعجاب والإفتتان كلما عاودت مشاهدة مدينة البتراء القديمة ذات المعبر الضيق الذي كان يمكّن إثني عشر رجلاً من النبطيين، من مقاومة جيش بأكمله كما انني أحس بمشاعر الإرتياح والدعة كلما وجدت نفسي تحت الخيام الرمادية لقبائل البادية.

*** لقد ارتقى العرش جلالة والدكم الملك طلال، وأصبحتم تبعـاً لذلـك ولياً للعهد . . .**

ـ لقد رغب جدي في أن ألتحق بكلية هارو، ولكنني أقنعته قبل وفـاته بـوقت قليـل بأن كليـة فيكتوريـا أكثر مـلاءمـة لي. فقـد كنت أشعـر بـطيب الإقـامـة في الإسكنـدرية التي أمضيت سنتـين فيها. ولقـد قبل جـدي بوجهـة نـظري. ولكن استشهاده غيَّر الكثير من الأمور. غـدا سفري إلى مصر غـير ذي موضـوع بعد أن أصبحت ولياً للعهد، نظراً لموقفها العدائي وللتوتر المتزايد الذي كان قائماً آنئذ بين بلدينا. وهكذا كنت مضطراً لأن أعدّل من مشروعاتي.

استمر والدي في الإقامة في أوروبا، وما لم يعـد إلى الأردن لتقلد مسئوليـاته الجديدة كملك، فقد كان من غـير المستطاع بـالنسبة الي أن أغـادر البلاد. كـانت التعليقـات لا تتوقف والـدسائس تحـاك وقد عـاد خالي الشريف نـاصر من العراق حيث كان يقيم، ومع إبن عمي الشريف زيد، شكلنا نحن الثلاثة فريقاً صغيراً. وقمنا بزيارة كافة أرجاء البلاد. وتحدثنا مع الآلاف من الناس. وكنا نقضي الليـل غالباً في البادية. فكان ما أقدمنا عليه تجربة تستحق الإهتمام.

وأخيـراً عـاد والـدي إلى عـمان وأصبـح لـزامـاً عـلي أن أسـافـر إلى إنكلترا لـلإلتحاق بـالمدرسـة الجديـدة التي كنت لا أعرف فيهـا أحداً بـاستثنـاء إبن عمي فيصل. كان الطلاب يمارسون فيها لعبـة الرجبي بـدل كرة القـدم. وقد بـدت لي اللغة الانكليزية فيها صعبة الإستيعاب.

كانت هارو المؤسسة العلمية المختـارة. ولا بد لي من الإعـتراف بأنني كنت فيها غير سعيد في البداية. ولم يكن ذلك عائداً تماماً إلى خطأ شخصي مني فقد كـان

نطقي للغة الانكليزية أسوأ مما كنت أعتقد. إذ بعد سنتين قضيتهما في المدرسة الانكليزية في مصر وجدت هذه اللغة في هارو مختلفة تماماً. كان التحدث بالإنكليزية في الإسكندرية غنائياً وبطيئاً، أما في هارو فقد كان التحدث يجري بسرعة فائقة. وفي المرة الأولى التي رغب فيها الطلاب في توجيه الكلام إلي لم أفهم نصف الكلمات التي قيلت.

وفي الصف كان الوضع أسوأ. فالصعوبات كانت من الشدة إلى الحد الذي لم أتمكن فيه من حفظ دروسي على الوجه الصحيح. كانت اللغة العربية في الإسكندرية هي المادة الرئيسية، أما الآن فقد كان علي أن أركز جهدي على اللغة الإنكليزية. في هارو كان التاريخ والأدب الإنكليزي المادتين الأكثر أهمية. ولقد استنفدت كل ما لدي من طاقة لأتمكن من الفهم والحفظ. إذ كان لا بد لي من بلوغ الغاية.

ولقد وجدت مشقة كبيرة من الناحية النفسية في التكيف مع هذا النوع من الحياة. إذ انفتح أمامي عالم جديد بتقاليده وعاداته وأنظمته. ما أعظم الفارق بين هارو وكلية فيكتوريا! لقد كان علي أن أعيد تعلم كل شيء. فقد كنت كالحديث العهد بالجندية. ولكن هل يستطيع المرء أن يكون جندياً في السادسة عشرة من العمر؟. ومن الغريب أنني كنت أنضج وأرشد من رفاقي. فالتربية التي نشأت عليها، والعالم الذي تدرجت حياتي فيه قد جعلا مني رجلاً بين أولاد. وربما كان هذا هو السبب الذي من أجله لم أقبل فوراً بين أصدقائي الجدد. على الأقل هذا ما أحسست به ويخيل إلي أنهم اعتبروني تلميذاً مثيراً للفضول والإستغراب فقد كنت دوماً قابعاً في زاويتي مع ابن عمي، في حالة من انقباض الصدر بعض الشيء. كنا نحن الإثنان الوحيدين اللذين لم يطلق عليهما ألقاب. ذلك لأن فتيان المدارس الخاصة في بريطانيا يراعون منتهى الدقة فيما يختص بشئون البروتوكول، أكثر منا نحن نزلاء القصر في عمان. وبدلاً أن ينادوني باسمي، حسين فقط، كانوا يفضلون غالباً ألا يكلموني على الإطلاق.

حاولت أن أندمج بهم، أن أقيم علاقات شخصية معهم، أن أكون

مستريح النفس منشرح الصدر حقاً. أثناء تناول الطعام كنت أبحث عن ابتسامة ودية بين العديد من الوجوه التي كانت تحيط بي. وحاولت أن أفهم ما يمكن أن يباعد بيننا. كانت علائم الثقة بالنفس تفيض بها وجوههم وكان لكل منهم حلقة من الأصدقاء خاصة به، وقد وجدتهم في الواقع يتكلفون التباهي ومجاراة الافانين الشائعة بعض الشيء. اقتصرت أحاديثي معهم طوال أسابيع طويلة على كلمتي (صباح الخير) و (مساء الخير) وقد كنت أستشعر بسعادة بالغة عندما كانوا يرتضون الرد عليّ.

حتى الطعام كان مختلفاً، ومع ذلك فقد كان أفضل مما يقدم في المدارس الأخرى. ولكنني افتقدت الأطعمة الأردنية وكذلك الشاي الأصلي والقهوة الأصلية. فقد كانت بريطانيا العظمى آنئذ خاضعة لنظام التقنين، وكان لا بد من البطاقات للحصول على الحلوى، ولم يكن من حقنا أن ننال إلا بيضة واحدة في الأسبوع. وقد اعتدت على ذلك شيئاً فشيئاً، وأصبحت أتذوق الطريقة الانكليزية في طهو الطعام، مهما بدا ذلك غريباً. وكنت أقدر المواعيد الدقيقة المنتظمة في تقديم الوجبات، ، بدءاً بالفطور، ثم بالوجبة الخفيفة في الساعة الحادية عشرة، ثم بطعام الغداء، فالشاي، وطعام العشاء. وجاء يوم لم يعد الدراق مقنناً، فتراكض عليه الناس جميعاً. ومنذ ذلك الوقت أصبحت كلما آكل الدراق، أتذكر العلب المحفوظة منه التي كنت آخذها إلى غرفتي لآكلها في المساء.

ورويداً رويداً بدأت الأمور تتطور دون أن أشعر بها. فتارة كنت أخلو إلى نفسي، وتارة كنت أجد نفسي بين طائفة من الأصدقاء. وجعلت أمارس الألعاب الرياضية بازدياد مستمر وكذلك لعبة الرجبي التي اكتشفتها بعد بضعة أسابيع.

وانني لأذكر الفرح الذي غمرني في اليوم الذي قام فيه فتى بقذف الكرة إليّ وهو يصيح: «هيا يا حسين لقد حان دورك».

لقد كان لي غرفة صغيرة أسوة بجميع الطلاب. وعلى الحائط حفرت الأحرف الأولى من اسمي. كانت حجرة غريبة ذات أغرب سرير عرفته في حياتي فهو مصنوع من الحبال والقماش لكي يدمج في الحائط، الأمر الذي كان يمكنني من

التصرف بكامل الغرفة خصيصاً للعمل فحسب. وكان عندي كبقية رفاقي، مقعد وخزانة للثياب وطاولة صغيرة. كان هنالك فارق واحد: وهو بساط صغير جئت به من الأردن.

كنت أنهض كل صباح في الساعة السابعة فأستحم برذاذ من الماء البارد، الذي لا أستحسنه بنوع خاص، ثم أرتب غرفتي وأصبغ حذائي وأتأكد من أن بنطالي مكوي (كنت أضعه كل مساء تحت الفراش). وكنت أحب النظام دون أن أكون ذا ميل مفرط في أي شيء. فألمع حذائي وأجد متعة في إنجاز عملي باتقان مطلق. وانني أعتقد بأنني كنت هنالك أعيش بصورة لاشعورية حياة كنت دوماً أصبو إليها كرجل مستقل يقود سفينته على طريقته الخاصة. إنني أحب المنافسة حباً شديداً لاسيما عندما تكون النتيجة متعلقة بي. وبالإضافة إلى البرنامج المدرسي فقد تسجلت في الصف الخاص باللغة العربية وكنت أيضاً أمارس رياضة المبارزة بالسيف لأن جدي قد شجعني على المضي في ممارسة هذه الرياضة.

ولكن الذي كنت أستحسنه فوق كل شيء في هارو، فهو الحياة خارج المدرسة. فقد أهداني صديق لوالدي سيارة من طراز روفر ذات لون أزرق سماوي. لقد تعلمت قيادة السيارات في عمان كما سبق لي أن ذكرت لك، ولكنني كنت أقود سيارات الآخرين. أما الآن على الأقل فلي سيارتي الخاصة. وكان أول شيء فعلته هو التقدم للفحص للحصول على إجازة قيادة. قد يكون هذا مضحكاً ولكنني لا أستطيع إجراء الفحص في عمان لعدم وجود من يستطيع تحمل مسئولية ذلك. لهذا كان لابد من أن أذهب إلى انكلترا لتقديم فحص الإجازة التي تمكنني من قيادة سيارة في عمان. وعندما عدت إلى الأردن فيما بعد بصفتي ملكاً كان لدي إجازة قيادة بريطانية.

لم أحصل على إذن بايواء سيارتي في المدرسة. وكان النظام يقضي بذلك، فقام سفير الأردن بإيجاد مأوى لسيارتي بالقرب من هارو في سدبوري على مسافة كيلو متر ونصف من المدرسة.

وهناك التقيت بموريس رينور الذي يعمل في الأردن منذ ذلك الحين. كانت

السيارة غرام حياته الأكبر. فقام بيننا تعاطف فوري. وبالطبع لم تكن الحياة في هارو مجرد قيادة سيارات جميلة، أو أكل الدراق المحفوظ في علب! فقد كنا نشق على أنفسنا في العمل. أما ما كنت أستحسنه فوق كل شيء، فقد كان النظام. فعلى الرغم من صرامته، كان الفتى ابن الستة عشر عاماً يتمتع بحرية واسعة وببعض الامتيازات، ولكن لا أحد كان يسيء استخدام ذلك. إنني جد ميال إلى هذا النمط من التربية الذي يمكّن الطلاب من أن يفرضوا على أنفسهم نظامهم الخاص والذي يتيح لهم الفرصة لسلوك مسلك الكبار البالغين. فالطالب الذي يعمل بشكل جدي في هارو والذي يسجل نجاحاً ملحوظاً، يستطيع أن يتمتع بأوقات فراغه كما يرغب ويشتهي. واني لأرجو أن تؤمن بأنني كنت أعرف كيف أستعمل الأوقات التي أكون فيها حراً.

وعلى مدار الأشهر، كنت أستقبل عدداً متزايداً من الزوار. وكان معظمهم من الدبلوماسيين. فقد كنت الوارث للعرش. كما أن جمعاً كبيراً من أعضاء الحكومة الأردنية قد جاء لزيارتي كلما كان أي منهم في رحلة إلى انكلترا. فكنت بذلك مطلعاً على أبسط التطورات التي كانت تطرأ على حالة والدي الصحية. وكنت في البداية كبير الأمل في تحسن صحته.

ولكن كان عليّ بسرعة أن أقلص من أمانيّ الطموحة. فقد كانت التحسنات الطفيفة في صحته تتلوها نكسات خطيرة. وكان هنالك انطباع مبهم يحملني على الشعور بأن مهاماً جساماً سوف تدعوني إلى بلادي في وقت أبكر مما هو متوقع. وانتهت (مهنتي كطالب) لتفسح المكان لمهنة أخرى تتناسب بصعوبة مع واقع كوني ما زلت قاصراً: ألا وهي مهنتي كملك للأردن. لأنه، كما سبق لي أن ذكرت لك، ليس ثمة مشكلة بالنسبة إليّ من هذه الناحية. فلأن أكون ملكاً هو مهنة كغيرها شريطة أن يحب المرء عمله وأن يكرس نفسه بكليتها له ويقفها عليه مع سائر التضحيات التي يمكن أن يتطلبها هذا المنصب.

*لقد فكرتم آنئذ بأن مدة حكم جلالة والدكم لن تطول. . .

ـ في سن الحادية والاربعين، كان والدي قد منح بلاده كل ما يملك. فقد ولد في مكة المكرمة، وأكمل علومه في ساند هيرست ثم التحق بالجيش العربي الأردني كضابط احتياط. تقلد منصب قاض في محكمة العشائر بعض الوقت، وتولى مرة أعمال نائب الملك أثناء غياب جدي. ما أعظم سعادتنا لو كانت حالة والدي الصحية قد أتاحت له أن يحكم مدة أطول. ولكن علامات خفية كانت تقلقني قلقاً شديداً. ولقد استدعتني أسرتي في أحد الأيام للانضمام إليها، ولم يكن الأمر يتعلق سوى بصحة والدي، وكنت أعرف أنه إذا ما وقع له أي مكروه، فلسوف أضطر إلى العودة. وكنت أخشى هذه اللحظة. لقد كنت أحب أسرتي وأحب بلادي، ولكن كان لدي انطباع بأنني ما زلت غير قادر على تحمل مسئوليات حكم الأردن وخدمة شعبي.

يضاف إلى ذلك أن تصرفات عدد كبير من الأشخاص الذين شاهدتهم يوم وفاة جدي قد أصابتني بخيبة أمل شديدة. فقد كنت أرغب في حياة طبيعية قبل فوات الأوان.

انتهت السنة الدراسية في هارو، وعلى الرغم من أنني استمتعت بها كثيراً فقد كنت في حاجة ماسة إلى الإجازة.

فذهبت فوراً إلى لوزان وأقمت في فندق بوريفاج على ضفاف بحيرة ليمان حيث وجدت والدتي التي كانت تتعالج وكذلك أخويَّ وشقيقتي. كانت الأيام الأولى بهيجة رغيدة، وكان صيف عام ١٩٥٢ جميلاً لطيفاً وهادئاً في هذا الركن الصغير من سويسرا التي يخضع فيها كل شيء لنظام دقيق، والتي كنت فيها على

أحسن حال من الراحة والدعة.

وفي صباح الثاني عشر من آب (أغسطس)، ذهبت والدتي وجميع أفراد الأسرة لشراء بعض الحاجيات في ساحة القديس فرانسوا. كنت وحدي في غرفتي أمتع ناظري بمشاهدة الأوز الطائر فوق البحيرة، وكانت تسعى نحو الميناء سفينة بيضاء اللون. قرع الباب، فإذا بخادم فتى يقدم لي مظروفاً موضوعاً على صينية من الفضة. لم أكن في حاجة لفتحه لكي أفهم أن (هارو) لم تعد بعد الآن بالنسبة إليّ إلا ذكرى. لقد كان يكفي أن ألقي نظرة على المظروف. فقد كان موجهاً إلى «حضرة صاحب الجلالة الملك حسين». للمرة الأولى في حياتي أنادى «بصاحب الجلالة» كجدي... ولم أكن قد بلغت السابعة عشر عاماً.

* ماذا كان أول رد فعل لكم؟

ـ لا شيء. لقد بقيت هادئاً جداً.

كانت الساعة قد بلغت التاسعة. ولم يكن الحر قد غلف المدينة بعد. فضضت الغلاف وأنا أتنهد. كانت الرسالة صادرة من رئيس الوزراء. وبأسلوب دبلوماسي نموذجي، وبلهجة تتسم بالفتور والأدب، أبلغني أنه يأسف لاعلامي أن والدي قد تنازل عن العرش وأنني قد غدوت منذ ذلك الحين ملكاً للأردن. وأن القرار الذي أنبأني به قد أقره مجلسا النواب والأعيان وأن عودتي قد غدت مرجوة وفي أقرب فرصة. كانت هذه هي اللحظة التي كنت أخشاها، لن أصبح أبداً طالباً بعد الآن. فهل أتمكن يوماً من أن أعيش حياة طبيعية وأن أكوّن لنفسي حياتي الخاصة؟

لقد كافح والدي بشجاعة للتغلب على مرضه ليس لمصلحته فحسب، ولكن بشكل خاص لأنه يعرف أن بلاده في حاجة إليه. ولقد انتقل خيالي في بضع لحظات إلى آلاف الكيلومترات نحو الشرق حيث كان والدي يناضل بعزيمة اليائس لاتمام مهمته على خير وجه في عمان، العاصمة التي تختلف كثيراً عن سويسرا التي أقيم فيها، العاصمة السمراء بدلاً من أن تكون خضراء، العاصمة الثاوية على الجبال مع غبار شوارعها، وجموعها ذوي الازياء المتباينة الألوان. لقد تخيلت بسهولة الاضطراب الذي كان سائداً في قصر بسمان. وفجأة فهمت بأنه لا حق لي بأن أتحسر على نفسي في الوقت الذي كان والدي يعاني من العذاب. ومن الصعب على المرء أن يتفهم من بعيد الوقائع المحزنة وكآبة الأحداث التي مرت بالأمس. ولم أعرف ما جرى فعلاً في الحادي عشر من آب، إلا فيما بعد. لقد

كنت مقتنعاً، وكنا نعرف ذلك جميعاً، بأن حالة والدي الصحية لا تمكنه من الحكم مدة أطول. فالمرض عنده قد اشتد طوال السنة الماضية، ولكن والدتي وأنا، على الرغم من ذلك، كنا نأمل في شفاء يتحقق بأعجوبة. كانت شعبيته عظيمة جداً. ولكنه قبل أن يعتلي العرش، حينما كان يعلم أن مستقبله غامض الملامح. بعث ببرقية مؤثرة إلى رئيس الوزراء قال له فيها بشكل خاص:

«إنني أعود إلى بلادي لأضع نفسي باخلاص تحت تصرفكم».

في صباح الحادي عشر من آب (أغسطس) عقد مجلسا النواب والأعيان جلسة سرية استغرقت عشر ساعات. وكان الملك في القصر. وقد أعلن رئيس الوزراء السيد توفيق أبو الهدى في هذه الجلسة، بوقار الرجل الذي يشعر بخطورة الموقف، أن والدي لم يعد في مقدوره ممارسة سلطاته الدستورية.

«بالطبع أنه ليشق على نفسي كثيراً أن أقول ذلك، ولكنني أخشى أن لا يشفى جلالته من مرضه في موعد قريب».

ثم عرض على أعضاء المجلس تقريراً طبياً عن حالة والدي الصحية، أعده قبل شهرين طبيبان أجنبيان ثم تقارير أخرى كتبها ثلاثة أطباء أردنيون.

يتضمن دستورنا مادة تنص على أنه في حالة عدم تمكن الملك من الحكم لأسباب مرضية، يحق لمجلس الوزراء دعوة البرلمان إلى الاجتماع. فإذا ثبت المرض وعدم الأهلية فللبرلمان الحق في أن يخلع الملك وأن ينقل امتيازاته الملكية إلى وريثه. وهذا ما حدث. فقد اتخذ القرار، إذ قضى تصويت أقرته الأكثرية بوضع حد لحكم والدي. وهكذا بعد اقامة قصيرة دامت بضعة أشهر في هارو. غدوت ملكاً للأردن.

ولما كانت حداثة سني لا تمكنني من ممارسة سلطاتي الدستورية فقد شكل مجلس وصاية من ثلاثة أشخاص خلال فترة غيابي.

كان عليّ إذن أن أعود إلى عمان على جناح السرعة.

وضعت المظروف في جيبي، وبعد بضع دقائق، كنت في ساحة القديس فرانسوا في قلب المدينة. فوجدت والدتي بعد بضع لحظات.

قلت لها: «لقد استلمت هذه البرقية». وسلّمتها إليها. فوضعت ذراعها على كتفي دون أن تتفوه بشيء، وعدنا إلى الفندق. جلست وراء مكتب من طراز لويس السادس عشر، أخط رسالة لرئيس الوزراء أعلمه فيها بأنني سوف أعود فوراً إلى الأردن، وأنني سوف يسعدني ويشرفني أن أخدم بلادي والقضية العربية. وبعد بضعة أيام كنا قد أعددنا حقائبنا ورجعنا إلى عمان.

كانت عودتي إلى الأردن بالطائرة. وكان الجو حاراً بعد ظهر هذا اليوم. قدم لاستقبالي جمع غفير من الشخصيات. إستعرضت حرس الشرف ثم صافحت حوالى العشرين من أعيان البلاد وكبرائها. وكان بينهم كلوب باشا. قائد الجيش العربي الأردني. لقد أحدث لي هذا الاستقبال الرسمي الودي الحار صدمة نفسية بمراسيمه الاحتفالية «لقد فكرت بأنني الآن وقد أصبحت ملكاً، فلسوف لن يقترب الناس مني أبداً بدون هذه المراسم». وغادرنا المطار الذي كان تحت المراقبة الشديدة. واتخذت السيارة وجهتها نحو عمان. ومنذ أن اجتزنا الضواحي، صدمت أيضاً وأنا أدخل المدينة. فقد شكلت قوات الجيش العربي حاجزاً على طول الشوارع. وفجأة وجدت نفسي وسط جمهور يتأجج حماسة وهو يصيح ويغني ويصرخ: «عاش الحسين» «مرحبا بالحسين». دون أن يكترث إلّا قليلاً بالمراسم وبالمقتضيات الدبلوماسية. حتى أن بعضهم حاول إيقاف السيارة بالصعود على مراقيها الجانبية ولما عجزت قوات الجيش عن احتواء الجمهور، انضمت إلى هذه الجموع الحاشدة المبتهجة: كان الاستقبال خيالياً بضخامته وحرارته. لقد كانت أوروبا وسويسرا الهادئة بعيدتين جداً عن هذه البيوت الحجرية وعن هذه البوادي التي لا نهاية لها. لقد كنت في الطائرة أشعر بأنني وحيد مكدود القوى منخفض المعنويات. ولكن مخاوفي جميعها قد تلاشت وأنا في طريقي إلى القصر. لقد سحرني هذا الجمهور وشدد من عزيمتي استقباله المؤثر. وفي هذا اليوم أدركت أن الشعب لم يكن يعرب عن حماسته وفرحته فحسب، وإنما كان يرغب بشكل خاص

أن يفصح عن مشاعر الود والتعاطف، وأن يجزل مظاهر التشجيع لملك شاب في السابعة عشرة من العمر. لقد كانت تجربة تلفت النظر بغرابتها وطرافتها، تجربة ممزوجة بالفرح والانفعال النفسي البهيج.

كان رئيس الوزراء إلى جانبي هادئاً غير منفعل. ولقد قلت له قبل أن نبلغ القصر:

«لا يستطيع المرء أن يحظى بهذا الاستقبال دون أن يعاهد نفسه ويعاهد الله على أن يبذل خير ما في نفسه لكي يستأهل هذه الثقة وهذا الإيمان. وإنني لآمل أن يدرك هؤلاء الرجال وهؤلاء النساء أنني سوف أنجز ما تعهدت به».

لقد أرهقتني رحلتي جسمياً ونفسياً. في هذه الليلة استسلمت للنوم كرجل غمرته السعادة. وفي صباح اليوم التالي نهضت موفور النشاط والقوة ومصمماً على مواجهة أي عائق بحزم وعزم وفعالية.

لم أكن أعرف المهام التي ستوكل إليّ لأنه كان عليّ أن أبلغ الثامنة عشرة من العمر ليتسنى لي ممارسة سلطاتي الدستورية. وإلى أن يحين ذلك الوقت كان مجلس الوصاية ينوب عني في هذا الأمر. فقررت أن أنتهز هذه الفرصة لأستزيد من الاطلاع على أمور شعبي وأستكمل السيطرة على الصعوبات الفنية لحياتي الجديدة.

فقمت برحلة استغرقت ثلاثة أسابيع لأستوفي التعرف على رعاياي. فزرت أهم المدن والقرى وقابلت آلاف الأردنيين، وذهبت سواء بالطائرة أبو بالسيارة، إلى أقصى أنحاء البلاد. لقد كان أمراً يبعث على الفرح والابتهاج أن أرى مدى الإخلاص الذي كان يكنه الشعب لي. ولقد حضرت مرة حفلة غداء قدم فيه المنسف في أحد مضارب البدو. كان هنالك مئات من الرجال والنساء يرقصون ويغنون ويطلقون الرصاص في الهواء ابتهاجاً. وقد حملوني على مشاركتهم في احتفالهم. و قفت أمام بيوت الشعر السمراء التي كانت تبرز من الصحراء، وقلت في نفسي عندها بأن البلاد سوف تكون بخير ما وجد في الأردن أمثال هؤلاء الرجال.

إنتهت هـذه الرحلة الممتـازة ويا لـلأسف. ماذا أصنـع؟ إنني رجـل يشعـر بالتعب ولا يتأثر به. إنني لا أستـطيع تحمـل البطالـة والتفرغ. وهكـذا سنحت لي فرصة لتحقيق حلم قديم.

في صبـاح أحد الأيـام زارني خـالي الشريف نـاصر ورئيس الـوزراء بـدأنـا نتحدث عن العادي من الأمور. وأحسست أنهما يرغبـان في مفاتحتي بـأمر جـدي. قدم لنا الخـدم الشاي بـالنعناع والتفت خـالي عندئـذ، وهو رجـل محبوب لـطيف المعشر نبيه ذو فطانة وقال لي:

«هل تعتقدون يا صاحب الجلالة أنكم إذا ما بقيتم في القصر، ستستفيدون من وقتكم فائدة أكثر؟».

فأجبته: هل لديك اقتراح تعرضه عليّ.

فرد قائلاً: بالتـأكيد. وإنني أعـرف بأن والـدكم سوف يقـدر اقتراحي حق قدره وكذلك جدكم نفسه فقد كان سيتمناه لو بقي على قيد الحياة.

وأدركت فجـأة اقتراح خـالي وقلبي يثب طربـاً. فقلت له: إنـك تـريـد أن تتحدث عن ساند هيرست.

فقال لي مؤكداً: نعم أن أباكم قد دخل هذه الأكاديمية وانني أذكـر قولـه بأن ساند هيرست أحسن مدرسة حربية في العالم وخير مكان يختاره الرجل ليتعلم مهته كملك».

وتذكرت عندها الكلمات التي قالها لي والدي قبل ذلك ببضع سنين، عندما كنت ألعب بجنود من الرصاص أمامه.

«لا يستطيع المرء القيادة وإدارة الأمور إلاّ بالنظام. ولا مكان في العالم يحسن تعليم ذلك أفضل من ساند هيرست».

وهكـذا سنحت لي فرصة فريـدة استثنائيـة! إنني أود أن أعطي خـير ما في

نَفسي وارغب في ان اتقدم امام شعبي وأنـا واثق تمـام الثقـة بنفسي وأن أرتقي العرش مستوفياً لأفضل الصفـات والشروط الممكنة. لقـد كنت ملكاً حقـاً ولكنني كنت أبغي أيضاً تمديد فترة شباب، يفر مني، بضع سنين أخرى. إن هذه الشهور القليلة في ساند هيرست ستكون بمثابة فسحـة من الوقت أو راحـة وقتية قبـل عقد العمل الطويل الأمد الذي سوف أوقعـه مع الأردن عنـدما أبلغ الثـامنة عشرة من العمر.

إتصـل كل من رئيس الـوزراء والجنرال كلوب بـوزيـر الـدفـاع الـبريـطاني للتصريح لي بمتابعة تدريب خاص عاجـل لمدة ستـة أشهر. وهكـذا بعد شهـر من استلامي برقية فندق بوريفاج استبدلت لقبي كملك بآخـر، وهو التلميـذ الضابط حسين بالأكـاديمية الملكيـة العسكريـة في سانـد هيرست. كـان ذلك في ١٩ أيلول (سبتمبر) من عام ١٩٥٢، وقد ألحقت بسرية أنكـيرمان أولـد كوليـدج غرفـة رقم ١٠٩.

*** بماذا عادت عليكم إقامتكم في أشهر أكاديمية عسكرية بريطانية؟**

ـ كانت ساند هيرست بلا أدنى شك تجربة غير عادية لأسباب شتى فقد ساهم هذا الفصل الدراسي القصير الأمد إلى حد كبير مساهمة فعالة في تكويني الفكري وإعدادي الشخصي كرجل. لقد كانت هارو وساند هيرست تجربتين متباينتين تماماً. كنت في الأولى أعتبر فتى. أما في الثانية فقد عوملت كرجل. لقد عهد إليّ بمسئوليات. وكانوا يستطيعون الاعتماد عليّ. صحيح أنه كان لا بدّ من العمل الدائب الموصول وكان على المرء أن يبذل من نفسه كل ما يستطيع بغير حساب ولكن دروسي كانت تستهوي النفس. فنحن العرب من جنس يحب الاحتكاك بواقع الحياة القاسي، ويحب بذل الجهد واستنفاد ما في الوسع. لذلك كنت كعربي أحب هذه الحياة كتلميذ ضابط، وكان يستهويني هذا النظام العسكري، والجو الدراسي ككل في ساند هيرست.

في اليوم الأول، رحب بي القائد وقدم لي بياناً سريعاً بتقاليد المدرسة، وتمنى لي أن أتمكن من استخلاص خير نفع وأحسنه، ثم أحدَّ النظر في عيني وقال لي:

«أود أن أمنحكم إمكانية الاختيار. إن ساند هيرست مكان شاق قاس جداً فالرجال الذين يفدون إليها مجبرون على أن يشتدوا في العمل وأن يبذلوا ما في وسعهم من جهد، أكثر من أي مكان آخر. فالحياة فيها شاقة متعبة. فهي تتطلب احتياطياً هائلاً من القوة وكثيراً من ضبط النفس. فهل تعتقدون أنكم قادرون على احتمال هذه الشروط أم أنكم تفضلون اختيار معاملة تفضيلية؟».

وأضاف:

«إنكم إذا ما اخترتم البرنامج الذي يتطلب المزيد من المشقة والتعب،

فلسوف تعاملون مثل التلاميذ الآخرين».

وبديهي أنني اخترت الحل الأصعب لأنني كنت مصمماً على أن أستخلص منه أعظم الفوائد. إن مهنتي سوف أتعلمها هكذا، عن أشق طريق وأقساه.

إن برنامجي العاجل قد جعلني أقوم بمناورات ومسيرات تزيد عما هو مقرر عادة. وقد اشتركت في حملات ليلية، وفي تدريبات على استعمال الأسلحة الحديثة. وبذلت كل ما في وسعي لفهم الأساسي من العلم العسكري.

بعد شهرين من دخولي الأكاديمية، استدعاني القائد من جديد فأقلقني هذا الاستدعاء لأنني كنت راضياً عن عملي وعن النتائج التي حققتها والتي أعتقد أنها كانت على الأقل مرضية. وتساءلت عما يمكن أن أكون قد فعلته لكي أقابله للمرة الثانية، وهو حدث نادر جداً في حياة طالب في ساند هيرست.

فتقدمت إذن إليه وأنا متوتر الأعصاب بعض الشيء. وهذا طبيعي. وحييته باحترام. فنظر إليّ بضع لحظات دون أن يتفوه بكلمة، ثم قال لي فجأة:

«يا حسين، إنني جد راضٍ عن عملك، ولقد تتبعت تطورك الدراسي. وإنني أعتقد أن الوقت قد حان لترفيع درجتك، فإذا ما واظبت بهذا الشكل فلسوف تجري ترقيتك إلى رتبة ضابط بعد شهرين. إستمر».

ضاعفت من جهودي، لأنني لم أنس أن رفاقي إذا كان عليهم أن يصبحوا ضباطاً أو حتى جنرالات، فإن قدري قد هيأني لأن أصبح بعد قليل قائداً أعلى لسائر القوات المسلحة في بلادي. لذلك فإن من واجبي أن أطلع على كل الموضوعات العسكرية لكي أحول دون (تأثير) ضباط الجيش العربي الأردني عليّ بسهولة.

لقد كنت أعرف أيضاً أن النظام العسكري في ساند هيرست لم يكن شيئاً بالقياس إلى النظام الذاتي الذي يتوجب عليّ اكتسابه إذا ما أردت فيما بعد أن أستقر فوق عرشي.

ولعل المظهر الذي تجدر ملاحظته في أكاديمية كساند هيرست، هو أنه إذا كان النظام فيها دقيقاً وصارماً والعمل شاقاً، فإن الخدمة فيها عندما تنتهي، تتلاشى معها الهموم والمشاغل جميعاً.

عندما يعرف موعد الإجازات، يكون لدينا فترة فراغ لعدة ساعات وكانت بعض إجازاتي محض وهمية، لأنهم كانوا يعرضون عليّ خلالها إمكانية التخصص في موضوعات أخرى. ومن حين إلى آخر، كانت النتيجة غير متوقعة. مثلاً اتصالي الأول بمحكمة جنايات....

كان الكثير من الوقار يخيم على هذه الجلسة التي تابعتها باهتمام بالغ على يسار قاض صارم عابس، في أولد بيلي. كان يلتفت إليّ بلطف من وقت إلى آخر، ليشرح لي النقطة التي كانت تبدو معقدة. وكانت الأمور تسير بصورة عادية، ثم اشتد الجو في الجلسة حدة، خاصة لأن القضية التي كنا نبحثها كانت مؤثرة بشكل خاص. وساد صمت عميق. وكان جميع الحضور ينتظرون قرار المحكمة. وفجأة رن في القاعة صوت مخنوق لجرس ساعة ذات منبه.

إنني ما زلت أتصور وجه القاضي. كان أحمر من الارتباك تحت شعره المستعار، وقد رفع المحامون أعيناً تنم عن استهوال ما حدث ثم رشقوني بنظرة باردة، فقلت متلعثماً بعض كلمات الاعتذار للقاضي وأنا أحاول إيقاف ساعتي التي كانت إحدى أجمل ما أملك من متاع. ثم بعد عودة الهدوء، نظرت خلسة إلى ساعتي التي كنت أضبطها على موعد النهوض من النوم. كانت تشير إلى الحادية عشرة والنصف. وما من شك في أن بعض الطلاب الذين كانوا يعرفون بأن عليّ أن أذهب إلى محكمة الجنايات، قد لعبوا معي هذه اللعبة الماكرة، بينما كنت أستحم. وطافت في ذهني باستمرار فكرة الأخذ بالثأر. وحانت الفرصة بعد فترة وجيزة.

يملك كل تلميذ في ساند هيرست دراجة لتسهيل تنقلاته من مكان دراسته إلى أي مكان آخر. وكان عليّ يومئذ أن أشهد محاضرة حول العلوم العسكرية،

عندما لاحظت أن إطار دراجتي مفرغ من الهواء. لا ريب أن أحداً قد فعل ذلك، الأمر الذي حملني على الذهاب إلى المدرج راكضاً. فبلغته متأخراً.

حاولت بعد انتهاء المحاضرة أن أكتشف المذنب ولكن دون جدوى فانتظرت حتى أقبل الليل، ثم خرجت من غرفتي سراً على أطراف أصابع رجليّ، وتحت جنح الظلام، أفرغت إطارات عشر دراجات من هوائها، بعد أن احتطت لدراجتي، فأودعتها وراء غرفة الحراسة. ولعلهم شكوا في أمري. ولكن أحداً منهم لا يملك أي برهان.

لقد وقع عليّ قصاص الحجز مرة واحدة، فاستطعت أن أتدبر الأمر لرفع القصاص، بأن اعترفت بخطيئة لم أرتكبها!

وقعت الحادثة في يوم جمعة ليلاً. كنت غائباً عن ساند هيرست لأنني كنت أحتفل بعيد ميلادي، وأمضيت الليلة في لندن. كان ذلك في نهاية الدورة، وكان الطلاب يحتفلون بهذا الحدث، بالتظاهر بخوض معركة. حرك طالب، إما عرضاً، أو متعمداً، جهاز إنذار الحرائق، فأثار ذلك فوضى لا توصف. فقد وصل رجال الإطفاء خلال بضع دقائق إلى مكان الحادث. كانوا على استعداد للعمل وهم يعتمرون الخوذات ويلبسون الجزمات. ولم ينقص سوى النار! كان ذلك أكبر فضيحة عرفتها ساند هيرست منذ مدة طويلة. وكان القائد شاحب اللون من الغضب. عدت إذن في ساعة متأخرة من الليل بعد أن وقعت على ورقة الوصول. كان رجال الإطفاء قد انصرفوا وكانت ساند هيرست مستسلمة للرقاد. كل شيء كان يبدو طبيعياً. لم يكن لديّ أي شعور مسبق بما كان ينتظرنا.

بدأ العرض العسكري الصباحي، تلاه طعام الإفطار، ثم الدروس الأولى. كل ذلك حدث على التوالي. وكان الجو متوتراً في يوم السبت هذا. كان على غالبيتنا أن تذهب في إجازة. وقد أعدّ كل فرد منا مشروعاته الخاصة. عند الظهر فسدت الأمور. فقد أنبئنا بأن القائد سوف يستعرض طلاب المدرسة في الساعة الواحدة بعد الظهر. كان وجهه صارماً. وعندها وجه إلينا هذا السؤال:

«على من حرك جهاز الإنذار أن يتقدم خطوة إلى الأمام».

ولكن كلماته استقبلت بالصمت. لم يتحرك أحد. فانتظر قليلاً كان يبدو أن الغضب قد استبد به، ولكنه كان يحاول أن يتمالك نفسه، ثم عاود القول:

«على من حرك جهاز الإنذار أن يتقدم خطوة إلى الأمام».
ولكن الجواب لم يأتِ. عندئذ قال:

«حسن. تلغى جميع الإجازات. إنكم محتجزون في المبنى هذا المساء إلى أن يكشف المذنب نفسه. إنصرفوا أيها السادة».

لم يعرف المذنب أبداً. ولم يدل أحد على نفسه. فكرت بأن هذا الموقف ظالم بالنسبة لأمثالي من الطلاب الذين كانوا غائبين عن الكلية أثناء وقوع الحادث. ولا يمكن في أية حال أن يعتبروا مسئولين.

في صباح الأحد كنا ما زلنا ننتظر. وعندما أقبلت فترة بعد الظهر كان من البديهي أن أحداً سوف لن يكشف عن نفسه. فقررت. إنه لا بدّ من العمل. فالتمست مقابلة من القائد. ولبست أجمل بزاتي العسكرية. واستقبلني القائد بعد فترة قصيرة. دخلت الغرفة وأغلقت الباب وحييته أجمل تحية وقلت:

«طاب يومكم يا سيدي القائد».

فأجابني: «طاب يومك. ماذا حدث يا حسين؟».
فأطلقت من فمي عبارة: هو أنا.
ـ هو أنت ماذا، عم تتكلم؟
ـ لقد قرعت جرس الإنذار يا سيدي القائد.
ـ ماذا تريد أن تقول؟
ـ فكررت بإلحاح، بأنني أنا المذنب، أنا الذي حرك جهاز الإنذار.
ـ هل أستطيع أن أسألك يا حسين كيف استطعت تحريك جهاز الإنذار بينما كنت غائباً عن ساند هيرست؟

ـ فأجبته «هـذا ما كنت أبغي إيضـاحه يـا سيـدي. هنـاك عـدد آخـر من الطلاب الذين كانوا غائبين مثلي أثناء وقوع الحادث».

ولقد خشيت برهة أن يحمل مـا فعلته عـلى محمل سيئ، ولكنـه تبين لحسن الحظ، الجانب الهزلي المزاحي من الأمر.

لقد آتى (اعترافي) ثماره. كان ذلك نصراً لكل الطلاب الذين كانـوا غائبـين والذين ألغيت عقوبتهم.

كـانت لي أسبابي الخـاصة لمغـادرة الكلية. فقـد كان عـليّ يومئـذ أن أجرب سيارة جديدة من طراز (أوستن مارتن) على طريق السباق في جودوود. لقد غـدت سيارتي الجديدة شعبية جداً في ساند هيرست لا سيـما عند الـذهاب في إجـازة آخر الأسبوع حيث كانت تستخدم بمثابة سيارة ركوب لزملائي الطلاب.

*** كيف أمضيتم شهوركم الأخيرة في ساند هيرست؟**

ـ طوال أسابيع، كنت أخشى اللحظة التي أعين فيها عـريف خفر وهـذا يعني أنه خلال فترة أسبوعين كان عليّ أن أنهض من فراشي في الخامسة صباحاً وأن أعـد قائمة المـرضى، وأن أجمع الـبريد وأوزعـه، وأفتح المكـاتب إلخ . . . ولا سيـما أن أكون جاهزاً في أية لحظة خلال النهار لمجابة أية مشكلة.

ولعلّ من يمن الطالع أن الخدمة لم تدم طويلاً. فقـد نبئت في مساء أول يـوم من مصدر غير رسمي أن العرض الصباحي قد ألغي بالنسبة لليوم التالي. وبذلك يستطيع الطلاب إذن أن يتصرفوا بساعة إضـافية، جميعهم، مـا عدا الحسـين، إذ كان عليّ أن أنهض فعلاً في الساعة الخامسة صباحاً.

لم يخبرني أحد رسمياً بهذا التغيـير، وكجندي صـالح مثـالي، لا يجوز لي أن أطيع إلاّ التعليمات الرسمية. في السـاعة السـادسة وأربعـين دقيقة، أنهيت عملي المكتبي. وكـان عـليّ أن أوقظ سريتي. فـذهبت إذن إلى المهجـع. وجعلت أذرع الأروقـة وأنا أصيح وأدق الأرض برجـلي: «الساعـة السـادسـة وخمس وأربعـون دقيقة، إنهضوا يا أفراد سرية أنكرمان. لقد حان الوقت. دعوا الأسرة جميعاً».

إستقبلتني مـوجة من الشتـائم، ولكنني تجاهلتهـا بـوقـار ورزانــة وواصلت إصدار تعليماتي بصوت عال، حتى السـاعة السـابعة وعشر دقـائق، إلاّ أن موجـة الشتـائم تحولت إلى طـوفان من التجـاديف والكفر، تـلاه زخات من المقـذوفـات المختلفة! . طأطأت رأسي لتفاديها وتراجعت نحـو الباب. لم يـوقظ صوتي الضخم القوي سريتي فحسب، بل السريـة المقيمة في الـطابق الأسفل والنقيب خفـر فيها الذي استدعاني بعد تناول طعام الفـطور، ورشقني بنظرة بـبرودة الثلج ثم قال لي بلهجة ساخـرة: «يا حسـين، من الواضـح أنك قـد أوفيت على الغـاية في قيـامك

بالواجبات التي عهدت إليك، فلم تعد في حاجة إلى تعلم أي شيء كعريف خفر عد من الآن إلى نشاطاتك العادية».

لم أعد أحتاج إلى النهوض في الساعة الخامسة صباحاً. لقد أفادتني إقامتي في ساند هيرست فائدة كبرى، فتعلمت خلال هذه الاشهر القليلة طائفة من الامور، لا سيما استخدام الدراجة النارية التي كانت منذ عهد بعيد شائعة في إنكترا. ومع ذلك فقد قدت دراجة نارية في أحوال جوية سيئة قبل انتهاء الدورة وقبيل العرض العسكري ببضعة أيام. إذ كنت أحاول القيام باجتياز منعطف بسرعة فائقة. فزلقت الدراجة ومرت فوق جسمي. حاولت النهوض وأنا أشعر بألم شديد في ذراعي الأيسر. ولم أجرؤ على البوح بذلك خشية أن أسجل في قائمة المرضى فأحرم من إمكانية المشاركة في العرض العسكري الختامي. في نهاية الفصل الدراسي تفاقم الألم. وفي صباح اليوم المحدد للعرض العسكري اتضحت حالتي للنقيب خفر فقال لي:

«يا حسين إنك لن تستطيع الصمود وأنت في هذه الحالة. سأحمل إليك شيئاً يعيد إليك نشاطك. إنه مزيج خاص لن أقول لك ما هو، ولكنني كفيل بأنه سيجعلك تتحمل المشقة أثناء العرض العسكري».

ولقد احتملتها حقاً، ولكن ذراعي ساءت حالها أكثر مما كنت أعتقد.

بعد أن غادرت ساند هيرست، قمت بجولة في إنكلترا وويلز واسكتلندا بصحبة خالي الشريف ناصر، ولكن الألم أصبح لا يطاق كلما أوغلنا في الطريق فاستدعيت طبيباً. وتبين أنني كنت مصاباً بانفجار في الأوعية الدموية. فوضع ذراعي في الجص فوراً.

قال لي الطبيب: «سوف تبقى ذراعك في الجص مدة شهر كامل». كانت ذراعي تضايقني جداً وهي معصوبة هكذا. لقد عملت بهمة لا تعرف الكلل طوال ستة أشهر. وكنت تواقاً إلى الانتفاع بإجازتي إلى أقصى الحدود. لذلك، بعد ساعة، أمسكت بمقص وساعدني خالي على خلع ضماد الجص.

وهكذا انتهت «مرحلة ساند هيرست» من حياتي.

* **عندئذ بدأت فعلاً حياتكم كملك . . .**

ـ نـعم كان لي من العمرسبعة عشر عاماً ونصف في الثاني من أيار عام ١٩٥٣ عنـدما بـدأت ممارسـة سلطاتي الدستـورية . وفي اليـوم نفسه في بغـداد، باشر ابن عمي فيصل ولايته الملكية أيضاً . عندما أقسمت اليمين أمام مجلس الأمة ، كان قد انقضى عام على تنازل والدي عن العرش .

كانت يومئذ تتدلى الأعـلام من النوافـذ في أهم شوارع عـمان حيث أقيمت أقـواس النصر، من القصر حتى مجلس الأمة . في الصبـاح الباكـر من هذا اليـوم ، كان آلاف الناس يملأون الطرقات بانتظار مروري .

إستيقظت في وقت مبكر . ومكثت بضع لحظات في السرير . كانت تـراودني رغبة في أن أبقى وحيداً مع أفكاري . كان هذا أهم يوم في حياتي : كان سيعهد إليَّ بمسئولية قيادة بلادي وخدمتها . لقد ساءلت نفسي عـما إذا كنت أختلف اليوم عني بـالأمس . فكـرت أنني بـالأمس كنت لا أستطيـع أن أتخذ قـراراً في أي شيء مهما كان . وأصبح عليَّ منذ الآن ، أن أتخذ أخطر المقـررات وأوثقها صلة بحيـاة الأردن ومصـيره .

لم أتنـاول إلاّ القليل من الـطعام لشـدة توتـر أعصـابي . كـان لـديَّ لبـاس عسكري جديد خيط بقماش ثقيـل أبيض اللون للصيف ، وأزرق مائـل إلى السواد للشتاء . وعلى كتفي ثبت حاملات رتب ذهبية . في الساعة التاسعة كنت مستعداً . بعد نصف ساعة غادرت قصر بسمان متوجهاً إلى مجلس الأمة . كان الحرس يتألف من كوكبة من فرسان الحرس الملكي ، ومن مجموعة من راكبي الدراجـات الناريـة المسلحين .

كـانت السيارة تسـير ببطء وهي محاطـة بالجـماهير المبتهجـة. وكـان الجيش يحتوي بصعوبة هذه الأمـواج البشرية. وكنت أعـرف أن عليَّ أن أبـدي الكثير من ضبط النفس. ولكن لا بدّ لي من الاعتراف بـأن الانفعال والتـأثر كـانا يعـترصان حنجرتي. وأخيراً بلغنا مجلس الأمة.

كان الجميع هناك: رئيس الوزراء ومجلس الوصاية وأعضاء الـوزارة كانـوا جالسين على يساري. وأخي الـذي يليني في العمر، وخـالي وكبار الضبـاط كانـوا جـالسين عـلى يميني. أعرب رئيس الـوزراء ورئيس مجلس الأعيان عن تمنيـاتها لي بولاية ملكية سعيدة مزدهرة. ونهضت بعـدئذ لأقسم اليمـين التاليـة: «أقسم بالله بأن أحافظ على الدستور وأن أخلص للأمة». وإنني أعتقد بأنني لم أحنث أبداً بهذا اليمين.

بعـد أن أقسمت يمين الـولاء، أطلقت المدافـع مائـة طلقة وطلقـة، إيذانـاً للشعب بارتقائي العـرش. ثم ذهبت إلى المسجد للصـلاة، وتوجهت إلى ضريـح جدي فانحنيت أمامه وقـرأت الفاتحـة على روحـه، وقمت بعدئـذ بزيـارة والدتي، فقبّلتني وأعربت لي عن شديد اعتزازها وبالغ فخرها بولدها. وأسرَّت لي بما تعلقه عليّ من آمال، ثم أضافت:

«لا تنس أبداً هذا اليوم يا ولدي. تذكر عند مجابهة الصعـوبات التي سـوف لن تتـأخر عن الـظهور، كيف أن الشعب الأردني قـد كشف لك عن مـدى ولائـه وحبه وثقته. فعليك أن لا تسمح بأن تدير رأسك المسئوليات والسلطة. سـدد الله خطاك يا ولــدي».

وما كان ذلـك سوى أول مـظاهر تعلق شعبي بشخصي. بعـد مرور بضعـة أيام استقبلت من جديد في ميدان الـطيران بعمان، بـالتشجيع الحـار. كان حـوالي مائة ألف شخص قد اجتمعوا في هذا اليوم لمشاهدة العـرض العسكري لأكـثر من خمسة آلاف جندي من الجيش العربي. وبينما كنت أستعرض الجنود، لم أستطع أن أتمـالك نفسي، من مـلاحظة التفـاوت بين مـا يجري هنـا، وما عـرفت في سـانـد

هـيرست، ومن التنبه إلى التنـاقض المؤثر بـين القديم والحـديث: مدافـع الميـدان والمدرعات كانت تسير في تشكيلة متقنة وهي تتبع كتيبة حرس البـادية التي تمتـطي الجمال. وفي نهاية الاحتفـال، صرحت معلناً عـلى الملأ لأول مـرة ما سيكـون عليه الخط الموجه لحكمي: «إن الأردن لعلى قناعة تامة بالأخـوَّة التي تربط بـين شعوب الأمـة العربيـة العظيمـة. وإن الأردن ليس إلاّ جـزءاً من الأمـة العـربيـة والجيش العربي الأردني ما هو إلاّ أحد الجيوش العربية».

*** كيف تكيّفتم مع مسئولياتكم الجديدة؟**

- يتدخل الروتين كثيراً في عمل الملك. فمنذ مطلع حكمي، كنت أذهب في كل صباح إلى مكتبي في قصر بسمان، كأي عامل آخر، فلا أغادر القصر إلا بعد إتمام عملي.

أما نشاطاتي فمتنوعة للغاية. إذ أخصص جزءاً كبيراً من وقتي لاستقبال الناس من جميع الطبقات. وفي فترات منتظمة يزورني رؤساء العشائر. الجميع يلاقون مني كل ترحيب. أما الأعمال الروتينية فمن اختصاص رئيس الديوان الذي يقوم بدور الوسيط بيني وبين الحكومة.

أما بالنسبة لطلبات المقابلة فإن رئيس التشريفات يتولى عملية الإختيار بينها. ولكن منذ أن أصبح مكتبه مجاوراً لمكتبي، غدا بامكان أيّ كان أن يدخل إلى القصر لالتماس المقابلة، أو الإتصال هاتفياً لهذه الغاية.

على كل حال عندما ترفض المقابلة، يكون السبب الوحيد في ذلك، هو أن برنامجي اليومي يكون مثقلاً بأعباء العمل، إلى الحد الذي لا أعرف فيه من أين أبدأ.

يبدأ نهاري عموماً في الساعة الثامنة والنصف صباحاً، وينتهي نادراً قبل الثامنة مساءً. أستقبل بانتظام رئيس الوزراء ورئيس التشريفات واثنين أو ثلاثة من الوزراء. والسفراء المعتمدين وكبار قواد الجيش والطيران وأساتذة الجامعة وأعضاء مجلس الأمة. وغالباً جداً ما أتحدث بإيجاز مع عدة زوار. وعليّ أن أوشح الكتب بتوقيعي أو أن أدرس الوثائق المعروضة عليّ. وعندما أغادر مكتبي يكون الوقت متأخراً.

لقد كتب الكثير من السخافات حول البذخ والترف المزعومين في قصور العالم العربي ولا سيما حول قصري بالذات. ولا بد من تصحيح هذا الخطأ، ورد الأمور إلى نصابها. ذلك لأن معظمنا من سلالات بدوية معروفة بالفقر. إننا نعيش عيشة جد بسيطة. وانني لا أملك ثروة شخصية ولسوف لن أمتلك هذه الثروة أبداً.

إن القصر الملكي ليس ملكاً شخصياً لي بالطبع. إنه من ممتلكات الحكومة، وهذا ما يفسر كون طرازه مجرداً من الطابع الشخصي. وتقيم الأسرة المالكة في ثلاثة قصور. شيّد القصر الأول جدي عندما وفد إلى الأردن للمرة الأولى. ويسمى رغدان. كما أن جدي هو الذي بدأ في إنشاء قصر بسمان الذي أعيش فيه الآن. ولكنه لم يسكنه أبداً. أما بقية أفراد أسرتي، فيقيمون في قصر زهران. وهذه المساكن صغيرة وبسيطة، ولا تقارن في أية حال بالقصور الموجودة في أوروبا.

* كيف يستطيع ملك أن يكون قريباً من شعبه؟

ـ خلال السنين الأولى من ولايتي احتملت الكثير من المتاعب والمصاعب في سبيل التقرب من شعبي وفهمه. لقد كنت شاباً صغير السن، وكان مستشاريّ راغبين في تنظيم أسلوب حياتي. وكان ذلك عكس ما كنت أبغي وأتمنى.

كيف أستطيع أن أكون ملكاً صالحاً خيِّراً مثالياً، إذا كنت لا أعرف رعاياي جيداً. لقد كنت من أجل مقابلتهم والإجتماع بهم في عجلة من أمري. لا سيما الرعايا الذين اتخذوا من البادية مسكناً ومقاماً. فحياتهم كانت مختلفة تماماً. لقد كنت ملكهم، وبالقرب منهم كنت أشعر بأنني لست وحيداً لأنهم يعتبرونني كأنني واحد منهم. ما كنت في نظرهم سوى «الحسين»، بلا مراسم ولا تشريفات، ولكن تقاليد بدوية صميمة تقوم على ثلاثة مبادىء هي معاني الشرف والشجاعة والضيافة. فرجل الشرف هو الذي يتمسك بشدة بقوانين الضيافة. فكل ما تملك ملك لضيوفك، وحتى عدوك الذي يبلغ مضارب عشيرتك يغدو من حقه أن يحصل على الماء والخبز.

لقد كانوا أثناء زياراتي لهم، يشرفونني بالرقص والغناء من أجلي. وكلما ورد إسمي في أغنية، كانوا يحيونني بإطلاق الرصاص في الهواء. ثم أجلس فتقدم إليَّ القهوة، ويرتجل زعيم العشيرة خطبة الترحيب التقليدية، وهذا ما كان يعتبر من مظاهر الأدب. وعندما تبسط موائد الطعام ما كان يحق لأي فرد في العشيرة وحتى لزعيمها أن يتناول الطعام، ما دام الضيوف لم يفرغوا من طعامهم. إنني أحب هذه الحياة التي تغاير وقار البلاط وإنني لأتعاطف تعاطفاً شديداً مع حاجات العشائر البدوية. فعلى الرغم من أنها تعيش في العوز والإملاق، فإن على المرء أن

يبذل أقصى ما في وسعه ليتمكن من اكتشاف ما هم في حاجة إليه، لأن كبرياءهم وعزة أنفسهم تمنعانهم من طلب العون. ومن الطبيعي وهم يرونني بينهم أن يعرض علي أفراد العشيرة شكاواهم. ولكن رغباتهم ومطالبهم هي من التواضع والبساطة والقناعة إلى الحد الذي يجعلني أستجيب إليها حالاً. أحدهم في حاجة إلى العمل وآخر إلى المعالجة الطبية، وهم جميعاً يفتقرون إلى المدارس والمستشفيات وإلى تزويدهم بالماء. إنني أحب هذه البساطة التي يتوجهون بها إليَّ، فهي تعني أنهم يعتبرونني زعيمهم ورئيسهم وقائدهم.

لقد حاولت بنجاح أن أوطن القبائل البدوية، وأن أضع حدّاً لحياة الإرتحال والانتقال التي يحيونها، وهم يبحثون عن الماء والكلأ. وقد قمت من تلقاء نفسي بإعداد وتنفيذ برنامج مساعدة ومعونة يؤمن لهم مساكن عصرية حديثة ومياهاً جارية طوال السنة، وهذا هو أساسي في بلادنا.

هذه الأشهر الأولى من الحكم لم تكن هيِّنة ليِّنة. فقد كنت أتعلم مهنتي كملك بممارسة العملية شخصياً. من أي وجه يجب أن تؤخذ الأمور، وبأية طريقة تنبغي معالجتها. في الثامنة عشرة من العمر، تنقصك الخبرة عموماً، يضاف إلى ذلك أن المرء عندما يكون ملكاً، فإن من النادر أن يكون رأي الآخرين فيه موضوعياً.

ولكن أحياناً، حتى بالنسبة للملك، فإن مصدر التشجيع قد يكون غير متوقع. فقد زرت يوماً قرية صغيرة هوجمت من قبل إسرائيل. وأمضيت الليل فيها. كان القمر في قبة السماء وكنت أقوم بنزهة قصيرة بمعزل عن الآخرين لأستنشق هواء الليل البارد المنعش، فسمعت أصواتاً هامسة تنبعث من خيمة. عندها بلغت مسامعي جملة واضحة، فاستولى عليَّ شعور قوي بالاعتزاز والامتنان عندما قال بدوي لا أعرفه:

«لو كان الملك عبد الله حياً لكان فخوراً بحفيده».

ومع ذلك كنت أعرف أن أبناء البادية لا يشكلون سوى جزء من شعبي.

وكنت أود معرفة رأي أبناء الحضر. إنني لم أدع فرصة تفوتني للإختلاط بسكان المدن وكنت في المدرسة أشعر بأن الطبقات المتوسطة تجتذبني. وكنت أرغب في مزيد من المعرفة بأحوالها وسأروي لك هذه القصة التي سوف تستمتع بها بالتأكيد ولكنها تشير إلى مقدار حبي للإستطلاع وميلي إلى استكناه الأمور في ذلك الوقت:

بينما كنت في إحدى الليالي وحيداً في القصر، انتويت أن أتنكّر لكي أتجوَّل بحرية بين السكان. ولكن كيف السبيل إلى تحقيق خطتي؟ وبديهي أنني ما كنت لأستطيع إطلاع حاشيتي على نيتي، خشية أن أثير قلقاً في غير محله. فخطر لي أن أتنكر بلباس سائق سيارة تكسي. وكان الحي الأكثر دلالة، يقع بين عمان والزرقاء، وهي منطقة عسكرية على بعد حوالي ثلاثين كيلو متراً من العاصمة، ولكن بالنظر إلى أن الليالي باردة في الصيف من جراء ارتفاع المكان، فقد تدثرت بمعطف وأخفيت رأسي ووجهي بلثام (شماغ) فبدوت في شكل لا يمكّن أحداً إطلاقاً من التعرف عليَّ وعلى كل حال، كل امرىء يستطيع أن يجعل من نفسه سائق سيارة أجرة. طوال ليلتين متتاليتين كنت أغادر القصر في الساعة الثامنة مساءً وأنا أقود سيارة فورد قديمة خضراء اللون وذات رقم عمومي. وكنت أعود في حوالي منتصف الليل متجنباً رقابة الحرس الذين كانوا يعتقدون بأنني كنت أطالع في مكتبي. طوال ليلتين كنت أقود سيارتي التاكسي على طريق الزرقاء فتعلمت أموراً لا حدَّ لها. أنه لعجيب حقاً مدى ما يستطيع الناس أن يقولوه في سيارة تاكسي، الأمر الذي يحمل على الإعتقاد بأنهم لا يعيرون انتباهاً لوجود السائق.

لقد كنت دوماً أحب التحدث إلى الناس الذين ينتسبون إلى مختلف الطبقات الإجتماعية والذين لا يعرفونني. وأنني لأذكر مرة كيف أنني كنت متجهاً نحو مدينة جرش فصادفت بدوياً يحمل كيساً ثقيلاً من الخضار فأومأ إليَّ. فتوقفت وهو يتصور أنني سائق تكسي. بعد أن وافق على الأجرة، صعد إلى السيارة فسألته عندئذٍ عما إذا كان الموسم جيداً في هذه السنة وبماذا يبشر المحصول؟

فأجاب: «بفضل الله والملك الموسم رائع».

وسألته: ما رأيك في الملك حسين؟ لقد سمعت الناس كثيراً ما تتحدث

عنه. أي نوع من الرجال؟ هل هو ملك صالح؟

فأجاب: إنه بعد الله رائدنا ومرشدنا الأكبر. إنه يحمينا ويمنحنا كل معونة نحتاجها. إننا نحبه كثيراً.

قلت: إنني لست متأكداً تماماً مما تقول.

فغضب البدوي وصاح فيّ: «إذا ما تجرّأت أن تتفوه بمثل هذه الأكاذيب على مليكي، فلسوف أضربك... حتى يسيل دمك».

لحسن الطالع، في هذه اللحظة كان الحرس الذين كنت قد تعمدت التنائي عنهم، والذين كانوا يجدّون في أثري منذ نصف ساعة، قد أدركوا سيارتي. وهكذا نجوت من مأزق حرج!

خلال السنين الأولى من ولايتي قمت برحلات عديدة إلى الخارج. وبذلت المستحيل لإقامة أحسن العلاقات الممكنة مع الشعوب العربية الشقيقة. فزرت بشكل خاص المملكة العربية السعودية لمقابلة الملك ابن سعود. كان ذلك قبل وفاته بقليل. ولما كان مريضاً لا يستطيع المشي. فلكي يتمشى في أروقة قصره التي لا نهاية لها، كان لا بد له من مقعد متحرك.

جاء يوماً لزيارتي في احد القصور التي كنت أقيم فيها، في مقعده المتحرك، وبرز فجأة خادم يدفع أمامه مقعداً متحركاً آخر. لم يتفوه أحد بكلمة. كان يدفع المقعد المتحرك نحوي بلباقة وأدب فقلت «هل أستطيع أن أعرف ماذا يجري إذا سمحتم؟». فقال أحدهم: «هذا لجلالتكم».

قلت: «أشكركم بالغ الشكر. ولكنني أفضل أن ألبث واقفاً وأن أسير قليلاً. ثم أدركت فجأة المقصود من ذلك. فالبروتوكول يستلزم من الملك أن لا يمكث واقفاً بينما يكون محدثه جالساً.

كان عليّ أن أجلس على المقعد. فجلست إذن وسرت بجانب الملك.

وكنت وقتئذ أفضِّل ألا تقع عيناي على النظرات الباسمة لمرافقيّ العسكريين.

مضت الأشهر والسنون هادئة، ملأى بالجهد والكد والعناء. تعلمت خلالها الكثير من الاتصال بشعبي ومخالطته. أما التوتر مع إسرائيل فلم يتوقف بل غدت الصدامات وحوادث العنف أكثر خطورة منذ عام ١٩٥٥.

وأما ما تعلّق بحياتي الخاصة، فقد جرى حدث هام: في التاسع عشر من نيسان (ابريل) ١٩٥٥ تزوجت الشريفة دينا عبد الحميد وهي ابنة عم لي بعيدة القرابة، من السلالة الهاشمية المقيمة في القاهرة. كانت جدّ ذكية ومتخرجة من جامعة كامبردج وتكبرني ببضع سنين. في البداية كنت شديد التفاؤل لفكرة انشاء أسرة. وفي السنة التالية عندما ولدت ابنتي عالية، كنت أسعد الناس في بلادي.

ولسوء الحظ مني هذا الزواج بالفشل الذريع. وعلى الرغم مما بذلته من جهود، وعلى الرغم مما استنفذناه معاً من وسع، فقد اتخذنا القرار بانفصالنا. كان الوضع غير قابل للاستمرار. فأصبح من المرغوب فيه أن نضع حداً له. لقد كانت لحظة صعبة الاجتياز. وقد أثار طلاقي الكثير من النقد. وهكذا بعد ثمانية عشر شهراً من زواجنا، رحلت عني وذهبت للاقامة في القاهرة.

* هل في هذه الفترة بدأت هوايتكم للطيران؟

- لقد كنت دوماً مولعاً بالطيران، عندما كنت صغيراً ومقيماً في عمان، كنت مشغوفاً بهوايتين: التصوير الفوتوغرافي والطائرات كان لديَّ منها جميع النماذج المصغرة: أحدث أنواع الطائرات المطاردة، والقاذفات، وسائر نماذج طائرات الركاب. وعندما كان يحل المساء في بيتنا في جبل عمان، كنت ألصقها في مجموعة (ألبوم). ومع ذلك فإنني إذا ما كنت مولعاً بالطيران، فليس ذلك يعود بالطبع إلى حبي للسرعة أو إلى أن الميكانيك يثير اهتمامي، بل لأن للطيران بالنسبة إليَّ معنى أكثر عمقاً.

كنت عندما أصعد إلى الطائرة، تتلاشى سائر همومي. فإذا ما حلقت في الجو تبدَّدت من ذهني مشاغل العرش ومشقات العمل التي تلازمه. لأنني أكون عندئذ وحدي.

عندما أقلع بالطائرة، أتنفَّس الصعداء شكراناً وعرفاناً وأشعر بأنني سيِّد مصيري. إن جمال الطيران عالياً في السماء، يرمز دائماً بالنسبة آليّ إلى صورة الحرية.

على الأرض تكون مهامي عديدة. إنني باخلاص وصدق أجد بعضها شديدة الرتابة مملة. لقد كنت دوماً أتولى أشق المسئوليات والمهام وأثقلها عبئاً. وفي أوقات الأزمات كنت أعمل حتى أثناء الليل. منذ بلوغي الثامنة عشرة وأنا أستشعر الحاجة الملحة إلى الانفلات من حقائق العالم الواقعية ولو لفترة ساعة. فكان الطيران وسيلة الخلاص والسلامة.

كنت أبغي أن أمارس مهنتي على طريقتي الخاصة وأن أعيش الحياة التي

أرغبها. لقد دقّت الساعة مبكّرة بالنسبة إليّ. فقد أصبت بخيبة أمل عميقة عندما اضطررت لأن أتحمَّل مسئولياتي كملك وأنا حديث السن معدوم الخبرة. لقد حاولت أن أثقّف نفسي إلى أقصى الحدود، بالتعلُّم يوماً بعد يوم وسنة بعد سنة، أسس المهنة وقواعدها. عندما تقع على عاتق المرء مسئوليات جسام، فليس أخطر عليه من الاعتقاد بأنه قد أصبح في غير حاجة إلى التعلُّم. ويوم أن كنت حديث السن، كنت دائماً أرغب في أن أنفرد بتدبير أموري بنفسي. فالانغماس في العمل لاكتساب التجارب هو دوماً مصدر للقوة. هذا ما عاد عليَّ من ممارسة قيادة الطائرات لأن الذي يهم الطيار، بالتحليل النهائي، هو مهارته في الخروج منها. وكلما قدت طائرة شعرت بأنني أنجزت عملاً مهماً.

إن لشغفي بالطيران سبباً آخر. فقد كنت مقتنعاً بأن عجز الأردن عن الدفاع عن نفسه ناتج عن السياسة التي كانت سائدة آنذاك. كان لدينا جيش ممتاز، أفضل جيش في العالم العربي. ولكن كنا لا نملك أي غطاء جوي. كان الجيش العربي الأردني يحمينا على الأرض في حين أنه في حالة هجوم جوي، كنا مرغمين على اللجوء إلى مساعدة القوات الجوية الملكية البريطانية. لم أكن راغباً في أن يضطر الأردن إلى الاعتماد على أية معونة خارجية لا يمكن ضمان استمرارها. كانت إسرائيل تشكل تهديداً دائماً مستمراً. فلم يكن من الحكمة بالنسبة إلينا إذن أن نكون تحت رحمة معونة تأتينا من بلد آخر حتى ولو كان البلد صديقاً لنا. وهي حكمة يعزز الأسس التي تقوم عليها، معرفتنا بأن سياسة أي بلد تتغيَّر في الغالب دون أن نطلع على الأسباب التي حملت على ذلك.

لقد حاول جدي الملك عبدالله، أن يبدل من هذا الوضع الشاذ بانشاء أول نواة لقوة جوية صغيرة. ولقد باءت بالفشل كل محاولاته لتعزيز هذه القوة. فالطائرات القديمة التي اشتريناها لم تعد صالحة للخدمة. وعندما اعتليت العرش كانت الحكومة قد بدأت تفكر في بيع الطائرات الهرمة التي بقيت لنا.

كنا معروفين في الأردن بامتلاكنا لأفضل جيش، ولكن كان علينا أن نشجع الشباب الذين يرغبون في أن يصبحوا طيارين. وعندما كانوا يريدون الالتحاق

بالجيش كانوا يدخلونه ويستبدلون بجيادهم أو جمالهم سيارات اللاندروفر والمدافع الرشاشة. فكنت آمل أنهم إذا ما غدوا طيارين سيتبعهم آخرون. وكنت في ذلك محقاً.

وإنني لأذكر هذا اليوم من عام ١٩٥٣ الذي كان حاسماً في القرار الذي اتخذته بأن أصبح طياراً. كانت القوات الجوية الأردنية المسلحة بقيادة العقيد دالجليش وهو نفس الرجل الذي قادني بطائرته إلى عمان في اليوم الذي اغتيل فيه جدي. لقد أطلعته أكثر من مرة على نيتي في تعلّم الطيران، وكان قد سبق لي السفر إلى جانبه في غرفة قيادة الطائرة. وفي أحد الأيام استدعيته وقلت له:

إنه سوف ينتابني المرض لكثرة مكوثي منعزلاً في مكتبي يجب أن تعلمني الطيران

دهش دالجليش من أقوالي ومن الحزم الذي أبديته.

- قال لي: ولكن يا صاحب الجلالة سيكون الناس جميعاً ضدكم فيما تريدون.

- فأجبته: أعرف ذلك ولكن هذا لن يضايقني. سوف نرد على كل اعتراض وسوف أصبح طياراً.

طوال عشرة أو خمسة عشر يوماً حاولت أسرتي وحاول أصدقائي أنفسهم والوزراء أن يحملوني على العدول عن قراري. فكنت أشرح لهم وأكرر الشرح بأنه لا خطر عليّ البتة من قيادة الطائرة وكنت أعاود القول بقناعة تامة وإيمان عميق بأن ساعة الموت إذا ما حانت فلا مفر منها لأن الله يكون هكذا قد أراد.

وأخيراً تغلبت على المعارضة وبدأت التدريب. لم يوضح لي أحد بعد، بأنه لا يحق لي أن أطير وحدي. كنت أستطيع أن أطير برفقة طيار ولكن لا أحد كان يجيز لي أن أطير وحيداً.

في اليوم الأول كان العقيد قد خطط لجولة فوق عمان في طائرة صغيرة من

طراز اوستر. ولست أدري إذا كان قد رمى من وراء ذلك إلى حملي على التخلي عما اعتزمته. ولكنه على كل حال قدم لي شرحاً كاملاً عن إمكانات طائرة الاوستر ذات الطاقة المحدودة. وهذا لم يمنع دالجليش من أن يقوم بحركات بهلوانية عليها جعلتني أقضي ساعة من أعنف وأشد ما عرفته في حياتي. كانت الحركات الدائرية الرأسية للطائرة وحركات الالتفاف حول محورها الطولاني تتلاحق على نسق متسارع حتى أنه أوقف المحرك عدة مرات والطائرة في الجوا. وعندما هبطنا على الأرض أحسست بالمرض فجأة، كانت هي المرة الأولى والوحيدة التي أصبت فيها بالغثيان. ولقد حاول عبثاً من جديد أن يتسبب في اصابتي به، فقلت له: إنك لن تستطيع ذلك بعد الآن. أيها العقيد.

ثم عدت إلى القصر وانتظرت الدرس الآتي. وفي اليوم التالي. كنت قد نسيت آلام اليوم السابق. ولما كنت مصمماً على تجنب ألم الغثيان، فقد أمضيت كل فترة بعد الظهر في البحث في عمان عن أفضل علاج لذلك. ولقد اعتدت أن أنشط جسمي بتعاطي حبوب خاصة لاتمكن من تقدير إنجازات دالجليش الجوية حق قدرها.

أمضيت شهري حزيران (يونيو) وتموز (يوليو) على مدرج المطار بمعدَّل خمسة أيام في الأسبوع. وقد قال لي العقيد بأنني موهوب موهبة خاصة، وهو رأي لم شاركه فيه على كل حال، يعتقد الناس أنه يمكن للمرء أن يصبح طياراً معترفاً به وأن ذلك في متناول الجميع. أما أنا فلم أؤمن بذلك البتة. بل بذلت كل ما في وسعي للاعتياد على الأجهزة الفنية للطائرة ولكن ليس بدون صعوبة إذ ليس من السهل القيام بحركات بعدد هذه الأجهزة في نفس الوقت. وفي البداية كانت حالتي الجسمية تقلقني كثيراً، لأن ركوب الطائرة لم يخفف (بل زاد) من التهاب الجيوب الأنفية المزمن الذي أصبت به منذ الحداثة.

أمضيت عشر ساعات طيران على طائرة الاوستر الصغيرة هذه قبل أن أجرب طائرة من محركين أكبر حجماً وأكثر راحة من طراز دوف. وبدأت بتحقيق

بعض الهبوط الممتاز على الأرض وكان بعضه الآخر أقل جودة. فقلقت من جراء ذلك.

قال لي داجليش: لا تبالي يا صاحب الجلالة. فإن أفضل وسيلة لاتقان الهبوط هو أن تخطىء في بعض المرات.

بعد مرور شهر كنت قادراً على الطيران لوحدي. ولكنني ما كنت لأعلم أنهم يحظرون عليّ الطيران منفرداً. ومع ذلك في الدرس الثالث على طائرة الدوف نهض داجليش من مقعده وقال لي فجأة: حسن يا صاحب الجلالة ستتولون بأنفسكم الهبوط بالطائرة، ثم غادر غرفة القيادة وقد أغلق الباب بشدة وراءه!

لم أكن واثقاً من نفسي. ولكنني تمكنت من ايصال الطائرة أرضاً. وأعتقد بأنني فعلت ذلك جيداً. وعلى الرغم من هذا الإنجاز قال لي العقيد بأن لديه تعليمات محددة وأنه محظر عليّ أن أطير وحيداً. بلغ بي اضطراب النفس عندئذ حداً حال بيني وبين الغضب، فعدت إلى القصر منهوك القوى. إنه أمر يبعث على السخرية. فكأنهم يحظرون عليّ قيادة سيارة بسرعة مائة كيلو متر في الساعة بدون سائق إلى جانبي. ومن البديهي أنني لا أستطيع الإلحاح في هذا الشأن لأنه إذا ما وقعت مصيبة، فستعتبر القوات الجوية مسئولة عن حدوثها.

فقررت عندها بأن العمل بالنسبة إليّ قد حان. كانت الطائرة التي أقودها موضوعة تحت المراقبة الدائمة. يضاف إلى ذلك أن الجميع، من الميكانيكيين إلى ضباط برج المراقبة، كانوا مطلعين على الحظر الذي فرض عليّ. فانتظرت بصبر وأناة اللحظة المواتية. وأخيراً سنحت الفرصة.

وصلت بعد ظهر أحد الأيام إلى مدرج المطار. كانت هنالك طائرة أخفقت في الهبوط وانقلبت. لم يكن الحادث خطيراً. ولكن الناس كانوا جد منشغلين بالأمر حتى أنهم لم يلتفتوا إليّ ولم يكن بجانب طائرة الدوف أحد. فاندفعت إلى داخلها على أطراف أصابع رجليّ وأدرت المحرك. وصحت بالمهندس الذي هرع باتجاه الطائرة بأنني سوف آخذ الطيار المساعد في نهاية المدرج.

كـان ذلك كـافياً لـه. وببضع دقـائق كنت قد ارتفعت في الجـو. وتـواجـد الجميع في برج المـراقبة لمتـابعة تحـركاتي، وكنت في غـاية الابتهـاج. تجولت فـوق العاصمة. وجعلت أمتِّع النظر من غرفة القيادة في المدينـة التي أحببتها. لم يتسرب الخوف إلى قلبي. ولربما كنت أقل اضطراباً وقلقاً من أولئك الذين تجمعوا في بـرج المراقبة. مكثت بعض الـوقت أيضاً في الجـو ثم عدت إلى الأرض بعـد أن حققت هبوطاً في غاية الاتقان. وهكذا حدث ما لم يكن متوقعاً: لم تعـد هنالـك معارضـة على ممارستي للطيران. ومنذئذ طرت وحدي خلال آلاف الساعات.

بـدأت فيما بعـد بقيادة طـائرات نفـاثة. وفي عـام ١٩٥٨ قدت أول طـائرة هليكوبتر وقررت أن أهبط بها وراء القصر، ليس من باب تأمـين السهولـة واليسر فحسب ولكن لأنني كنت أريد في أية لحظة أن يكون في مقدوري الذهـاب إلى أي مكـان في البلاد دون سـابق إبلاغ لأحـد. فالهليكـوبتر هـو الجهاز المثـالي من أجل التنقـل بسهولـة وسرية. ولمـا كنت أود أن لا أكون مـرتبطاً في تنقـلاتي بـأحـد من الطيارين فقـد أخذت دروسـاً من جديـد. وبعد سـاعتين ونصف من التـدريب، كنت، أستطيع قيادة الهليكوبتر.

لقد أغنى نفسي إلى حد بعيد قيام روح الألفة بين الطيارين وغيـاب المراسم والكلفة بينهم أنهم عالم خاص قائم بذاته لا أستطيع الاستغناء عنه. إنـه يسحرني ويبعث النشـوة في قلبي. واليوم بعـد عشرين سنة، أشعـر بنفس الانفعال كـاليوم الأول، عندما أصعد إلى الطائرة النفاثة، إنه نفس الانفعال حقاً.

* الشرق الأوسط، السلم، الحرب، متى سمعتم بهذه الكلمات للمرة الأولى؟

ـ منذ الأبد. وإنني أعتقد بأن هذه الكلمات موجودة منذ أن أصبح العالم عالماً. في وقت مبكر جداً، عندما اعتليت العرش، انغمست في دسائس الشرق الأوسط. ولما نشبت الاضطرابات في منطقتنا أدرك العالم الغربي بصعوبة أسبابها الجوهرية. عندما تطرح قضيَّة معقدة في العالم العربي ينحي الغرب باللائمة إما على الشيوعية أو على الفلسطينيين، أو يعمد بكل بساطة إلى تحميل (كل العرب) مسئوليتها دون تحفظ أو استقصاء، بدلاً من أن يتفهم أن قوى متعارضة متناقضة تتجابه وتتصارع في بلادنا.

ربما كنا نحن مسئولين جزئياً عن هذا الخلط والالتباس وهذا النقص في الإعلام. ولكن ما لا يقل صحة عن ذلك، هو هذا العدد المدهش من الكتب الرديئة التي أنتجها الغرب عن البلاد العربية. ولم يتوصل سوى نفر قليل من المؤلفين الغربيين إلى كتابة مؤلفات متوازنة ذكية ومعقولة. فالصحافة مغرضة ويجري تزويدها بإعلام سيئ وغير صحيح. فإذا ما أردنا أن نتفهم أسباب بعض الاضطرابات والضغائن والأحقاد العميقة التي تولدت، توجَّب علينا أن نعرف خفايا بعض القضايا. وإنني أعتزم أن أصف أسسها وأتقصى أغوارها وأشرح بإيجاز الأحداث التي قادت العالم العربي إلى الحد الذي بلغه، وأحاول أن ألقي ضوءاً قليلاً على المستقبل.

يقول مثل عربي بأن السلام وليد التفاهم وليس الاتفاق. وعلى ذلك فإنه لا بد، لمصلحة السلام، من إقامة تفاهم بين الأمم. فالعرب كشعب، يتطلعون إلى نفس الغاية، أما كأمم فإنهم يسلكون طرقاً مختلفة لبلوغ أهدافهم.

إنني لا ألّح إلى علاقاتنا مع أقطار العالم الحر، لأن لنا علاقات مختلفة مع العالم الشيوعي الذي لا تتوفر فيه حرية الفكر والعمل. إذ ان الحملات الحاقدة المسعورة التي يوجهها ضد الشعب تحرمه من أي حق في الطموح الفردي إلّا إذا كان طموحاً في أن يكون عبداً للدولة. وهي تحرمه من أي حق في الطموح القومي إلّا إذا كان طموحاً في أن يكون خاضعاً لسيطرة دولة أجنبية.

هذا هو السبب الذي من أجله ينبغي علينا أن نحسن فهم بعضنا بعضاً. فالشيوعية لا تصبح فتاكة إلّا بالتفريق بين الشعوب والأمم، وهي لا تنفذ إلّا من خلال الثغرات التي تحدثها الظروف الداخلية التعيسة. وهي تنمي وتشحذ التناقضات والخلافات بين الأمم. وهذه الأنواع من التاكتيك تعرض الأمم الضعيفة للدمار. وفي فترة الأزمات تكون قدرتها على مواجهة الخطر معلقة على حجمها وكذلك على بعدها عن الأمم القوية الحرة. فالتفهم المسبق للمشكلة يمكّن من تفادي الأزمة، في حين أن الإدراك المتأخر للخطر يعوق العمل الفعّال المجدي كما أثبت لنا ذلك الماضي في أغلب الأحيان.

ونحن في الأردن نعرف ذلك جيداً، لأننا باستمرار استطعنا الإفلات من الدمار في آخر لحظة. فالشعور بالعزلة وعدم تفهم الآخرين يؤثر تأثيراً عميقاً على طاقة وقوة ومعنويات العديد من الأمم الصغيرة التي تشكّل طليعة الحرية في العالم.

إن الدول الكبرى تفهم جيداً أهميتنا الاستراتيجية، ولكنها لا تفهم دائماً طموحاتنا القومية. في حين أن هذا التفهم جوهري، رعاية للمصلحة المشتركة للعالم الحر.

لقد عقدت المملكة الأردنية الهاشمية العزم بصلابة على أداء واجباتها نحو العالم الحر وعلى تبرير وجودها. إن الأردن الذي عرف التفرقة هو الآن أمة متحدة تمام الاتحاد بفضل الوطنية العربية ولا سيما القومية العربية. إن الطبيعة الحقيقية للقومية العربية مشوهة أحياناً من قبل العرب أنفسهم، أو من قبل الذين تهدد مصالحهم هذه القومية، لهذا أخطأت الدول الغربية القومية في الماضي وخاصة

فرنسا وبريطانيا العظمى في حق هذه القومية ولا سيما في الخمسينيات وأتت أفعالاً تناقض مصالحها ذاتها.

إن القومية العربية تعمل في اتجاه رغد العيش. وهي تقرّب العرب عندما تسودهم التفرقة، وتقودهم نحو مزيد من الترابط والالتحام على الرغم من التغييرات غير المتوقعة لحكامهم أو لأنظمتهم السياسية.

لقد ولدت القومية العربية في الوقت الذي كان فيه العالم المتمدّن غارقاً في عصر الجهل والظلام فساهمت القومية العربية مساهمة كبرى في تقدم الإنسانية. لقد عاشت الحضارات العربية فترة طويلة من الزمن مفصولة عن بقية العالم في اليمن وفي مكة المكرمة وفي سورية والعراق ولكن تاريخ هذه الأقطار لم يبدأ فعلاً إلّا في عام ٦١١ بعد الميلاد عند ظهور الإسلام. كان التأثير المعنوي للعقيدة الجديدة كبيراً ولكن نفوذها السياسي ارتكز على المبدأ الأساسي الداعي إلى المساواة بين الناس دون مراعاة لأجناسهم. وهذا هو أول مبدأ للإسلام.

ونحن نعبّر عن هذا المثل الأعلى بعبارة (التقوى) التي تشمل روح التسامح وحب الخالق والأعمال الخيّرة الصالحة والإحساس الحاد العميق بالعدالة. وبإيجاز ان أخلاق الإسلام تعتمد على المبادئ نفسها التي تحكم العالم الحر.

هذه المفاهيم الأزلية الخالدة قد أتاحت للعرب أن ينشئوا أمبراطورية كانت تمتد من شبه جزيرة إيبريا إلى الصين وكانت تضم أجناساً وحضارات مختلفة في الحركة الخلاقة نفسها مع احترام خير ما لها من تقاليد. فنشط العلم والطب والفن والفلسفة بفضلها. إن هذا الإسهام من جانب الإسلام قد طبع التاريخ المعاصر أيضاً بطابعه. هذا هو ركن القومية العربية في عصرنا الحالي.

ولكن لسوء الحظ دمر المغول الغزاة، الأمبراطورية العربية بعد أن نخر أسسها التناحر والتنازع والتصارع. وفي الوقت الذي كانت فيه أوروبا تتعرّف على عهد جديد وأعني به عصر النهضة كانت الأمة العربية قد غرقت في لجّة الظلام والجهل. ولكن على الرغم من أربعمائة عام من السيطرة العثمانية فإن شعور العزة

والكرامة عندها بقي نابضاً بالحياة.

بعد أن غزا نابليون الشرق الأوسط بدأ العرب يخضعون لتأثير القومية الأوروبية والنزعة الاستعمارية. وفي بداية هذا القرن شرعت حركة أثارها رجال حزب تركيا الفتاة في تحويل الأمبراطورية العثمانية إلى أمبراطورية محض تركية، العرب فيها ليسوا شركاء وإنما شعوب مستعبدة.

ولكي يستأصل الأتراك المعارضة العربية شنقوا الزعماء العرب في كل من بيروت ودمشق عام ١٩١٦. هذا الحدث أيقظ العالم العربي بصورة نهائية فثار العرب واستولوا على مكة واختاروا الأسرة الهاشمية لتزعم ثورتهم وقيادتها.

* إنها أسرتكم . . .

ـ نعم الهاشميون أحفاد الرسول، وهم لذلك يتمتعون بالتكريم والتعظيم في العالم الإسلامي قاطبة. وعندما تحالف الأتراك مع الألمان خلال الحرب العالمية الأولى، حيث زعماء الأقطار التي تسمى اليوم العراق وسورية ولبنان والأردن، حثوا على العمل، والد جدي الشريف حسين الذي كان آنئذ رأس الأسرة الهاشمية. فاتصل أبناؤه بالحلفاء وعقد اتفاق يعرف باسم (رسائل الحسين مكماهون) يرمي إلى إشعال نار ثورة عربية عامة ضد الأتراك. اعترف الإنكليز بالحسين زعيماً لشعبه، بدافع من حرصهم على مصالح الحلفاء، ووعدوا بتأييد قيام أمة عربية حرة.

بدأت الثورة العربية في حزيران عام ١٩١٦ في ظل القيادة العليا للشريف حسين. وكان أبناؤه الثلاثة علي وعبدالله وفيصل قوادها بالاتفاق مع القوات البريطانية التي كان يقودها الجنرال اللنبي زحفت القوات العربية إلى شمال مكة وبلغت حلب عام ١٩١٨ وهكذا تحقق حلم التحرير القديم. وفي الوقت نفسه أنجز العرب ما كانوا يتوقون إليه من المساهمة في هزيمة الإلمان والأتراك، وفي النصر الذي أحرزه الحلفاء في آسيا الغربية.

ماذا حدث بعدئذ بيننا وبين الحلفاء؟ الجواب على هذا السؤال مهم لأنه يتضمن التفسير العميق لما يشعر به العالم العربي إزاء الغرب من ارتياب وعدم ثقة. إنها حقاً صفحة من التاريخ يود الغرب أن يطويها. ولكنني أعتقد بوجوب العكوف على هذه الفترة التي تمتد من عام ١٩١٨ وهو تاريخ النصر الذي أحرزناه إلى عام ١٩٤٨ عندما بلغت المأساة الفلسطينية أوجها.

وهـذه الفـترة تفسر أيضـاً التخلف الاقتصـادي لبعض المنـاطق، والنجـاح النسبي للشيـوعية في العـالم العـربي، والحقـد الـذي تـلا إنشـاء دولـة إسرائيـل، والأحداث المحزنة المشئومة في الجزائـر في الخمسينيات. أمـا النتيجة المبـاشرة لهذا كله فهي أن العالم العربي والقومية العربية اعتبرا من قبل الرأي العام الغربي بمثابـة قوى معادية سلبية وغامضة مشوشة.

كل ذلك ما كان ليحـدث لو أن الحلفـاء تصرفوا عـلى خلاف مـا فعلوا منذ الحرب العالمية الأولى. لقد كان يعوز زعماءهم بعد النظر ووضوح الرؤية.

بعد توقيع معاهدة الصلح عام ١٩١٩ نشرت وثيقتان كنا نجهل وجودهمـا ـ الأولى هي اتفاقيات سـايكس بيكو المـوقعة عـام ١٩١٦ بين انكلترا وفـرنسا والتي كـرست تقسيم الشرق الأوسط إلى منطقتي نفـوذ. وبإيجاز وضعت سوريـة ولبنان تحت الحـمايـة الفـرنسيـة، وأدخـل مـا تبقى من الشرق الأوسط في فلك الحكم البريطاني.

أمـا الوثيقـة الثانيـة فهي تصريح بلفـور الذي أشـار فيـه الإنكليـز إلى أنهم يؤيدون إنشاء «دولة قومية يهودية» في فلسطين. هاتان الوثيقتان تمت صياغتهما بعد انقضاء ما يقرب من بضعة أشهر على مراسلات الحسـين مكماهـون التي وعد فيهـا الحلفاء بمساندة إنشاء أمة عربية متحدة كبرى.

كانت اتفاقيات سايكس بيكو وتصريح بلفور وما نتج عن ذلك من أعـمال، وصمة خزي وعار لحقت بالأقطار الغربية،كما أثارت خيبة أمل عميقة عند الشعوب العربية إذ بدلاً من أن تعرف آسيا العربية الاستقلال، قسِّمت إلى محميات فرنسية وبريطانية ثم بغير علم من العرب، وعد اليهود بفلسطين التي كـانت عربيـة بنسبة (٩٤) بالمائة. وكانت النتيجة النهائية هي إنشاء إسرائيل بما يخـالف مخالفـة صريحة مبادئ سيادة الشعوب. وقد نُفي الملك حسين الأول بالقوة الجبرية مدة ستة أعوام لمعارضته المطلقة لفكرة التنازل ولو عن شبر واحد من الأرض العربية في فلسطين. وفي سـوريـة زحف الجيش الفـرنسي عـلى دمشق وأرغم الملك فيصـل الأول على

مغادرة البلاد. وفي العراق كان الموقف متوتراً بالنسبة نفسها. فقد نشبت ثورة أرغمت الإنكليز على التدخل وعملت على ارتقاء الملك فيصل نفسه عرش العراق في بغداد.

أما الحسين أبو جدي فقد أرسل على عجل ولده الآخر عبدالله، وعهد إليه بمهمة إيقاف تقدم الفرنسيين نحو دمشق. فغادر المدينة المنورة في أواخر تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٢٠. وبعد مسيرة شهر وصل إلى معان في الأردن في الحادي والعشرين من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٠. لقد احتاج إلى سبعة وعشرين يوماً في القطار لاجتياز مئات الكيلومترات التي تفصل بين المدينتين من جراء النقص في الوقود ولأن الخط الحديدي كان منسوفاً في عدة مواضع. وفي الوقت الذي وصل فيه إلى الأردن، كان الجيش الفرنسي قد دمر المملكة العربية في سورية. وفي ٢٠ آذار (مارس) ١٩٢١ عقد تشرشل الذي كان وقتئذ وزيراً للمستعمرات، مؤتمراً في القدس مع جدي. وعلى أثر هذا الاجتماع وضعت شرقي الأردن تحت الحماية البريطانية، ونودي بجدي الملك عبدالله أميراً عليها. وفي الحادي والعشرين من شهر نيسان (أبريل) تألفت أول حكومة في شرق الأردن.

* كيف كانت شرقي الأردن في هذه الحقبة؟

ـ كانت بلداً صغيراً يبلغ عدد سكانه ثلاثمائة وخمسين ألف نسمة، أما تضاريسها التي بعضها جبلي وبعضها الآخر صحراوي، فتشتمل على قطاع ضيق من التربة الخصبة تمتد على طول حدودها الغربية على ضفاف نهر الأردن. ولم يضم جدي جنوب الأردن وتحصل البلاد تبعاً لذلك على منفذ بحري في العقبة إلا في عام ١٩٢٤. لم يكن في البلاد سوى قليل من المدارس. أما الشرطة فكانت غير موجودة عملياً. ومعظم غابات البلاد قد أبادها الاستخدام لحاجات الخط الحديدي الحجازي. ولكن جاذبية جدي الملك عبدالله كانت من القوة إلى الحد الذي حمل الآلاف على الانضمام إليه. كان البدو يحبونه كأبيهم. أما السوريون في الشمال الذين حطمهم ضم الفرنسيين لبلادهم، فقد طلبوا منه العون والمساعدة. وأقام بلاطه في عمان التي كانت آنئذ قرية يبلغ تعداد سكانها ثلاثة آلاف نسمة.

عندما نشبت الحرب العالمية الثانية انضمت شرقي الأردن فوراً إلى بريطانيا ولعب الجيش العربي الأردني دوراً هاماً في الشرق الأوسط، ولاسيما في تحرير دمشق من نير حكومة فيشي.

في أيار (مايو) من عام ١٩٤٦ ألغيت الحماية وأنشئت المملكة الأردنية الهاشمية المستقلة. وقد حكم جدي، الذي أصبح الملك عبدالله، بحكمة، وعمل بلا انقطاع على إيجاد حل للقضية الفلسطينية.

بعد حرب فلسطين انضم إلى الأردن بموافقة الشعب الفلسطيني، الجزء الفلسطيني الذي أنقذته القوات الأردنية. وفي الواقع، عندما ارتقيت العرش، كان عدد السكان قد ازداد فبلغ مليونا ونصف مليون.

وقـد كان من المحتـوم أن لا يؤدي إنشـاء إسرائيـل انـطلاقـاً من السيـاسـة الصهيونية التوسعية إلا إلى الظلم والخطر والكارثة. فيجب أن يـدرك العالم أنـه لا يمكن قيـام سلم حقيقي دائم في الشرق الأوسط ما لم يعمـل أولاً عـلى إيجـاد حـل للمأساة الفلسطينية.

فالأمم التي تعتبر وجود دولة عبرية قد أصبح أمـراً واقعاً تنسى أن العـلاقات التي أتاحت لليهود وللعرب أن يتعايشوا خلال قرون في جو من الأخوَّة والتسامح، قد دمرتها أفكار الصهيونية وأفعالها. إن هـذه الصداقـة وهذا التفـاهم لا يمكن أن يبعثا إلى الوجود مرة أخرى ما دامت الصهيونية تشكل جوهر سياسة إسرائيل. أما النتيجة، فهي انقسام العالم العربي. وأحد المظاهر التعيسة لهذا الوضع هو الصورة المشوهة الكاريكاتورية التي تُعرض للعالم عن حقيقة القومية العربية.

إن هذه القومية تستوجب من الأردني أن يكون عربياً قبل أن يكـون أردنياً، وأن يكـون العراقي عـربياً أولاً قبـل أن يكون عـراقياً الـخ. ذلـك أن من واجبنـا كعرب أن نتفاهم على القضايا الرئيسية وأن نقضي على الخلافات القائمة بيننا. إن الذنب لا يقع على عاتق الشعب العربي، إذا كنا اليـوم مرغمـين على أن نعـاني من ذيول المأساة الفلسطينية، وإذا كنا قبل عشرين عامـاً، عاجـزين عن مد يـد العون لـلاشقاء الجـزائريـين أو اذا كنا اليـوم غير قـادرين على أن نتعـاون، سواء خـلال العدوان الإسرائيلي في عام ١٩٦٧ أو عام ١٩٧٣.

ولكن الذنب لا يقع بكـامله على الغـرب: فإذا كنـا ضحايـا المبدأ المشهـور (فرق تسد) فإن القضايا العربية قد عولجت على العمـوم بطريقـة غير مسئـولة من قبل الحكام العرب أنفسهـم.

لقد جاء وقت كنا نستطيع فيه أن نتحد ولو روحياً ضد الامبريالية، ولكننا لم ننجح في التكتل ضد عدوَّينا الأكثر خطورة، وهما الشيوعية والصهيونية.

ومـع ذلك فـإنني أعتقد بـأننا ـ في الأردن ـ سـائرون عـلى النهج الصحيـح للتغلب على مصاعبنا.

إن المحاولات الوحيدة التي تستحق الإهتمام والالتفات من أجل الوحدة العربية قد جاءت من الأردن. فجدي الملك عبدالله قد اقترح في عهده، أما إنشاء (سورية الكبرى) التي كان يمكن أن تشمل سورية ولبنان والأردن وفلسطين، أو الهلال الخصيب الذي يضم الدول الأربع نفسها بالإضافة إلى العراق، أو مجرد اتحاد بين سورية والأردن.

وقد دمّر جهود جدي تكتيك الفرنسيين والانكليز الذين كانوا يرون ضمان سلامة مصالحهم في انتهاج سياسة تفرقة العرب. وأدى مصرع ابن عمي فيصل وجميع أسرته، أثناء ثورة تموز (يوليو) عام ١٩٥٨ في العراق، إلى تحطيم الاتحاد بين الأردن والعراق.

أما الجامعة العربية التي ظهرت قبل أكثر من ربع قرن، فتبدو خطوة إلى الأمام نحو عالم عربي تقدمي. ولكن على المستويات العليا حطّم بعض العرب الذين لا يدركون مسئوليتهم، هذه الآمال الكبيرة، فغدت الجامعة العربية خلال فترة من الزمن، دمية يسحب خيوطها الطامعون الذين لا يبالون إلا بمصالحهم.

لقد شبّه جدي الجامعة العربية في مذكراته «بالكيس الذي يحتوي على سبعة رؤوس - وهي الدول العربية السبع التي كانت تتألف منها الجامعة العربية وقتئذ - مربوطة بأشرطة تمثل السيطرة الأجنبية والجهل العربي. إن مخلوقاً كهذا، يستطيع التنفس ولكنه يختنق عندما يحاول التحرك».

ومع ذلك فقد كان في مقدور الجامعة العربية تحقيق أمور عظيمة لو تولى توجيهها الزعماء الحقيقيون، فلقد أثبتت مؤتمرات القمة العربية أن الجامعة العربية ضرورية. فهي السندان الذي تصاغ عليه الأمة العربية.

نحو أية أهداف يجب أن تتجه اليوم هذه القومية؟.

أولاً: لا أستطيع أن أكون إلا معارضاً للشيوعية. فهي تنكر الدين وهي بالتالي تنكر المبادىء التي تقوم عليها القومية العربية.

ومن ناحية أخرى، كيف يمكن الدفاع عن سياسة الحياد بين العالم الحر

والأقطار الشيوعية؟ كيف ندين النظريات الشيوعية ونقبل مساعدتها؟ كيف نعادي العالم الحر وندافع عن القومية العربية، في حين أن جذورها متماثلة كما سبق لي إيضاحه؟

إن الأردن ليشجب مثل هذه الغوغائية. إننا نؤكد بأنه لكي نكون حياديين، ينبغي أن تكون لدينا القوة الكافية التي تمكننا من عدم الاعتماد على دعم أي من الجانبين.

وهذه ليست حالنا!.

إننا، نحن العرب، لنأسف لأن بعض الدول القوية في العالم الحر لم تكن أكثر صدقاً واستقامة معنا. ولكننا لن نقابل ذلك باعتناق الشيوعية! ان من واجبنا أن نؤصّل ونعمّق جذور مبادئنا وندافع عن حريتنا. أما القوة التي ينبغي أن نعتمد عليها، فهي قوة العالم العربي. وعلى الطبقة البورجوازية عندنا أن تنظم وتؤمّن التنمية والتطوير في بلادنا من خلال وحدتنا.

أما فيما يتعلق بالمملكة الأردنية الهاشمية، فهي مخلصة تمام الإخلاص للمثل العليا التي قامت عليها الثورة العربية الكبرى. نحن جدّ تواقون إلى الوحدة والمساواة والقوة والتقدم. وان قوة الأردن لتستند إلى إيمانه العميق الراسخ بهذه المثل العليا. إن هدفنا واضح: يجب أن نجعل من بلادنا، أمة حيّة ديموقراطية بعد أن نجت من الابادة والتدمير.

يؤوّل العالم الحر مفهوم الديموقراطية على خلاف ما نفعل فنحن مقتنعون بأنه ليس من الواقعية في شيء، أن ننقل شكلاً من أشكال الحكم بحذافيره، وأن نحاول تطبيقه على دولة ليس لها نفس التقاليد التاريخية. فالديمقراطيات القديمة نفسها قد اكتشفت بأن عليها أن تجري تعديلات مستمرة لكي تتكيّف مع القضايا الجديدة لعصرنا الحاضر.

هنالك في عدد من الأقطار العربية «أحزاب سياسية» مزعومة. إلا أن

الواقع يشير إلى تغلغل الشيوعية في العالم العربي تحت قناع القومية، إذ لجميع هذه الأحزاب تقريباً نفس شعارات الوحدة والحرية والتقدم. وهذه الشعارات بالنسبة إليها ما هي إلا مجرد وسيلة تأمل عن طريقها في التوصل إلى السلطة. لذلك على الرغم من كون الحكومة الأردنية، ديموقراطية، فإننا لا نعتقد بأننا نستطيع أن نمنح أنفسنا ترف ترك مثل هذه (الاحزاب) تتكاثر.

يوجد في الواقع أربع وحدات كبرى في العالم الناطق بالعربية، وهي: الهلال الخصيب، وشبه الجزيرة العربية، ووادي النيل، والمغرب العربي، فلو وافقت هذه الأقطار على المشاركة فيما بينها فإن خطوة كبرى تكون قد تحققت. ولتكن مشاركتها منبثقة عن ارادتها، وأن تشمل ما تقرر أن تشمل: كالثقافة والاقتصاد وقضايا الدفاع الخ. . . ، أما الاتحاد السياسي، فيمكن أن يكون المرحلة الأخيرة. كل هذه الأمور ممكنة الاجراء ضمن جامعة عربية نشطة، إيجابية، وموفورة الاحترام.

إن الأردن يضغط بكل ثقله في هذا الإتجاه ولسوف ينضم إلى كل محاولة عملية ترمي إلى تحقيق هذا الهدف. فنحن نرغب في عمل متفق عليه ومدروس. وقد اعتزم الأردن أن يلعب في هذا المجال، دور الدولة المعتدلة.

نحن نعتبر بلداً نامياً، ولكننا أيضاً بلد خصب في الأفكار التي تتيح لنا أن نرتفع عالياً بكرامتنا وكبريائنا وتصميمنا وشجاعتنا وثقتنا بأنفسنا.

وعندما أفكر في أسرتي، فإنني أفكر باعتزاز في جميع من هم في الأردن إلى جانبي، يجابهون معي قضايا بلادنا. وعندما أفكر في عشيرتي، فإنني أتطلّع في الواقع إلى الأمة العربية بأسرها. لقد نذرت حياتي. لمثل أعلى عادل محتذياً في ذلك حذو الهاشميين على مدى التاريخ. وإنني أود أن أكون خليقاً بثقة الشعوب العربية ودعمها.

وأرجو الله أن يهدينا سواء السبيل وأن يمدّنا بسند من عنده. وأنتم في الغرب، فلتساعدونا على بناء قوتنا لأنها ستصبح قوة للحرية. وتذكروا بأننا قد ولدنا أحراراً.

*** يتحدّث العالم عن القضية الفلسطينية منذ أكثر من خمسة وعشرين عاماً. وهذا قد أسال حبراً كثيراً. أما فلسطين فقد أصبح يعرفها العالم أجمع. هل تستطيعون تذكيرنا بأصل هذه القضية المأساوية؟**

- عندما نستبعد الاعتبارات العاطفية التي تصيب القضية بالغموض والإبهام، فليس من شك في أن الشعب العربي في فلسطين قد جرد من حقه الأساسي في تقرير المصير الذي حدّده وعرّفه الرئيس ويلسون. هذا هو الخطأ الرئيسي والغلطة الأولى اللذان جاءت الاخطاء والغلطات الأخرى لتضاف إليهما فيما بعد. نحن نعرف مقدار ما عاناه اليهود من عذاب في أوروبا خلال الحرب العالمية الثانية، ونحن نفهم تمام الفهم رغبتهم في البحث عن حياة أفضل. إن التاريخ الحديث للأحداث التي ولّدت الوضع الحالي، وهو وجود مليوني لاجيء فلسطيني، معروف من الجميع. ولكنني أعتقد بأن مما يثير الإهتمام أن نستعيد بإيجاز، الأحداث المختلفة التي وقعت خلال عشرات السنين القليلة التي أفضت إلى انشاء دولة إسرائيل.

ويعتقد الناس على الغالب، بأن هذه القضية حديثة العهد، وعلينا أن نعترف بأنها لم تحظ بالأهمية إلا بقدوم الجيل الجديد. ولكن الرأي العام يجهل على العموم أن اللورد بالمرستون في عام ١٨٣٨، عندما عيّن أول قنصل بريطاني في القدس، أوصاه «بحماية اليهود». وبعد سنتين أشار بالمرستون في كتاب موجّه إلى السفير البريطاني في استانبول، إلى «الأهمية الكبرى بالنسبة للسلطان في تشجيع اليهود على أن يعودوا إلى الاستقرار في فلسطين، لأن ثرواتهم من شأنها أن تزيد في موارد الاقاليم التي يحكمها». وذكر بالمرستون أن الشعب اليهودي يعتبر أن العودة في ظل حماية السلطان، وبدعوة منه، تشكل ضماناً في مواجهة ما قد يتكشّف عنه

محمد علي وخلفاؤه في المستقبل من مآرب غير شريفة، وأضاف: «انقل إلى الحكومة التركية هذه التصريحات السرية واوصها بتشجيع سائر اليهود على العودة إلى فلسطين». كان ذلك في عام ١٨٤٠.

في عام ١٩٠٩ كتب العالم الجغرافي الامريكي السوورث هنينجتون بأن الفلاحين المقيمين في فلسطين، يعتبرون «اليهود ألد أعدائهم». وفي عام ١٩١٢ عقدت جلسة صاخبة في مجلس النواب التركي، احتج فيها النواب العرب على استيلاء الأسر اليهودية على مساحات واسعة من الأراضي التي تعود إلى ملاك غائبين.

ولكن لم توجه الضربة الحاسمة القاصمة إلا في أواخر الحرب العالمية الأولى. فقد أعلنت الحكومة البريطانية في الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر) من عام ١٩١٧ في تصريح بلفور بأنها تؤيد استقرار اليهود في فلسطين. كانت الوثيقة قليلة الوضوح، ففقرتها الثانية تشير إلى أنه من المفهوم أنه سوف لن يؤت أي عمل من شأنه أن يعرِّض إلى الخطر الحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية في فلسطين». ومهما كان رأي البريطانيين فإن الصهاينة كانوا قد حددوا مواقفهم على كل حال. فقد صرح الدكتور وايزمن بأن فلسطين يجب أن تكون يهودية كما هي انكلترا انكليزية.

وفي رأيي أن تصريح بلفور كان ظالماً وكان السبب في المرارة وخيبة الأمل اللتين يعاني منهما العالم العربي المعاصر، وقد كان رد الفعل المباشر لهذا الأمر، من الجدية، وكان الصهاينة من النشاط، إلى الحد الذي حمل الرئيس ويلسون في عام ١٩١٩ على إيفاد فريق دراسة إلى الهلال الخصيب. وقد دعي فريق الدراسة «بلجنة كينج ـ كرين». كانت مهمة هذا الفريق هي اختبار ردود فعل السكان المحليين على اقتراح بريطانيا العظمى. وقد روى أحد الكتاب بأنهم باشروا دراساتهم بأفكار مسبقة متعاطفة مع الصهيونية، ولكن عند الصياغة الفعلية للتقرير، حملتهم بعض الوقائع على تغيير رأيهم.

أعربت لجنة كينج ـ كرين عن تمنياتها في إجراء تعديل جدي على البرنامج الصهيوني. وبعد محادثات عديدة أجرتها مع الصهاينة، صرح أعضاؤها بأنه قد تبين لها بوضوح بأن الصهاينة يودون التجريد الكامل للسكان غير اليهود من سائر ما يملكون. كان الصهاينة مستعدين لكل شيء رغم معارضة السكان غير اليهود في فلسطين. وقد استلمت اللجنة من سورية عريضة تشير إلى أن اثنين وسبعين بالمائة من السكان كان ضد البرنامج الصهيوني. كما أن جميع الضباط البريطانيين كانوا يشددون على واقع أن السلاح وحده هو السبيل الوحيد الذي يستطيع تحقيق فوز البرنامج الصهيوني.

إن تقرير لجنة كينج ـ كرين، هو إحدى الوثائق المكرّسة للقضية الفلسطينية. ماذا جرى لهذا التقرير؟. لقد أخفته الحكومة الأمريكية.

كان هذا التقرير مثالاً يحتذى في الموضوعية. ولم ينشر بصورة غير رسمية إلا بعد رحيل ويلسون من رئاسة الولايات المتحدة، في الوقت الذي لا يستطيع أحد أن ينحي باللائمة على أسلوبه الذي اتسم بالإستقامة والنزاهة.

بدأ الصهاينة في الإستفادة من تصريح بلفور. وجعل اليهود يتوافدون على فلسطين بأعداد متزايدة. أما جدي الملك عبد الله الذي كان في ذلك العهد أميراً على دولة شرقي الأردن الجديدة، فقد أصبح شديد القلق من هذا الوضع. كانت فلسطين وشرقي الأردن تحت السيطرة الإنكليزية، ولكن كما سجل الملك عبد الله في مذكراته، لا يمكن اعتبارهما دولتين منفصلتين. فشرقي الأردن الواقعة إلى الشرق من نهر الأردن تشكل القسم الداخلي من فلسطين وكانت تنتج المواشي والحبوب والمواد الزراعية الأخرى، بينما كانت فلسطين تعنى بالصفقات التجارية مع العالم الخارجي عبر موانئها على البحر الأبيض المتوسط. هذان البلدان المنظمان المسالمان كانا يعملان معاً بروح المودة والتآخي إلى أن بدأت شرور الهجرة اليهودية تتفاقم. فقد قلب اليهود الذين كانوا يتوافدون على فلسطين، نوع الحياة فيها ظهراً على عقب. وكانت ترتفع الإحتجاجات ضدهم من وقت إلى آخر. ولم يدر البريطانيون ماذا يصنعون إلى الحد الذي كانوا يقاتلون تارة ضد اليهود وتارة ضد

أصدقائهم العرب.

في عـام ١٩٣١ أرسلت عصبة الأمم لجنـة تحقيق فوجّـه جدي إلى المنـدوب السامي البريطاني في فلسطين رسالة مطولة أعلمه فيها بأن الحوادث والمنازعات قد «وضعت حداً لكل أمل في قيام المودة والصداقة بين القادمين الجـدد وبين العـرب الذين كانوا يسكنون فلسطين منذ أربعة عشر قرناً».

ولقـد حـذر جـدي مراراً وتكـراراً في أعـوام ١٩٣٣ و ١٩٣٤ و ١٩٣٥ السلطات الـبريـطانيـة من أن الهجـرة اليهـوديـة من شـأنها أن تتسبب في عـواقب وخيمة، وطالب بانتهاج سياسة جديدة أكثر عدالة في فلسطين.

في التاسع من تشرين الأول (أكتـوبر) من عـام ١٩٣٦، عشية إرسـال لجنة بيل إلى فلسطين، أصدر الملك ابن سعود ملك السعودية والملك غازي والأمير عبد الله، تصريحاً مشتركاً ناشدوا فيه عرب فلسطين بالكف عن أعمال العنف (وبوضع ثقتهم في النوايا الحسنة لأصدقائنا البريطانيين وفي رغبتهم في مراعاة جانب العدالة ورفع شأنها).

لكن آمالهم قد خابت. فقد أعلنت لجنة بيل عن تأييدهـا للتقسيم. فقامت مظاهرات في عمان والمدن الأردنية الأخرى واشتـدت حدة المعـارك ضد اليهـود في فلسطين.

كان جدي يـأمل في قـرارة نفسه في أن يجـري التوصـل أخيراً إلى حـل يمنع الكفاح الناشب من أجل البقاء، بين العرب واليهود، من أن يتحول إلى كارثة.

كان السياسي الوحيد بين رجال الدولة العـرب في الثلاثينيات، الذي أدرك أنه إذا لم يتم التوصل إلى حل للقضيـة الفلسطينيـة فإن الـوضع سـوف ينقلب إلى كارثة تصيب العرب، وأن التقسيم إذا ما غـدا أمراً واقعـاً فإن النكبـة سيكون لهـا نتائج غير متوقعة بالنسبة للمستقبل. لذلك اقترح على الحكـومة الـبريطانيـة إنشاء دولة تشمل فلسطين وشرقي الأردن. أما جوهر مـا ورد في مذكـرته فيمكن إيجـازه فيما يلي:

١ ـ يتمتع اليهود في اتحاد كهذا بالاستقلال الداخلي في بعض المناطق.
٢ ـ يكون لهم سلطات إدارية مطلقة في هذه المناطق.
٣ ـ يمثل اليهود في البرلمان بمقتضى القاعدة النسبية كما أن على الحكومة أن تشتمل على وزراء من اليهود.
٤ ـ يجب تخفيض الهجرة اليهودية إلى العدد المعقول.

هوجم هذا المشروع من قبل الدول العربية الأخرى. ولكن كما كتب في الخامس من حزيران ١٩٣٨ جواباً على الذين كانوا ينتقدونه:

«لم يكن يتجاوز عدد السكان اليهود مائة ألف عام ١٩٢١. أما اليوم فقد بلغوا خمسمائة ألف. وهم يملكون أخصب الأراضي كما أنهم تغلغلوا في كل مكان. تقوم الصهيونية على ثلاث دعائم: تصريح بلفور والشعوب الأوروبية التي تحاول التخلص من اليهود والمتطرفون العرب الذين يرفضون كل حل ولا يكفون عن الشكوى والاستغاثة بالذين لن ينجدوهم أبداً. لقد بلغني أن اليهود قد طلبوا الإبقاء على الإنتداب البريطاني ليتسنى لهم امتلاك مزيد من الأراضي وزيادة الهجرة. وهكذا تقع فلسطين في يد الآخرين. أما العلاج الوحيد فهو العمل بسرعة لوضع حد لهذا الخطر وذلك بحصر الهجوم وتقييد حدوده ثم بمواجهة ودراسة كيفية القضاء النهائي على هذه التهديدات. فإذا ما أضعنا الوقت، كفلنا بذلك ضياع فلسطين. أعتقد بأنه لا فائدة من الشكوى وأن علينا أن نبادر إلى العمل. وأن توحيد فلسطين وشرقي الأردن سوف يضع حداً للكارثة. إذ نستطيع أن نتولى تصريف الشئون الإدارية بفعالية وننشيء جيشاً للدفاع عن أنفسنا. وستغلق أبواب الهجرة غير الشرعية. وأني أود مع ذلك أن أعرف إذا ما كان لديكم اقتراح آخر».

بهذه العبارات كان يتحدث أمير شرقي الأردن. وقد أكد التاريخ فيما بعد صحة نظرة جدي للأمور. ولكن لسوء الحظ لم يقبل أحد الإستماع إلى رأي الرجل الوحيد الذي تنبأ بالخطر. في كانون الثاني (يناير) ١٩٣٩ اجتمع كبار زعماء العرب في لندن لمناقشة القضية الفلسطينية. وبعد بضعة أشهر

أذاعت بريطانيا العظمى بـلاغاً أعلنت فيـه أن دولة فلسـطينية مستقلة سـوف يجري إنشاؤها خلال السنوات العشر القادمة. قرأ الملك عبد الله هذا البـلاغ وكتب فيها بعد إلى بريطانيا العظمى: «إذا كنتم تعتبرون أن للشرق الإسلامي من بورما إلى طنجة قيمة ما، فإن المستر أتلي والمستر بيفن ملزمان بتعديل هـذا الوضع».

وفي هذا الوقت الذي كانت هذه القصة المشئومة القذرة تسير في مجراها وتتقدم في طريقها المحتوم نحو خاتمتها المحزنة، اجتمع ملوك ورؤساء الجامعة العـربية في أنشـاص بمصر عام ١٩٤٦، وأعلنـوا في بلاغ مشـترك أن «القضية الفلسطينية تهم سائر العرب وليس الفلسطينيين العرب فحسب». ومنـذ ذلك الحين أصبحت القضية الفلسطينية ملزمة للعرب في سـائر أنحـاء العالم. هـذا التنبيه من قبل زعـماء العرب لم يلق أذنـاً صاغيـة. وبعد أقـل من سنة قـررت بريطانيا العظمى إنهاء انتدابها.

أوفدت منظمة الأمم المتحدة فوراً لجنة خاصة لدراسة قضيـة التقسيم، وقـدمت تقريـرها في آب (أغسـطس). ولكن أعضاءهـا لم يجمعـوا عـلى رأي موحد. فقد أوصى سبعة منهم بالتقسيم وأيد ثلاثة منهم اقـتراح عبد الله وهـو الإتحـاد الفدرالي بـين الكانتـونات اليهـودية والعـربية. أمـا العضو الأخـير في اللجنـة فقد صـوت ضد أيـة توصيـة مهما كـانت. ومن المفيد أن نعـرف ماذا حدث بعدئذٍ.

شكلت منظمة الأمم المتحدة لجنة «مختصـة» أوكل إليهـا دراسة التقـرير فرفضت هذه اللجنة بأكثرية خمسة وعشرين صوتاً ضد تسعة عشر صوتاً مؤيداً وأحد عشر صوتاً مستنكفاً، الإقتراح العربي بإحالـة تصريح بلفـور إلى محكمة العدل الدولية. وهكذا رفض أكـثر من نصف أعضاء اللجنـة التصويت ضـد مشروع القرار العربي.

لم تتوقف الأمور عند هذا الحـد. فعندمـا صوتت اللجنـة إلى جانب أو

ضد تبني تقرير اللجنة الخاصة المؤيد للتقسيم، أقر الإقتراح بأكثرية (٢٥) صوتاً مؤيداً ضد (١٣) صوتاً معارضاً و (١٧) صوتاً مستنكفاً. وهذا يعني أن (٢٥) عضواً في اللجنة فحسب أيدوا مبدأ التقسيم من أصل (٥٥) عضواً ومنذ ذلك الحين تدهورت العلاقات بين الغرب والعرب. هذا التطور قد أكده وزير الخارجية الباكستاني السير ظفر الله خان، عندما وجه التحذير إلى العالم الحر:

«تذكروا أنكم سوف تحتاجون غداً إلى أصدقاء وحلفاء في الشرق الأوسط. إنني أتوسل إليكم ألا تقوِّضوا المكانة والحظوة والثقة التي يتمتع بها العالم الحر في هذه الأقطار».

وقد (حاول) الصهاينة، قبل التصويت في الجمعية العامة، أن يكتسبوا لقضيتهم أواخر المترددين. واعترفوا علناً بأن الرئيس ترومان قد ساعدهم في هذا الإتجاه. كما توصلوا إلى اكتساب أصوات الكتلة السوفيتية. وفي ٢٨ تشرين الثاني (نوفمبر) أقرت الجمعية العامة مشروع قرار التقسيم بأكثرية (٣٣) صوتاً ضد (١٣) واستنكف عشرة أعضاء عن التصويت. كان ذلك نهاية لكل الآمال. ولقد أوجز السير ظفر الله خان ببلاغة مشاعر معظم الوفود بهذه العبارات: «وكما قال أعظم الأمريكيين: إن الله قد وهبنا القدرة على تقييم الخير وتقديره. ولقد بذلنا ما في وسعنا لعمل الخير». لقد نجحنا في إقناع عدد كبير من الوفود الشقيقة للعمل في هذا الإتجاه ولكنهم لم يسمحوا لها أن تدافع عن العدالة. إننا لا نكِّن في نفوسنا أي شعور بالشكوى ضد الأصدقاء والوفود الذين أرغمهم الضغط الصريح الواضح على التصويت إلى جانب اقتراح ينتهك روح العدالة ومعنى الإنصاف. إننا نشعر بالتعاطف مع الوفود التي كانت تريد من ناحية أن تتصرف بوحي من روحها ووجدانها ولكنها من ناحية أخرى تعرَّضت هي وحكوماتها للضغوط التي نعرفها».

وهكذا بدأ الصراع. وفي ١٤ أيار (مايو) ١٩٤٨ انتهى الإنتداب البريطاني. وأعلن قيام دولة إسرائيل. فاعترف الرئيس ترومان وروسيا

السوفياتية فوراً بالدولة الجديدة. وفي ١٥ أيار (مايو) وهو تاريخ رحيل القوات البريطانية عن فلسطين أرسلت الأقطار العربية قواتها إلى البلاد لإعادة النظام وحماية السكان العرب المحاصرين.

عينت الدول العربية جدي قائداً أعلى لسائر القوات العربية. ولسوء الحظ كان هذا التعيين محض وهمياً. فقد اكتشفه فيما بعد، لأنهم لم يمنحوه أبداً السلطة اللازمة لمراقبة وتنظيم شئون قوات الدول العربية الأخرى وقيادتها بصورة فعلية. حتى الإذن بتفتيشها قد منع عنه.

إنني أذكر صديقاً لجدي رآه في نفس اليوم الذي بدأ القتال فيه قال الملك: «سوف أقود قواتي إلى المعركة وسوف أقاتل بنفس الحرارة والحمية ونفس الشجاعة التي أبديتها دوما عندما كان الأمر يتعلق بالمثل العليا للثورة العربية». ثم أمسك عن الكلام فقد استعاد إلى ذاكرته خلال لحظة، الماضي وسائر الجهود المهدورة التي بذلها للتوصل إلى السلام، لأنه أضاف والأسى يعتمل في قلبه: «سوف أقاتل إلى أقصى مدى تبلغه قواي. ولكن ما أرجوه وأتوق إليه، هو أن أموت في ساحة المعركة برصاصة في الرأس». ولحسن الحظ صان الله حياته لعدة سنوات أخرى أتاحت له خدمة القضية العربية الكبرى. وبالفعل أظهرت اللحظات الأخيرة من الحرب مدى ما كان يتحلى به من بأس وشجاعة. فقد كان اليهود الذين ازدهاهم النصر الذي أحرزوه على مقاومة عربية سيئة التنسيق والإستعداد، قد استولوا في كل مكان على الأراضي التي كانوا يجدونها في طريقهم. فطرد آلاف اللاجئين من منازلهم بوحشية وهربوا إلى كل جهة. ذهب الكثير منهم إلى غزة، ولكن معظمهم اتجهوا نحو الشرق. مئات الآلاف من اللاجئين الذين استبدَّ بهم اليأس والجوع وحطمهم التعب والإعياء، عبروا النهر للدخول إلى شرقي الأردن.

كان جدي الذي شهد له الجميع بالشجاعة والإقدام وشدة البأس يزور مخيمات اللاجئين الواحد تلو الآخر. كان ربعة القامة، ممتلئاً صلب العود ملتحياً، دائم الأناقة في لباسه. فاستأنس به كل فرد من اللاجئين وجعلوا

يلتمسون منه العون مما جعلهم ينضوون جميعاً تحت لوائه.

وعندما توقف القتال، اجتمع أكثر من ألفين من وجهاء الفلسطينيين في أريحا وقرروا ضم ما تبقى من فلسطين إلى الأردن بزعامة الملك عبد الله، وبذلك أحرز جدي أعظم الإنتصارات، ألا وهو انتصار القلوب. وبينما كان القادة العرب الآخرون يضيعون الوقت في الرجاء والأمل، وفي التقديرات والحسابات، ويتراشقون باللوم والإنتقادات، كان الملك عبد الله منهمكاً في العمل. فقبل أن يدمج في المملكة الأردنية الهاشمية الجزء من فلسطين الذي أنقذته القوات الأردنية، والذي يمتد حتى الضفة الغربية من نهر الأردن التي كانت تشكل الحدود القديمة للبلاد. وهكذا غدت (الضفة الغربية) من النهر منطقة هامة من المملكة الأردنية الهاشمية. ولا مراء في أن الملك عبد الله، بهذا الضم، قد حال دون إلحاق هذه المنطقة الكبيرة من فلسطين بإسرائيل. ويحسن التذكير بأن الجيش العربي الأردني في عام ١٩٤٨ لم يزد تعداده عن أربعة آلاف وخمسمائة رجل.

وعندما سمحت الظروف، أجرى الملك انتخابات نيابية في ضفتي النهر ووسع مجلس النواب لكي يتيح للفلسطينيين أن يكونوا ممثلين أليق وأفضل تمثيل. وبذلك تغيّر وجه الأردن خلال بضعة أشهر فقط. فقد جاء قرابة مليون فلسطيني، كمواطنين متساويين في الحقوق والواجبات لتضخيم عدد سكان الأردن الذين كانوا يبلغون أربعمائة ألف نسمة. وخلال ثلاث سنوات ارتفع عدد سكان عمان من ثلاثين ألفاً إلى مائتي ألف.

ولكن على الرغم من هذه المأثرة الفريدة من نوعها، التي كانت ترمي إلى ضمان ورعاية مصالح الأشقاء المعدمين الذين سلبوا كل شيء، وهو ما لم يفعله أي قطر عربي آخر، فما زال يوجد حتى اليوم مئات الآلاف من اللاجئين الذين يعيش معظمهم في الأردن.

إننا جد فخورين بالعناية والرعاية الرائعتين اللتين أحاطت بهما بلادنا.

هذا الشعب المنكود الحظ. إن هـذه الضيافـة وهذا الإيثـار لتتميز بهـما أخلاق النـاس في بلادي. لقـد عالجنـا فقط مشكلة اللاجئـين الفلسـطينيـين. ولكي نحفظ عليهـم طموحاتهم وكبرياءهم كان علينا أن نعاملهم ككائنـات إنسانيـة وأن نكف عن اعتبارهـم أرقاماً. يمكن للمرء أن يكون حياً وميتاً في آن واحد، وهذا ما لا ينبغي أن يحدث عندنـا. لقد جلب لنـا هذا العمـل الفردي مـا لا ينقطع من الهجوم واللوم والإنتقـاد من قبل الأقـطار العربيـة الأخرى التي بلغ بهـا الأمر حـد اتهامنـا بالـترحيب بالفلسـطينيين عنـدنـا لكي ننسيهم قضيتهم الحقيقية ووطنهم.

صحيح أن ما فعلناه في هذه السنين الأخيرة لم يأت بالحل الحقيقي، بل كان بمثابة الـدواء المسكّن أو الوسيلة التي لا تفي بـالغرض المنشـود. ولكن يجب أن لا يغرب عن البال بـأن مشكلة اللاجئـين هي النتيجة الـواضحة الجليـة لتخلي بـلاد الغرب عن سلطتها. إنني لا أعتقـد بأن حـل مشكلة اللاجئين يمكن أن تحـل على وجه الصحة، القضية الأساسية، ألا وهي أن تعاد إلى الفلسـطينيين الأراضي التي كانوا يقطنون فيها منذ ألفي عام.

لقد حلّت القمة الأخيرة في الربـاط المعقودة في تشرين الثـاني (أكتوبـر) من عام ١٩٧٤، بعض المشاكل. وحل موقف منظمة الأمم المتحدة بعضاً آخر منهـا. ولكن الطريق الذي يفصلنا عن الحل النهائي ما زال طويلاً. فالقضية الفلسـطينية سوف لن تجد حلاً لها إلاّ عندما ترغب في ذلك حقيقة الأطراف المعنية. لا بدّ قبـل كل شيء من توفـر الرغبـة الأكيدة في إيجـاد الأرضيةِ الـلازمة لـلاتفاق العـام التي تسمح بالتقـدم نحو حـل عادل ومشرّف. وإنني أفضّـل، مراعـاة للاستقـامة، أن أعـترف بأنني لا أرى في الـوقت الحاضر أي تمهيـد لاتفاق كهـذا. فدولـة إسرائيل تفعل كل شيء من أجل تدعيم موقفها وأن ما يصدر عنها مماثل بشراسته القومية لما صنعه هتلر إزاء اليهود عنـدما طـردهم من ألمانيـا. مقابـل هذا يـود الفلسطينيـون العرب أن يستردوا حقهم في العودة إلى أوطانهم ولكن طموحات الـدولة اليهـودية التي تتسم بالغلوّ في التعصب القومي، قد بلغت من الحدة مبلغـاً جعلها تعتـبر كل

عـودة ذات أهمية للعـرب إلى أوطانهم، ليست تهـديـداً مـوجهـاً لأمنهـا الـداخـلي فحسب، بـل إنها تفسّر حتى الـوجـود العـربي في القسم الفلسـطيني الـذي يحتله اليهود، بأنه تهديد ضد كيانها نفسه.

أما العالم العربي فقد حدَّد، على العكس من ذلك، كهدف له، قوميـة أكثر تسـامحاً، تصـون هويـة مختلف الدول العـربية وتتـطلَّع في الوقت نفسـه إلى حيـاة مشتركة محتملة التحقيق ضمن كيان أرحب. فنحن لسنا مهددين بالوجود الطبيعي لدولة إسرائيل فحسب، ولكننا مهددون أيضاً بـردود الفعل لكثـير من الحكومـات العربية وزعـمائها عـلى أثر الـدعم الممنوح من الغـرب إلى الدولـة اليهوديـة، هذا الدعم الذي كان على جانب كبير من الأهمية فيما مضى. والذي جعل يتراخى اليوم بعض الشيء. لـذلـك يجب أن لا نبحث بعيـداً عن أسبـاب التقـارب بـين بعض البلاد العربية والأقطار الشيوعية المعادية للعالم الحر.

لقـد قـاوم الأردن دومـاً هـذا الإغـراء بحـزم وعـزم وتصميم، ولـو أن من البديهي أن مقدرتنا على المساهمة في معركة العالم الحر قد كانت بلا انقطاع مرهونـة إلى حد كبير بموقف الأقطار الغربية إزاء إسرائيل.

لقد كان الشرق الأوسط في كل العصور إحدى الدوائر الحاسمـة في الحرب البـاردة ثم في الحرب السـاخنة. ولقـد كان نـابليون محقـاً عندمـا أطلق عليه اسم «مفترق طرق العالم» إن القضية الفلسطينية لا يمكن فصلها عن النضـال الكبـير من أجل الحرية الذي تقف الإنسانية في مواجهته، فإذا كانت بـلاد الغرب تبحث عن الاستقـرار في الشرق الأوسط وإذا أرادت اكتسـاب صـداقـة الشعـوب العـربيـة والدول العربية واعتبرت هـذه الصداقـة السور المنيـع ضد الشيـوعية، فعـلى بلاد الغرب في النهاية أن تأخذ زمام المبادرة في اقتراح مشروع لفلسطين، مشروع نهائي مستوحى استيحاء عميقاً من مبادئ العدالة السيـاسية والاقتصـادية. ولئن كـانت قضية الحرية قد هزمت في الشرق الأوسط فإن ذلـك ما هـو إلاّ نتيجة لتخـلي العالم الحـر عن مبادئـه التي كان يؤمن بهـا. إن كل صـدع يحدث بـين المبادئ والممـارسة العملية سيكون مصدراً للفوضى وعدم الاستقرار.

إن أعداء الحرية الذين يتسترون بالظلام لهم دوماً على استعداد للنفاذ من خلال هذه الشقوق. وهم يترقبون اللحظة المناسبة لتوسيع هذه الخروق والثغرات.

*** كـان عاما ١٩٥٦ و١٩٥٧ عامين عسيرين جداً عليكم. فهما السنتان الأوليان اللتان اضطررتم فيهما أن تتخذوا أولى قراراتكم المهمة. أولاً طرد كلوب باشا ثم مجابهاتكم مع حكومتكم. وأخيراً قضية الزرقاء.**

ـ إنها لمهنة شاقة أن يكون المرء رئيس دولة لا سيما قبل عشرين عـاماً. تعـود أولى تجاربي كملك للأردن إلى عام ١٩٥٦. فاستقالة الجنرال كلوب بعد خدمة في الأردن بلغت ستة وعشرين عاماً، كانت حـدثاً مهـماً جداً. وينبغي أن يكـون المرء أردنيـاً أو أن يعرف مشـاكل بـلادي معرفـة عميقة، ليتسنى لـه إدراك أهميـة هـذا الحدث إذ توجد دوماً في تاريخ البلدان الصغيرة لحظات حاسمة يتوجب على المـرء فيها أن يكبح جماح عواطفه الشخصية وأن يطلق العنان للموضوعية. وهذه كانت الحـال بالنسبـة للجنرال كلوب فقـد أحدثت استقـالته بعض الـدهشة والـذعر في العالم. وكثير من الناس من أخذ عليَّ بمرارة هـذا الحل المتـطرف. لقد أوّل مـوقفي تأويلاً خاطئاً جداً على أنه إهانة متعمدة أصيب بها الحلفاء الغـربيون، وعتبـوا عليَّ بتسرع، أن أصر عـلى استقالـة كلوب لأضع حـداً لصـداقتنـا مـع إنكلترا. هـذا التأويل الـذي نشر على نـطاق واسع من قبـل الصحافـة الغربيـة ما هـو إلاّ محض اختـلاق. ولعل ممـا يبعث على السخـرية حقـاً أن يعتقـد المـرء أو أن يـوحي إلى الآخرين بأن سفيراً إذا ما أصبـح غير مـرغوب فيـه وجب أن يعتبر رحيله عـلى أنه دلالة على النفور والعداء نحو حكومته.

يجهل الرأي العام عموماً أن عزل الجنـرال كلوب كان قضيـة أردنية تمـاماً. لأن كلوب كان قائداً عاماً للجيش العربي الأردني. وكان يعمل لحساب حكومتي.

لقد كان السبب الرئيسي في عزله يقوم على عدم التفاهم بيننا وعـلى خلافنـا

حول مسألتين جوهريتين: دور الضباط العرب في جيشنا، واستراتيجيتنا الدفاعية. فأحد واجباتي كملك هو تحقيق الأمن لشعبي وبلادي. ولو لم أقم باستبداله لما كنت قد مارست أعباء مسئولياتي. إن ما تم كان من الواجب أن يتم. وإنني أعرف، بعد أن انقضت الأعوام الطويلة على ما حدث، أن كلوب باشا قد قنع بوجهة نظري، أثر مناقشة الأمر معه فيما بعد.

لقد كنت والجنرال مختلفين تمام الاختلاف حول موضوع أساسي كنت أرغب في ترفيع الضباط الأردنيين إلى المناصب العليا في الجيش وفي أن يتولوا قيادته طبقاً لخطة واقعية.

هذا الاختيار كان يضايق سياسة التسلط التي كانت تنتهجها إنلكترا التي كان قد صدر عنها في ذلك العهد عبارات طائشة ومثيرة للسخرية. لقد نصت المعاهدة الإنكليزية ـ الأردنية على حق الأردن في أن يستوفي مساعدة مالية تبلغ اثني عشر مليون جنيه سنوياً، وعلى التزام بريطانيا العظمى في أن تقدم الضباط اللازمين لتنظيم الجيش الأردني. ولكن الإنكليز كانوا من الناحية العملية يقودون الجيش.

ولما كنت خادماً للشعب، فقد كان عليَّ أن أعطي الأردنيين مزيداً من المسئوليات وكان من واجبي أيضاً أن أقوي ثقتهم بأنفسهم وأن أرسخ في أذهانهم روح الكرامة والكبرياء القومي لتعزيز قناعتهم بمستقبل الأردن وبدوره إزاء الوطن العربي الكبير فالظروف والشروط كانت إذن ملائمة لإعطائهم مكاناً أكثر أهمية في تدبير وإدارة شئون بلادهم لا سيما في الجيش. وعلى الرغم من حب الجنرال كلوب للأردن ومن ولائه وإخلاصه لبلادي فقد كان يقف عائقاً دون تحقيق ذلك. ولعلَّ من مظاهر هذا التناقض أنه منذ أن كان الجيش العربي الأردني يشكل ركن الأردن الأساسي، أصبح كلوب أحد الرجال الأقوى والأوسع سلطة في البلاد. ولكن على الرغم من أن كلوب كان القائد العام لجيشي، فلم يكن في مقدوره أن ينسى إخلاصه وولاءه لإنكلترا. هذا الوضع يفسر سيطرة لندن فيما يختص بشئوننا العسكرية. كان الجيش يفيض بالضباط الشباب غير المؤهلين

والخاضعين تماماً لأوامر وايتهول التي كان يمثلها كبار الضباط الإنكليز. هؤلاء الأردنيون الشبان كانوا يتميزون بانعدام الطموح وروح المبادرة، بينما كان يجب عليهم في نظري أن يشكلوا أمل جيشنا ومستقبله. أما أولئك الذين تعتلج في نفوسهم الطموحات القومية وتتوق نفوسهم إلى جيش أردني عربي، فقد أقصوا، وعهد إليهم بوظائف ثانوية لا أمل فيها بالترقي. كانت خيبة الأمل قاسية الوطأة على نفوس الشبان ولقد طلبت مراراً من الإنكليز أن يدربوا مزيداً من الضباط الأردنيين القادرين على الارتقاء إلى الرتب العليا، وكان البريطانيون يتجاهلون مطالبي. كان أعلى منصب يستطيع أن يطمع فيه الأردنيون هو منصب قائد سرية ولا شيء أكثر من ذلك.

بعد أشهر من المفاوضات التي اتسمت بالصبر والأناة، أستجيب إلى طلبي. لأن إنكلترا قبلت أخيراً أن تعرض علينا خطة للتعريب يتم بمقتضاها منح الضباط الأردنيين في المستقبل مزيداً من الامتيازات. كان ذلك (نصراً) أو على الأقل كنت أعتقد ذلك. وقد قوبل هذا النبأ بالترحيب الحار من جانب أعضاء حكومتي. بقي الآن أن تعرف ماذا كان يُفهم من عبارة (المستقبل) بعد قليل حصلت على فكرة عن الموضوع. إذ إنهم أبلغوني رسمياً بأن سلاح الهندسة الملكي في الجيش العربي الأردني سوف يتولى قيادته ضابط عربي في عام ١٩٨٥. كيف يمكن لحكومة أن تبلغ من الواقعية إلى هذا الحد القليل؟ لم تدرك إنكلترا في ذلك العهد أنه لا يمكن تجاهل طموحات شعب، بقولها: «سوف نتحدث عن ذلك بعد ثلاثين سنة».

إنني أول من يعترف بأن من المحتمل أن لا يكون ذلك بخطأ من كلوب فالجنرال لم يزد على أن كان ينقل أوامر وايتهول. وهو على كل حال قد حاول مراراً مساعدتنا. ولكن موضوع الجيش بقي دوماً بدون حل: في حين أنه كان علينا أن نقدم لرجالنا وشبابنا إمكانات تستحق الاهتمام، لا سيما عندما نعرف أن الجيش في الأردن ليس أداة للدفاع ضد الغارات الأجنبية فحسب، بل هو أيضاً، وعلى الأخص جزء لا يتجزأ من الأمة بأسرها.

لقد كانت تقاليد وتاريخ الشعب الأردني تمنح دوماً الجندي المقاتل نظاماً تفضيلياً. وقد كان الانخراط في سلك الجندية عندنا من قديم الزمان، مدعاة للسعادة. كان لرجالي دوماً إحساس رفيع بالكرامة والعزة. ولم يستطع جندي في العالم العربي أن يطاول جنود جيشي كبرياء وأنفة.

أما حالة الضباط فقد كانت مختلفة لأنهم كانوا لا يرون أي أمل أو رجاء في الترقي في المهنة التي اختاروها.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد لأن مشاعر شخصية جاءت لتنضم إلى كل ذلك. فالجنرال كلوب الذي كان آنئذ قد قارب الستين من العمر، قد عاش فترة طويلة بيننا بحيث كان لا يستطيع أن يتصور استمرار الحياة في الأردن بدونه. كان يبلغ ثلاثة وعشرين عاماً عندما استخدم في العراق. ومنذ عام ١٩٢٠ كان يشكل جزءاً من العالم العربي.

لقد وصل إلى شرقي الأردن للمرة الأولى في عام ١٩٣٠ لتولي قيادة (قوات البادية) وأصبح قائداً للجيش العربي الأردني منذ عام ١٩٣٩. وقد أطلق البدو عليه لقب (أبو حنيك) أي (الأب ذو الذقن الصغيرة) لأن أحد فكيه كان مشوهاً. كان المسرح السياسي يتطور بسرعة. كان رجال السياسة يأتون ويذهبون والسفراء يتغيرون ولكن كلوب كان دوماً في منصبه فعالاً نشيطاً فائق اللطف والتهذيب. بيد أن شيئاً مع ذلك قد تغيّر. ألا وهو العصر.

ست وعشرون سنة تمثل أكثر من ثلث حياة رجل. وطوال هذا الزمن، ابتعد كلوب بعداً شديداً عن العالم الخارجي. لقد كان متأثراً تأثراً عميقاً بالعصر الفكتوري. كان يحلو له أن يقول بأنني شاب متقد الحماسة وأنه أكبر سناً وأكثر اعتدالاً. كان يقول حقاً، ولكنه نسي أن الأردن أمة شابة مندفعة العواطف وأننا كنا وما زلنا أكثر نفاد صبر من كلوب في تحقيق أهدافنا وأمانينا القومية. كانت هذه الحيوية تتطلب الكثير من اليقظة والحذر. فالبرغم من أنه جندي صالح مثالي، كان لكلوب وقد قارب الستين عاماً، مفاهيم عسكرية عتيقة الطراز بعض

الشيء. فلم نكن غالباً على اتفاق حول دور الدفاع الاستراتيجي للبلاد الذي كان يريد أن يقيد الجيش به ولا سيما حول مفهومه الخاص بدفاعنا ضد إسرائيل. كان هذا هو المظهر الثاني من مظاهر خلافنا.

لقد سبق لي أن قلت بأن للأردن، أطول حدود مشتركة مع إسرائيل بين سائر الأقطار العربية، أي حوالي ستمائة وخمسون كيلو متراً، لقد أصاب العالم العربي بانشاء إسرائيل، ضربة قاصمة. فالجيوش العربية التي كان يعوزها التدريب والتي كانت سيئة التسليح وينقصها التنسيق والاستراتيجية المشتركة، قد لحقت بها المذلة والإهانة.

في الواقع كان الأردن وحده هو الذي خرج سليماً. إذ على الرغم من أن الجيش العربي الأردني لم يكن قد أعدَّ للمعركة سوى أقل من أربعة آلاف وخمسمائة رجل، فقد وفقنا في انقاذ معظم الجزء من فلسطين الذي خصص للعرب، وحققنا ما كان يعتبر حلماً في نظر العالم العربي، ألا وهو صيانة القدس والأماكن المقدسة.

كان رد الفعل من جانب البلاد العربية الأخرى غير معقول. فمعظم الزعماء العرب المسئولين عن الهزيمة والذين سحق قلوبهم الحسد ورغبوا في إيجاد كبش فداء، كانوا يقذفوننا بجحيم من دعاياتهم، ويتهموننا بمسئولية الهزيمة. وكانت مصر على رأس المفترين.

أما حجتهم فهي أن كلوب الانكليزي هو الذي كان يقود الجيش العربي الأردني: كان عذراً سهلاً مريحاً هينا لهذه الدول العربية التي لم تجرؤ على القتال، ولكن الدرس قد أفادنا فقد أدركنا أنه لا مجال بعد الآن اطلاقاً لترك المبادرة بين أيدي إسرائيل. كان ذلك في عام ١٩٥٦.

كنت أرى أنه علينا في حالة نشوب حرب أن نؤمّن دفاعنا على طول الحدود الإسرائيلية ـ الأردنية وأن نصمد مهما كلف الأمر حتى الموت. لقد فكرت بأنه من الوهم، إذا لم نقل من باب الإنتحار، أن نحدد، كهدف لجيشنا، الدفاع عن سائر

حدودنا، وأن نقاتل قتالاً دفاعياً فقط، لأن قوة صغيرة العدد كقوتنا لا تستطيع أن تدافع عن حدود طويلة كحدودنا.

لذلك قررنا أن نؤمن التدريب العسكري لجزء من السكان المدنيين أسميناهم في البداية (حرس الحدود) ثم الحرس القومي أما مهمتهم فتقوم على الدفاع عن الحدود لكي تتيح للجيش الأكثر تدريباً وتجهيزاً، في حالة قيام العدوان، توجيه ضرباته في نقاط محددة.

بدأت فكرتي تسير في طريقها. إذ أصبح الحرس القومي في ذلك الحين ضعف عدد القوات المسلحة النظامية، وغدا مجهزاً تجهيزاً مساوياً لها. ولكن ذلك لم يكن كافياً.

وفي رأيي أن استراتيجية دفاعية صرفة لا تستطيع إلا أن تتسبب في هزيمتنا. فالعدو سيراعي جانب التروي وامعان النظر مرتين قبل أن يهجم إذا ما كان قانعاً بأن الرد الشديد سيتلو غاراته.

وكنت أيضاً مقتنعاً بأن علينا أن نرد بقوة على غارات المغاوير (الكوماندوس) الإسرائيليين على القرى العربية. فلطالما عبر اليهود حدودنا سراً وأحرقوا البيوت والقرى وقتلوا السكان العرب العزل.

لقد كنت من أنصار الرد الفوري، أي أنه كلما ارتكب الإسرائيليون عدواناً توجب علينا أن نضرب هدفاً مختاراً في الجانب الآخر.

لقد أدانت منظمة الأمم المتحدة الإسرائيليين. ولكن اليهود لم يكونوا ليكترثوا بذلك إلا قليلاً. مما جعل الناس يسخرون من جنودنا. ورويداً رويداً ولكن بصورة مؤكدة ثابتة، بدأت تنشأ هوة بين الشعب والجيش.

وعبثاً أبنت وشرحت كل ذلك لكلوب. فقد كان الجنرال يواصل النصح بمراعاة جانب الحكمة والحذر. كان يحبذ تراجع قواتنا إلى الضفة الشرقية في حالة قيام هجوم إسرائيلي، ريثما تأتي الإمدادات، لشن هجوم معاكس. وهذا يعني

بوضوح احتلالاً يهودياً للأراضي الفلسطينية التي ضمت إلى الأردن والعودة الى الحدود الأصلية. كان ذلك غير معقول. ولكن على الرغم من تحسن طاقاتنا العسكرية التي أتاحت لنا أن نحدد خطاً دفاعياً على الأرض الفلسطينية أكثر ايغالا إلى الأمام مما قدره كلوب، فإننا مع ذلك قد فقدنا جزءاً كبيراً من أراضينا.

ومع أن كلوب كان يعرف أن مليون عربي قد طردتهم اسرائيل من الأراضي التي ولدوا فيها فإنه لم يستطع أن يفهم بأن إسرائيل إذا ما اخترقت الأراضي الأردنية لاسيما في الضفة الغربية، سوف لن يستطيع الأردنيون استرجاع هذه الأراضي. ولقد برهنت حرب عام ١٩٦٧، بعد أحد عشر عاماً، أنني كنت محقاً فيما ذهبت إليه.

لقد ناقشنا طويلاً أنا وكلوب، هذه النظريات الدفاعية، خاصة وأننا علمنا بأن الذخائر كانت تنقصنا. فإذا صح أن نظريته يمكن تبريرها في بعض النقاط، فإنه يبقى أن زمن النظريات قد ولى، لأن الأمر يتعلق بشرف الأمة أو بالعار الذي يلحق بها.

عندما غدت هدنة الأمم المتحدة في عام ١٩٤٨ حقيقة واقعة، كانت إحدى الشروط الرئيسية تنص على أنه لا يحق لأي من الأطراف المعنية أن يزيد من طاقاته العسكرية، وإذا كانت بريطانيا التي كانت ملتزمة بتزويدنا بالسلاح، قد أوقفت مدَّنا به فإن إسرائيل كانت تتلقى السلاح الذي تحتاج إليه، حتى أنها أوصت على كميات كبيرة منه في المعسكر الشيوعي. وهكذا لم يغير قرار حظر توريد السلاح من الأمر شيئاً.

وقلت عندئذ لكلوب: «لماذا لا نستطيع أن نحصل على مزيد من كميات السلاح؟».

لقد كنت أعرف أن جوابه سوف يكون متسماً بالحيرة والإرتباك والضيق. لأنه كان قد سبق له أن طلب ذخيرة من لندن، وأنه في عام ١٩٤٨ كانت سفينة محملة بالمعدات متجهة نحو شواطئنا قد أعادها البريطانيون ومنظمة الأمم المتحدة

من حيث أتت، عند بدء سريان مفعول قرار حظر السلاح. وكنت أعرف أيضاً بأنه كان يحض بريطانيا العظمى على ارسال مزيد من السلاح والذخيرة إلينا.

لقد بذلنا كل ما في الوسع عبثاً في سبيل الحصول على المزيد من الذخيرة من الحكومة البريطانية لأن أسلحتنا جميعها من صنع بريطاني. ولكن لندن كانت تتعلل دوماً بضرورة (توازن القوى) بين جميع الأقطار العربية من جهة وبين إسرائيل من جهة أخرى. وهكذا كان الإسرائيليون يستمرون في تلقي السلاح من فرانسا ومن بلاد أخرى، أما نحن فكنا نحس بأننا موضع الهزء والسخرية.

فما دام أن بريطانيا ترفض أن تزودنا بالسلاح، فإنني لا أستطيع، مراعاة لمقتضيات الامانة، أن ألوم كلوب على رغبته في أن يحصر مهمة جيشنا في دور محض دفاعي. لقد كان والحالة هذه، محقاً في اعتقاده بعدم قدرتنا على الدفاع عن حدودنا بصورة ملائمة. ومع ذلك فإن وجود الجنرال في بلادنا، مذموماً ومطعوناً في شخصه من قبل الكثير من الناس، قد أصبح عاملاً باعثاً على القلق الأكيد. لقد كنا خاضعين للأجنبي، فإذا كان كلوب، بصفته جنرالاً، لا يستطيع أن يؤمن لنا مخزوناً كبيراً من السلاح والذخيرة فهو ليس خليقاً، بأن يسخو علينا بنصائحه ومشوراته حول التكتيك العسكري الذي نعتمده. انظر ماذا حدث منذ رحيله، لقد ازداد مخزوننا من السلاح ازدياداً كبيراً، واستمد الجيش العربي الأردني قوته من تطبيق هذه البديهية العسكرية ألا وهي: زوِّد الجندي بالوسائل الضرورية وبالأسلحة الملائمة.

ولقد حاولت أيضاً أن أجهِّز الأردن بقوة جوية خاصة به إذ لا يعقل أن نكون تابعين لبلد أجنبي من أجل تأمين الدفاع الجوي لسمائنا ضد عدو كاسرائيل مجهز بقوة عسكرية جوية هامة. إن وضعاً كهذا لا معنى له. فما دام أن الجنرال كلوب عاجز عن تغيير هذا الواقع، فإنه سيشجع الضباط العرب والبريطانيين على قبول فكرة التخلي عن جزء من التراب القومي في حالة وقوع هجوم. لقد كان يؤكد أكثر من مرة في المحاضرات التي كان يلقيها على الضباط بأن اسرائيل بحكم

أنها أقوى من العرب، فإن من الوهم أن نقاتل على الحدود. وإنني أذكر مرة أنني استشطت غضباً عندما سمعته يشرح علناً نظرياته الدفاعية حول الضفة الغربية.

كانت المشاكل تتراكم على مر الشهور. لقد كنت مصمماً على إنشاء جيش قوي متوازن يدعمه غطاء جوي هام، وقد كان تحقيق ذلك مستحيلاً، ما دام كلوب بيننا، فكان عليَّ إذن أن أنفصل عنه.

هنالك إحدى المعطيات التي بدأت في الظهور. كانت الشيوعية تتغلغل ببطء في الشرق الأوسط. وكانت القاهرة تتهمنا بأننا (دولة استعمارية). لم يكن هنالك خيار آخر. إن كلوب يجب أن يرحل.

* لقد بدأت مصاعبكم الداخلية الحقيقية بعد رحيل كلوب.

ـ كانت الاثنى عشر شهراً التي تلت رحيل كلوب، فترة تجارب تبعث على القلق أحياناً.

فقد ولىّ الآن عهد النفوذ البريطاني القوي في سائر شئوننا الداخلية. لقد كنت سعيداً أن تستعيد بلادي استقلالها، ولكنني كنت أعرف أن الفراغ الذي تركه رحيل ضباط الجيش البريطاني، سوف يحدث ما لا مناص منه من التعقيدات والمضاعفات. ولسوء حظنا فقد كنا مضطرين أن نبدأ من الصفر. كان علينا قبل كل شيء أن نجد الرجال القادرين على إدارة بلادنا وبشكل خاص قيادة جيشنا. لقد كان الوجود البريطاني من العمق والشمول بحيث أن ضباطنا لم تتح لهم إمكانية إثبات مقدرتهم في تولي المناصب ذات المسئولية. فكان علينا أن نجري تجاربنا الخاصة وما يستتبع ذلك من ارتكاب ما لا مفر منه من الاخطاء. وعلى المسرح السياسي كانت تواجهنا نفس المشكلة، لأن حكامنا منذ سنين، قد توقفوا عن التفكير في الأردن كبلد مستقل. فقد جرت العادة في وقت الأزمات أو الخلافات أن يذهبوا لزيارة السفير البريطاني من أجل استشارته.

على مر الشهور ازدادت الضغوط. وبعد سنة من رحيل كلوب، في ربيع عام ١٩٥٧، تمكنت من القضاء في الوقت المناسب على مؤامرة أعدت ببراعة، عرفت بتمرد الزرقاء، كانت ترمي إلى اغتيالي لخلق الاضطراب والفوضى في الأردن واعلان الجمهورية. كان يعني نجاح هذا الانقلاب (بداية النهاية) بالنسبة للأردن.

كيف أوشك أن ينجح عصيان بهذه الأهمية؟ كيف وجدت نفسي وحدي

تقريباً في خط اطلاق النار بين فريقين من الضباط؟ كيف استطعت أن أنجو بينما كان الرصاص يلامسني عن قرب وكنت أحس برائحته وحرارته؟

إن الأجوبة على هذه الأسئلة تستهوي القلب. كما أن القضاء على المؤامرة يدخل في باب المعجزات. هنالك أمر مؤكد وهو أن تمرد الزرقاء الذي كاد أن يكلفني حياتي يشكل، بما يدعو إلى السخرية والتهكم، نقطة تحول في تاريخ الأردن. بعد مرور العديد من السنين تحملني قضية الزرقاء على التفكير في أنها كانت بمثابة تطهير لجرح كان يتقيَّح وينخر بالتدريج قلوب أكثر الرجال اخلاصاً.

كانت مؤامرة سياسية، ولكن في هذه المرحلة من تطور الأردن، كان الجيش يحتل مكاناً بلغ من الأهمية حداً لا بد معه، على الرغم من كل شيء، أن يحسب له حساب. وقد نجح عملاء الأجنبي المأجورون، ذوو البراعة الشيطانية في أن يحملوه على التدخل في النزاع. كان انعدام الخبرة لدينا ظرفاً ملائماً، وكان يكفي لذلك إيجاد الضباط المترددين والمنعدمي الخبرة.

لقد كان انعدام الخبرة هذه نفسها تطبع رجالنا السياسيين بطابعها. وكنت ما زلت أتعلم مهنتي كملك بصبر وأناة وأتولى تقريباً جميع المسئوليات طوال فترة الانتقال هذه. كان الزعماء السياسيون يعتمدون خلال مدة طويلة على المساعدة الخارجية، فإذا بهم يجدون أنفسهم متخلفين بالنسبة لشباب مثلي كانوا مقتنعين بأن ساعة التحرر من نير الأجنبي قد حانت.

فقررت إذن بأن السياسيين وضباط الجيش الشبان يجب أن تتاح لهم الفرصة لاقامة الدليل على شجاعتهم. لقد كنت أعرف أنه يمكن أن يحصى بينهم طائفة كبيرة من اليساريين، ولكنني فكرت بأن معظمهم يؤمنون بمستقبل بلادهم. فوددت أن أرى كيف يتحملون مسئولياتهم.

وصل الوطنيون الاشتراكيون إلى الحكم أثر انتخابات جرت في نهاية عام ١٩٥٦. كان أمين عام الحزب، سليمان النابلسي، قد هزم في منطقته الانتخابية، ولكن بوصفه زعيماً لحزب فائز أصبح رئيساً للوزراء. كان النابلسي من

اليساريين، ولكنني اعتقدت أنه لا بد من منحه الفرصة لتجربة حظه. مضى كل شيء في البداية بلا مشاكل. ولكن ما لبثت المنازعات أن ظهرت بين الملكية والحكومة.

ومن الغريب أن يعمد بعض السياسيين الفائزين في انتخابات حرة، إلى التآمر على شخصي بدلاً من الاكتفاء بتأييد وتشجيع الاصلاحات لبلادهم... وفي الواقع كان أول «إصلاح» لهذه الجماعة القائمة على السلطة هو القضاء على الملكية. ولأسباب غامضة يدخل فيها الطمع والجشع، اتجهت نحو عبد الناصر والشيوعيين الذين كانوا يعرضون عليهم على ما أظن «وجهات نظر مستقبلية أفضل». كانوا مصممين على عدم التراجع أمام أي شيء. ففي (٢١) كانون الأول (ديسمبر) مثلاً ألقى رئيس وزراء الأردن خطاباً في مديح الرئيس عبد الناصر استغرق أربعين دقيقة دون أن يشير في أية لحظة إلى دور الأردن في الشرق الأوسط. كان هنالك ما هو أسوأ. إذ قبل استلام النابلسي للسلطة بأربع سنوات، كان الأردن قد أصدر مرسوماً (بمكافحة الشيوعية) في عام ١٩٥٣ يتضمن منع صدور الصحف الشيوعية. ومع ذلك في ٣١ كانون الأول (ديسمبر) أقرَّ النابلسي وأصحابه مشروع قانون يسمح بصدور جريدة (الجماهير) الشيوعية. كما وافق أيضاً على منح مكتب لوكالة تاس في الأردن. فبدأت النشرات والأفلام السوفياتية في الظهور.

وغدت دعايات الأقطار المجاورة أكثر تهديداً ووعيداً. وشوِّهت قضية كلوب، وجرى تأويلها بطريقة خادعة ماكرة. فقد كنت أنا الذي قرر عزل كلوب. ولكن سائر الطامحين الطامعين جعلوا ينسبون لأنفسهم مسئولية هذا العمل. كانوا يزعمون بأنهم هم الذين طردوا (الامبريالية) وجاءوا بالحرية إلى الأردن. كانوا في اقتتالهم من أجل السلطة وفي تعجلُّهم على استيفاء (مستحقاتهم) يشوِّهون ويفسدون ملامح التاريخ إلى الحد الذي وصفوني فيه (بعميل للامبريالية)، واعتبروني العائق الوحيد أمام التوصل إلى المزيد من الحرية.

لقد جرى تجاهل تام لمواقفي من قضية السويس!

هذه الحركة الموجهة ضد القصر، أصابت عدواها بعد قليل، ضباط الجيش الميالين إلى اليسار. إنني لا ألومهم تماماً. فقد كانت الدعاية مكثفة جداً. وكانت الأموال الهائلة قد وزعت على سبيل الرشوة. كما وعد السوفيات علانية بتقديم السلاح إلى الجيش ولكن فقط (بعد رحيل حسين).

لقد كنت قلقاً طوال أشهر عديدة، ولكنني لم أتبين أننا سائرون نحو صعوبات خطيرة إلا خلال الأسبوع الأول من عام ١٩٥٧ إذ بينما كنت في إحدى الليالي في القصر، طلب مقابلتي أحد ضباطنا الذي كان معيَّناً في منصب في بيروت. كنت أعرفه جيداً، فقد أرسل إلى لبنان في مهمة خاصة. عندما دخل مكتبي، وقبل أن أدعوه إلى الجلوس، قال لي: «يا صاحب الجلالة انني لا أريد أن أخلق مشاكل حيث لا وجود لها. ولكن سلوك ضباطنا في بيروت ودمشق يقلقني كثيراً. لقد رأيت عسكريين ينفقون ثروات تتجاوز رواتبهم بمراحل. وهم دائماً في صحبة الروس والمصريين»

سألت الضابط الذي سأمسك عن ذكر اسمه، عن السبب الذي جاء به إلى عمان، فأجابني بأنه طلب إجازة أسبوع بحجة زيارة أسرته، في حين أنه في الواقع كان يود المجيء لمحادثتي.

وأضاف: «يا صاحب الجلالة إن ما يحرجني هو أنني لا أستطيع أن أزودكم بأي برهان مادي على ما أقوله. فالأمر يشبه ما يحدث في رواية بوليسية حيث لا تستطيعون اللجوء إلى الشرطة إلا لأنكم لا تملكون إثباتاً على ما يشغل بالكم. ولكنني أفكر وأعتقد مخلصاً بأن من واجبي أن أحذركم وأن أقدم لكم هذه القائمة من الأسماء. ماذا تريدون أن أفعل الآن؟».

أمعنت الفكر قليلاً ثم طلبت إليه العودة إلى بيروت منذ صباح اليوم التالي، والاستمرار في مراقبة هؤلاء الضباط. واقترحت عليه أن يستعين بعميلين أردنيين كان أخلاصهما لي مؤكداً، واصلنا إذن مراقبة نشاط بعض كبار الضباط ورجال السياسة الذين كانوا ينفقون عن سعة، خارج الأردن.

ولسوء الطالع جرى توقيف هذين العميلين بينما كانا يأخذان رقم سيارة أردنية كانت واقفة أمام فندق السان جورج في بيروت. كانا يرتديان ألبسة مدنية ولكن نظراً لأنهما كانا يحملان سلاحاً فقد أرغما على إثبات وضعهما كضابطين أردنيين، ثم رحّلا إلى البلاد. ولكن عن طريق مصادر أخرى، بلغتني تصرفات أخرى مستنكرة. كان عملاء من السوفيات والمصريين يحاولون بالفعل وأحياناً بنجاح، توريط شخصيات كبيرة في الجيش وأعضاء في الحكومة. وكان بينهم اللواء علي أبو نوار رئيس هيئة أركان القوات المسلحة الذي كان صديقاً مقرباً. فقد بلغنا أنه كان يزور دمشق بانتظام ويقابل فيها باستمرار الملحق العسكري السوفياتي. كان عبد الله الريماوي وزير الدولة للشئون الخارجية بين المتآمرين. كان عضواً في حزب البعث الذي كان ميالاً للشيوعية الحديثة في ذلك العهد. وكان هو ووزراء آخرون يتوجهون ليلاً إلى دمشق بانتظام لا سيما بعد الجلسات الهامة لمجلس الوزراء الأردني ولا يعودون إلا في صباح اليوم التالي. وقد أسرَّ عملاء في المخابرات العامة إلى رئيس ديواني بأنه (لو فتح رجال الشرطة حقائب بعض أعضاء الحكومة على حدود الرمثا بين سورية والأردن لوجدوا فيها أموالاً).

لقد أدخل الخونة ما يزيد على المائة ألف دينار أردني إلى البلاد بعضها لأنفسهم والباقي لأغراض الإفساد والرشوة. لم نفتح أبداً حقائبهم لأن عملاً كهذا مع وزراء أمر في غاية التعقيد. فاكتفينا بمجرد الإنتظار والترقب.

ولا أريد القول بأن الجيش بأسره قد انهار، فالأمر كان على العكس. ولكننا بلغنا نقطة لم يعد فيها الكثير من الضباط ورجال السياسة يعرفون أين يتجهون. بعضهم كانوا من الوطنيين المخلصين الذين كانوا يعتقدون بأن الأردن أصغر من أن يتماسك ويستقيم أمره لوحده. وآخرون قرروا أن يقدِّموا أنفسهم لدول عربية أخرى. وبعبارة أخرى عرضوا خدماتهم على الشيوعية.

بدأت تسوء حال جيشنا الذي كان فيما مضى فعالاً، إذ انقسم بعد قليل إلى جماعات متعارضة لكل منها معتقداتها السياسية الخاصة. تذكر أن العالم العربي كان في حالة غليان. فقد غزا السلاح الشيوعي مصر، وبدأت الشيوعية تتخذ من

الشرق الأوسط مقاماً لها بحجة مساندة العروبة. هؤلاء العملاء الشيوعيون كانوا المحرِّضين لمعظم الإضطرابات. وكلما تفاقمت الأزمة عمدوا إلى تشجيع الفتن في الشوارع. لم تكن هذه المظاهرات جدِّية في البداية، مع هذا الفارق التقريبي وهو أن قوات الأمن كانت على الغالب ترفض التدخل.

لقد كافح عبثاً مدير قوات الأمن الذي كان وقتئذٍ بهجت طبارة، من أجل الاحتفاظ برقابة وإدارة هذه الدائرة الحيوية التي أقام فيها بعض الوزراء ورئيس الأركان عملاء لهم، لا سيما بين الضباط الذين كانوا يتلقون رشاوى جسيمة، ويرفضون إطاعة تعليمات رؤسائهم. لم يكن الشرطي البسيط يدري بما يحدث. فهو لا يتلقى بداهة التعليمات من طبارة وإنما من رئيسه المباشر الذي كان على الغالب خاضعاً لرجال كعلي أبو نوار. فعندما يقال له بأن لا يتدخل في شغب، كان واجبه يقضي عليه بأن يطيع الأوامر وليس بأن يخالفها. وبعد استقالة طبارة الذي كان يرمي من وراء ذلك إلى الإعراب عن عدم رضاه، عن سائر أشكال التدخل الخارجي، ازدادت الأمور سوءاً.

أقبل الربيع حائراً متردداً. كان ربيعاً رائعاً كما هو الحال عموماً في عمان بخضرته وسمرته وألوانه ونفحاته العطرة الخاصة به التي تجعل منه أجمل فصل في الشرق. ومع ذلك فقد كان ربيعاً كئيباً. كان الجو خانقاً عسير الإستنشاق، مع ازدياد مستمر في حدته. كان المحرِّضون يطوفون في الشوارع في جماعات منظمة ويستحثون الجمهور على الشغب والفتنة، الأمر الذي كان يثير أعصاب الحكومة. كان ينادى بنفس الشعارات في أهم طرقات المدن الكبرى: «لقد طرد عبد الناصر الأمبريالية خارج مصر فاقتدوا بمنقذ العالم العربي».

إن السهولة التي كان مثيرو الشغب هؤلاء ينقلون بها دعواتم كانت عجيبة. فقد كان من المستحيل تقريباً مكافحة كل هذا العدد من الأعداء في سائر نقاط الحياة العاملة في البلاد. وفي مواجهتنا، كان يقف جيش إسرائيل القوي الذي كان من الصعب جداً صده من قبل جيش نفذت إليه العقائد السياسية. ولقد استولى عليَّ القلق. إذ كانت بعض الشعوب العربية الشقيقة تطعننا في الظهر بينما كانت

بلادنا على شفا حرب أهلية.

كان التوتر يزداد بين الحكومة وبيني، كلما ارتفعت حدَّة التوتر في البلاد. ولما كان بعض أعضاء الحكومة مأجورين لدمشق وللعملاء السوفيات في سورية، فقد كان أحد أهدافهم أن يعترف الأردن بالصين الشعبية وبروسيا. إلا أنني كنت أرفض ذلك بحزم حتى أن صلاح البيطار وزير الخارجية السوري، وجه رسالة إلى الحكومة الأردنية تتضمن اقتراح تبادل علاقات «أكثر ودية» مع الروس والشيوعيين.

كان النابلسي يجمع وقتئذٍ في يده منصبي وزير الخارجية ورئيس الوزراء. ولكنني كنت أرتاب في الريماوي وزير الدولة للشئون الخارجية أن يكون المحرِّض على هذا المشروع. كانت الإتصالات بين الريماوي والسوريين من التكرار والكثرة إلى الحد الذي كان من المألوف أن تسمع من يقول بأن (مركز وزراة الخارجية الأردنية يقع في دمشق).

عرض النابلسي اقتراح البيطار على الحكومة، الأمر الذي أثار غيظي وحنقي. لم أكن أستهجن مضمون هذه الرسالة والتلميحات الواردة فيها فحسب، بل اعتبرت أنها وقاحة من جانب صلاح البيطار أن يتدخل في الشئون الداخلية الأردنية. لذلك قررت أن أرد عليه شخصياً. وبعد أن حررت جوابي بعثت به إلى وزارة الخارجية السورية، بالطريق الطبيعي، إلا أن الحكومة عارضت في ذلك.

لقد بلغ السيل الزبى. كتبت عندئذٍ إلى رئيس الوزراء لألفت نظره بعبارات شديدة اللهجة إلى الأخطار والتهديدات التي جعلتها الشيوعية تحوم فوقنا، ولأصر أيضاً على قناعتي بأن الأردن ينبغي أن يسلك طريقاً مختلفاً إذا أرادت بلادنا أن تواصل الدفاع عن نفسها. وقد أضاف كتابي إلى ذلك أيضاً: «أن الحرب الباردة الناشئة حالياً بين المعسكرين العالميين قد أدخلت إلى بلادنا بعض المبادىء والمعتقدات التي تتناقض تناقضاً صريحاً مع تقاليدنا. كما تغلغلت بعض المنظمات

الغريبة بيننا، فإذا لم توقف هذه المبادىء وهذه المعتقدات وهذه الآراء التي لا يمكن تبريرها عند بعض الحدود فلسوف تلحق الأذى بمجد أمتنا وهيبتها. أن الأمبريالية التي هي في طريقها إلى السقوط والهزيمة في الشرق العربي، سوف تحل محلها أمبريالية جديدة. فإذا ما خضعنا إليها فلن نتمكن أبداً من الإفلات منها أو القضاء عليها. نحن نشعر بخطر التسلل الشيوعي في بلادنا العربية، كما أننا كشفنا تهديد أولئك الذين يزعمون أنهم من القوميين العرب في حين أنهم لا يمتون إلى العروبة بصلة ولا يعرفون ماهيتها».

«فعلينا أن نقضي على الفساد والدسائس بين صفوفنا. ولسوف لن نسمح إطلاقاً بأن تكون بلادنا مركزاً لحرب باردة يمكن أن تتحوَّل في أية لحظة إلى حرب حقيقية، إذا سمحنا نحن العرب للآخرين بأن يندسوا بين صفوفنا. اننا نؤمن بقوة وحزم، بحق بلادنا في الحياة فيجب أن تكون أسسها متينة وقائمة على ماضينا المجيد وعلى آمال المستقبل. اننا لا نستطيع أن نعد الدمار لبلادنا وشعبنا بفتح ثغرة للتسلل الشيوعي. هذه هي الآراء التي نحيلها إلى فخامتكم بوصفكم مواطناً ورئيساً للوزراء واننا لنأمل في أنكم وزملاءكم الوزراء سوف تتخذون موقفاً يؤمّن مصلحة هذا البلد ويضع حداً لدعاية وشغب أولئك الذين يودون أن يندسوا بين مواطنينا وان القوانين والنصوص التي تحكم البلاد حالياً سوف تزودكم بالوسائل اللازمة لهذه الغاية. كما أن وجدان الشعب سوف يمد لكم يد العون ويدعمكم في جهودكم».

عندما علمت بأن النابلسي قد استلم رسالتي، قمت بنشرها على الملأ. فاستقبلها بالترحاب والتأييد معظم أبناء الشعب الأردني، الفضلاء والمتدينون من الناس الذين يشكلون الهيكل الأساسي للبلاد. أما حكومتي فلم تكن من هذا الرأي. بعض الوزراء عمد فوراً تقريباً إلى الإدلاء بتصريحات إلى الصحف وإلى وكالات الأنباء الأجنبية ولا سيما إلى وكالة تاس وإلى وكالة الشرق الأوسط القاهرية. وفي بضع ساعات نشرت الصحافة مقالات حول النزاع القائم بين القصر والحكومة.

في اليوم التالي من استلام رسالتي، وهي حجر الزاوية لكل ما سيتلو من أحداث، التمس النابلسي مقابلتي. ووصل برفقة اللواء علي أبو نوار والريماوي وبعض الوزراء اليساريين الآخرين. كانوا يريدون أن (أخفف) من لهجة رسالتي.

قلت لهم: «لا تأملوا في ذلك. فإن ما كتبته لهو توجيهات سياسية تصح على الحكومة الحالية وعلى الحكومات التي ستعقبها».

إستغرقت المقابلة حوالي الساعة رفضت خلالها أي تنازل مهما صغر شأنه. وقد دارت المناقشة في جو من الهدوء المطلق. لأن النابلسي كان يعلم بأنه ما زال لديه ورقة اللعب الأخيرة. فقد كان يعتزم إجراء اتصالات ترمي إلى الاعتراف بالصين الحمراء وإنشاء علاقات دبلوماسية مع السوفيات. صحيح أنني أستطيع معارضة إجراءات كهذه، ولكن النابلسي كان يأمل في هذه الحالة في أن أتعرَّض من جديد للهجوم والاتهام بأنني (عميل امبريالي).

وهذا ما حدث بالضبط. فقد نشبت حركات تمرد نظمها بأسلوب علمي، سياسيون من المناوئين للنظام الملكي وعناصر من الجيش. ومرة أخرى رفضت قوات الأمن أن تتدخَّل. وخطب رئيس الوزراء سليمان النابلسي في جمهور لا يحصى عدده، احتشد في ساحة عمان الرئيسية، وكان واقفاً على يساره، عيسى مدانات أحد مثيري الفتن الشيوعيين المعروفين. أليس هذا موقفاً غريباً من رئيس حكومة لم يمض إلاّ بعض الوقت على استلامه رسالة تأمره بوضع حد للتغلغل الشيوعي؟

في الثامن من نيسان (أبريل) تأكد لي أن سرية مصفحات قد طوقت العاصمة واحتلت النقاط الستراتيجية. فلم يكن ليستطيع أحد أن يدخل المدينة أو يخرج منها دون أن يمر أمام مدافعها.

فأثار ذلك اضطرابي لأنه كان يعني أن خطراً وشيك الوقوع يهدد الأردن وأن القصر يمكن أن يتعرَّض للهجوم. كان علي أبو نوار يعد انقلاباً عسكرياً. فبعثت

استدعيه وأنا أبذل مجهوداً كبيراً في السيطرة على الغضب الشديد الذي كان يتملّكني. وعندما مثل بين يديَّ سألته: «ما معنى هذه البلبلة والفوضى؟» فأجابني بلهجة معسولة: «إنها عملية روتينية تتعلق بتفتيش السيارات التي تدخل إلى عمان أو تخرج منها».

لقد شقَّ عليَّ أن احتفظ برزانتي ووقاري! إزاء ما سمعته منه فاقترحت عليه بلهجة تتسم بالتودد وعدم الكلفة أن يسحب القوات. فقبل وانصرف. كنت عندئذ وحيداً، وحيداً حقاً. كان عليَّ، ولأول مرة في حياتي، أن أقرر وحدي أن أقرر لنفسي ولشعبي ووطني، وأن أقرر بسرعة. إن قراري سوف يلزم الأردن بأسره الذي ارتبط مستقبله بشخصي. لم أكن قد بلغت الثانية والعشرين بعد. كان الموقف يسوء من ساعة إلى أخرى. ولم يكن لديَّ إلاّ القليل من الأصدقاء القادرين على تقديم الدعم والمساندة لي. كانت الحكومة تناصبني العداء علانية.

في اليوم التالي سحبت السيارات المصفحة. ولكنني كنت أعلم بأن ذلك لم يكن سوى هدنة قصيرة الأمد. ثم حانت ساعة العمل.

في العاشر من نيسان (أبريل) دخلت إلى مكتبي وقلت للتلهوني رئيس ديواني: «هذا وقت عزل الحكومة».

أمليت كتاباً موجهاً إلى النابلسي ضمنته أمري بإقالة الحكومة حمل التلهوني الكتاب إلى مكتب رئيس الوزراء. كانت الوزارة مجتمعة عندما وصل. رجا التلهوني رئيس الوزراء أن يخرج. وعندما أصبحا وحيدين، نقل إليه مضمون الكتاب دون أن يسلّمه إياه خشية أن يستخدمه لأغراض الدعاية السياسية. عندئذ بعث الوزراء يستدعون علي أبو نوار رئيس الأركان وضابطين لاستشارتهم على ما يبدو. قال لهم عندئذ أبو نوار:

«عليكم بالاستقالة، لا لشيء إلاّ لأن الملك سوف لن يكون في مقدوره تشكيل حكومة بدونكم. قدموا استقالتكم! وسأعرف كيف أرغمه على استدعائكم».

بعد بضع ساعات وصل النابلسي إلى القصر وقدم لي استقالته وقد عني في كتابه أن يشير إلى أنه فعل ذلك «بناء على أمر جلالتكم». مؤملاً بلا شك أن يستغل ذلك فيها بعد.

في هذا المساء جاء لزيارتي خالي الشريف ناصر يرافقه أفراد آخرون من أسرتي. كان في غاية القلق من الاتجاه الخطير الذي اتخذته الحوادث، ولكن لم يكن يخطر في باله أن تمردا عسكرياً وشيك الوقوع.

لم يسلك طريقاً ملتوياً في أقواله بل صارحني قائلاً: ما كنت لأود أن أحدثكم بهذا الأسلوب المباشر يا صاحب الجلالة، ولكن يبدو أنه قد ضاع كل شيء. ومن خلال ما تحققت منه، يتراءى لي أنكم الآن قد ازددتم وحدة وانعزالاً. فهل نبقى ونقاتل أم علينا أن نحزم حقائبنا؟ ألا ترون أن من واجبنا أن نفكر في سلامة ومستقبل أسرنا وأن نحاول وقايتها من كل خطر؟

فرددت عليه قائلاً: «لا أريد الرحيل. يجب أن أبقى. وإنك تعرف بأنني أومن بما أفعل».

لم يكن ذلك من باب التصلب في الرأي. فقد كان لدي شعور بأنني أفهم شعبي وأدرك ما يريد. كنت مقتنعاً بذلك. لقد توصلت إلى إقامة علاقات وثيقة معه تتسم بالألفة ورفع الكلفة. وكنت مطمئناً بأنه في فترة الأزمات أو المنازعات تكون مساندته الأخوية لي مضمونة.

«قلت لا لخالي، لا أستطيع الرحيل. إنني هنا لخدمة شعبي وبلادي. وإنني مصمم على أن أفعل ذلك حتى النهاية. سأقاتل مهما كانت النتائج».

*** كـان الوضـع في الواقـع متوقفـاً على أحـد أمرين: إمـا أنتم أو هم. . . . وعندئذ انتهيتم إلى قضية الزرقاء.**

ـ لقـد كنا وقتئـذ في حوالي منتصف رمضـان، وهو بـالنسبة إلينـا فترة صـوم. كنت على يقين من أن الدمّل سينفجر قبل نهاية الشهر. كان الرهان في غاية الأهمية بحيث لم يكن من سبيـل إلى إخفائـه. وبدأت أخشى أن لا يتسنى لي شخصيـاً ولا للأردن أن نحتفل بالعيد الذي يشير إلى نهاية رمضان. . . إنني أذكـر اللحظة التي أحسست فيهـا بمخـاوفي الأولى. فقــد ذهبت إلى وادي الأردن لأسـتريـح بضـع سـاعات في مـزرعة الشريف نـاصر. ولما كـان محـرَّم تنـاول الـطعـام والشراب أو التدخين حتى الغروب خلال هذا الشهر الفضيل، فقد كنا جالسين بانتظار غروب الشمس، لتنـاول وجبة خفيفـة وتدخـين سيجارة. وبينـما كنا نتـذوق أول أقـداح الشاي، تساءلت فجأة:

«متى ينتهي كل هذا!؟».

كنت متـأكداً من شيء: سـوف أقاتـل حتى النهايـة من أجل شعبي. ولكن حكومة النابلسي وعناصرها اليسارية التي يؤيدها عبد النـاصر، كانت قـد تسللت إلى كل مكان تقريباً. كانت الدعاية والمناورات الرامية إلى تضليل الشعب في آرائه ومعتقداته تصل إلى سائر العالم العربي. كان عـلى الأردنيين، لكي يجـدوا عملاً أو يقدموا فحصـاً، أن ينتسبوا إلى حزب. فقد حلت قومية عبد الناصر محل القوميـة العـربية الحقيقيـة. كان الحـزب الشيـوعي ينـظم الاجتـماعـات والمحـاضرات في الساحات العامة وكان العلم الأحمر يـرفرف عـلى الرغم من الحـظر المفروض عـلى الشيوعية. كانت الأحزاب تخشى بعضها بعضاً وتوزع السلاح عـلى أعضائهـا كان

هنـالك سؤال حيـوي مع ذلـك قد بقي بـلا جواب: هـل الأغلبية السـاحقـة من الشعب التي كانت تتابع هذه الأحداث بالخشية نفسها، مـا زالت باقيـة في الجانب الأفضل رعاية لمصلحة الأمة؟ كانت الأحداث تتطور ببطء وبصـورة محتومـة نحو المجابهة. لقد ابتهلت إلى الله أن يحفظ بلدي وشعبي ودعوتـه أيضاً أن يهبني القـوة والصبر والأناة التي لا بدّ لي منها لكي أقدم خير ما في نفسي.

قبـل قليل من استقـالة النـابلسي في العاشر من نيسـان (أبـريـل) التقـطت مخابراتنا رسالة غير معقـولة! كـانت موجهـة إلى رئيس وزراء الأردن وموقعـة من الرئيس عبد الناصر وتقول: «لا تذعنوا. أبقوا في أماكنكم. ناصر».

لقـد بدأ اختبـار القوة. كـان عليٌّ، بمسـاندة العنـاصر السليمة من الشعب الأردني أن أجـابه العنـاصر التي كفّت عن الإخلاص لبـلادي. حاولت عبثـاً بـين الحادي عشر والثاني عشر من نيسان (أبريل) أن أشكّل حكومة جـديدة. فـطلبت أولاً إلى المرحوم الدكتور حسين فخري الخالدي، وهو وطني عربي كبـير من الضفة الغـربية، أن يشكّـل وزارة جديـدة. ولكن جهوده بـاءت بـالفشـل. فقـد ضمن النابلسي أن لا يتمكّن أي من خلفائه من تشكيل فريق حكومي جديد.

ولعلّ الثقة المتعجرفة لمعارضيّ يصورها هذا الحـديث الذي سمـع في ملهى ليـلي في عمان حيث كـان النابلسي وأعـوانه يقضـون سهرة مـع علي أبـو نوار قـائد القوات المسلحة. التفت رئيس الحكومة السابق نحو أصدقائه وسألهم:

- إلى من يئول تأييد الشعب؟
- إليكم.
ثم التفت نحو علي أبو نوار قائلاً:
- إلى من يئول تأييد الجيش؟
- إليكم يا صاحب الفخامة. أجاب اللواء.

ويسأل النابلسي متهكماً: من إذن يؤيد الملك؟

عندما عـدل الخالـدي عن تشكيل حكـومة، استقبلت عبـد الحليم النمر.

والنمر كالنابلسي كان عضواً في الحزب الوطني الاشتراكي وكان وزيراً في الحكومة السابقة. كنت آمل أن يكون قادراً على تشكيل فريق أقل ميلاً إلى اليسار. ولكن الوطنيين الاشتراكيين والمتعاونين معهم، أمسكوا عنه تأييدهم ما دام يرفض إدخال بعض أنصار الشيوعيين ضمن فريقه. وبديهي أنني لا أستطيع قبول هذا الشرط.

عندئذ اتجه فكري إلى سعيد المفتي. إلّا أن علي أبو نوار وأصدقاءه قرروا في غضون ذلك أنهم إذا لم يتمكنوا من الفوز بأن يرأس النابلسي الحكومة الجديدة، فمن المهارة والفطنة أن يتظاهروا بدعم النمر لكسب الوقت والتخلص مني.

كان ذلك في الثالث عشر من نيسان (أبريل). بلغت علي أبو نوار أنباء اتصالاتي بسعيد المفتي، فاستشار السلطات المصرية والسوفيتية في دمشق.

وعلى مهل، بدأ علي أبو نوار رئيس الأركان العامة يوجِّه المسرح السياسي. فيما بعد، وفي اليوم نفسه، قابل أبو نوار السياسيين من أصحاب اليسار، وتقرر أن يمنحوا تأييدهم لعبد الحليم النمر إلّا أن هنالك عائقاً كان ما زال قائماً: كانوا يعرفون بأنني قد رفضت قائمة الوزراء التي قدمها النمر، وفي وقت مبكر من بعد الظهر، استدعي سعيد المفتي إلى معسكر يقع على بعد بضعة كيلو مترات من عمان. وعند وصوله ووجه هذا الوطني بالعديد من كبار الضباط. وكان علي أبو نوار أول من تكلم قائلاً: «يجب أن تذهب فوراً إلى الملك وأن تقول له بأن الوضع في البلاد وفي الجيش متفجر بنوع خاص، واذكر له أيضاً بأنه إذا لم تشكل حكومة تستطيع أن تحوز رضا الشعب والأحزاب، حتى الساعة التاسعة مساء، فإنني وزملائي لن نكون مسئولين عما قد يجري من أحداث».

غادر سعيد المفتي الاجتماع دون أن يتفوَّه بكلمة، وقد استولت عليه الحيرة ولحقت به المهانة، وتوجه تواً إلى قصر بسمان لينقل إليّ رسالة العسكريين. قلت له بأن لا يقلق ولم أعتبره مسئولاً عن نقل أقوال بهذه الوقاحة. وبالطبع لن أذعن لهذه التهديدات. ولكني قررت من جديد أن أستدعي عبد الحليم النمر. وناقشت معه طويلاً موضوع تشكيل الوزارة. لم يكن عبد الحليم النمر متصلباً، حتى أنه اعترف

لي بأن له (أصدقاء) من العسير ارضاؤهم أو اقناعهم. كان يعتقد بأن الموقف لم ينته بعد إلى طريق مسدود. وأن التوصل إلى حل ما زال ممكناً. ثم انصرف وقد صمم على التحدث إلى رفاقه بهذا الشأن.

تطور الموقف بسرعة. فقد جاء علي أبو نوار إلى القصر وتحدث مع رئيس الديوان بحضور سعيد المفتي قائلاً بشكل خاص: «إذا لم يبلغ الجيش حتى الساعة التاسعة مساء بأن حكومة قد تشكّلت، فستغرق البلاد في مصاعب جسيمة ستكونون أنتم مسئولين عنها». وأضاف: «اعتبروا هذا البيان انذاراً نهائياً».

كان من الممكن تشكيل حكومة، ولكن طرأ حادث بدّد آمالي. فقد جاء من الزرقاء فريق من الضباط وبرفقتهم نجل أحد كبار زعماء العشائر في الأردن، وقدموا كتاباً مستعجلاً إلى رئيس الديوان ليرفعه إليّ.

فضضت الكتاب. فجعلتني كلماته الأولى أنسى كل ما يعتريني من غم وكرب ويأس. قرأت ثم أعدت قراءة أهم الفقرات وهي:

«إن ضباط الزرقاء الموالين المخلصين لجلالتكم قلقون من الطابع غير المألوف للتعليمات التي تصدر إليهم. لقد بلغنا بأن أوامر ستصدر لبعض الوحدات لتطويق عمان. يا صاحب الجلالة. إن شكنا وارتيابنا بمن يتولون قيادة الجيش في ازدياد مستمر. واننا لنلتمس من جلالتكم أن تأذنوا لنا بعرض الأوامر التي نتلقاها على جلالتكم، لتتحققوا من سلامتها».

وقد أشار الكتاب أيضاً إلى أن بعض الوحدات التي كان يقودها رجال موثوقون وموالون قد نقلت إلى مختلف المناطق في الأردن. وكنت على علم بهذه التحركات. كانت الكتيبة المدرعة المعسكرة في الزرقاء، بقيادة نذير رشيد أحد الأصدقاء المقربين لعلي أبو نوار. يضاف الى ذلك أن ابن عم علي أبو نوار، معن أبو نوار، كان يقود لواء المشاة (الأميرة عالية) في الزرقاء. كانت تخالجني بعض الشكوك في شخصه ولكنني كنت أكثر قلقاً من ناحية القادة الآخرين في الزرقاء، أكبر المعسكرات في البلاد.

جاء لمقابلتي في نفس الوقت تقريباً الشريف ناصر الذي كان يقود كتيبة المدرعات الأولى قبل أن يترك الجيش. قال لي: «يا صاحب الجلالة، ان ضابطاً يود التحدث إليكم سراً حول موضوع عاجل جداً وفي غاية الأهمية».

فرجوت خالي أن يُدخل فوراً هذا الرجل إلى مكتبي الخاص. كان عبد الرحمن سبايله ضابطاً أقدِّر اخلاصه إلى حد كبير. وقد اختير من قبل فريق من ضباط وجنود الكتيبة المدرعة.

سألته: « ما هو الموقف الآن؟».

وبصوت جهوري وعينين تشعان عزماً وتصميماً بدأ بالقول: «يا صاحب الجلالة، يوجد خونة في كل مكان. ولكن ليس في كتيبة المدرعات الأولى. كونوا واثقين بنا جلالتكم. إن ضباط وجنود الكتيبة يؤكدون لجلالتكم أرسخ الدعم والتأييد.

وتابع شرحه لما حدث قائلاً بأن قائد الكتيبة جمع بعض الضباط لاعطائهم الأوامر: كان عليهم أن يستعدوا للزحف على عمان لتطويق القصر الملكي والقبض على الملك. وكانت التعليمات تقضي بالرد على كل طلقة بقذيفة من عيار ستة أرطال إذا ما بدت أية مقاومة. لقد اختيرت كتيبة المدرعات الأولى لهذه المهمة. وقد وعدت بأن المجد سيكون من نصيبها. إلا أن الضباط تشاوروا فيما بينهم وأقسموا على البقاء مخلصين للملك وللبلاد، ثم أعلموا بذلك ضباط الصف والجنود الذين كانوا يثقون بهم. لقد قبلوا جميعاً بالتظاهر بمسايرة المتآمرين وقرروا اعلامي بالأمر وانتظار تعليماتي. فحمدت الله على أنه ما زال يوجد مثل هؤلاء الرجال في الأردن.

طلبت من عبد الرحمن أن يلتحق بوحدته وأضفت: «نبِّه أصدقاءك وزملاءك أن يحتاطوا لكي لا يكتشف أمرهم حتى اللحظة الأخيرة. وكونوا على اتصال فيما بينكم والله معكم».

أمعنت النظر بضع لحظات. كنت شديد القلق. لم أكن أخشى الموت.

فلطالما تعرضت له حتى لم يعد يخيفني. ولكن خوفي كان من أجل بلادي، من أجل شعبي، من أجل القوات المسلحة التي هي مصدر اعتزازي واعتزاز الأردن. طلبت إلى علي أبو نوار أن يجيء لمقابلتي. كان لابد من الاقدام على العمل قبل أن يزداد الوضع خطورة. وكنت أرغب في أن أضع الأمور في نصابها مع قائد القوات المسلحة.

أمعنت الفكر، وأنا أنتظر قدومه، في غرابة الطبيعة الإنسانية أية قوة تستطيع أن تبرر خيانة علي أبو نوار؟ كان هذا الرجل صديقاً لي. ولقد علّقت عليه أملاً كبيراً، ووضعت فيه كل ثقتي هل تغير لأنه استسلم للشيوعيين ومعاونيهم من المصريين؟ لم يكن ثمة شك في أنه كان يزداد خضوعاً لتأثيرهم وأنهم أمعنوا في خداعه وتضليله. ولكن هل كان هذا كل شيء، أليس هنالك قوة أخرى تحثه وتحرضه وتغريه، هذا الضعف الإنساني الكبير، ألا وهو ظمأ المرء إلى السلطة؟

كنت أعرف بأن الأردن إذا ما انهار، فسيكون ذلك أقوى ضربة تصاب بها القضية العربية منذ عصور طويلة جداً. فلسوف تهجم إسرائيل حتماً وستصبح الأقطار العربية، أو بالأحرى ما سيتبقى منها خاضعة لتحكّم الشيوعيين ومقسمة بين المنتصرين.

سيختفي عندئذ عائق هام جدي أمام المد الشيوعي وستهدد هذه الموجة سائر العالم العربي. حتى أن بعضهم كان يقول: «لتستول اسرائيل على الضفة الغربية فلسوف نستطيع استردادها بقيادة عبد الناصر ومساندة الشيوعيين». انظر ماذا حدث منذ عام ١٩٦٧!

كانت الساعة قد قاربت السابعة. ولم يكن قد غمض لعينيَّ جفن فعلاً منذ أسبوع. كنت أشتغل ليل نهار في مكتبي. دخل عندئذ علي أبو نوار. وكان يبلغ من العمر أربعة وثلاثين عاماً. بالغ الاناقة دوماً، بقامة معتدلة، وشارب فائق العناية. لم أستطع أن أكظم غيظي عندما رأيته. فأمرته أن يقدم شرحاً كاملاً لكل ما بلغني من أنباء بعد ظهر هذا اليوم.

وعندما شرع في الكلام، قرع جرس الهاتف. كان نداء مستعجلاً موجهاً لعلي أبو نوار. في الطرف الآخر من الخط، كان يقف ابن عمه معن، قائد لواء (الأميرة عالية). سمعته يتكلم بصوت يخنقه الخوف. امتقع وجه علي أبو نوار، وألقى نظرة خفيَّة نحوي، ثم صرخ في آلة الهاتف: «امنعهم بربك. أوقفهم بأي ثمن. ماذا تصنع المدفعية إذن؟ أين اللواء الحياري؟».

ميِّزت بوضوح تام صوت معن من الطرف الآخر وهو يضيف:

«لا أستطيع عمل أي شيء يعتقد أفراد اللواء بأن الملك قد مات أو أنه سوف يموت في هذه الليلة. لم يعد في وسع الضباط أن يسيطروا عليهم. إنهم يتجهون نحو عمان. ولن يستطيع إنقاذ الموقف سوى وجود الملك بينهم».

نظر علي إليّ. فانتزعت منه الجهاز وصحت: «سآتي». وأضفت من أجل علي أبو نوار:

«لا تغادر المكان. سأعود حالاً.

ثم خرجت من المكتب راكضاً، وقلت للتلهوني رئيس الديوان: «ابحث لي عن سيارة بسرعة».

في الرواق، قلت لمرافقيَّ العسكريين. وكان أحدهما ابن عمي زيد والآخر قائد حرسي الخاص: «اذهبا فوراً وقولا للقوات التي تتجه إلى عمان بأنني سليم معافى. واطلبا إليهم أن يعودوا إلى معسكراتهم. وسوف ألحق بكما».

ارتديت بزتي العسكرية وعدت إلى مكتبي، وقلت لعلي أبو نوار «تعال سنذهب إلى الزرقاء».

وثبت إلى سيارتي وجلست بجانب السائق. كان علي أبو نوار وخالي الشريف ناصر يجلسان في المقعد الخلفي. انطلقت السيارة باتجاه الزرقاء تتبعها سيارة قائد الجيش والمرافقين العسكريين لا أعتقد أن غضبي قد بلغ في حياتي من الحدة والشدة ما بلغه وقتئذ.

التقينا بشاحنة على جسر الرصيفة. توقفت السيارتان والشاحنة. كانت الشاحنة ملأى بالجنود والمدنيين الذين كانوا يطلقون صيحات غاضبة ويلوِّحون ببنادقهم وعصيهم. قفزت خارج السيارة فعرفوني. كان ذلك بالتأكيد إحدى اللحظات الأشد إثارة لمشاعر النفس في حياتي. فقد فاضت عيناي بالدموع. تعانقنا طويلاً. كانت انفعالات النفوس بالغة أقصاها. وكانوا يصرخون من كل جانب: «نحن في خدمتكم يا صاحب الجلالة».

ثم طلبت إليهم أن يعودوا إلى الشاحنة. لم أشاهد علي أبو نوار الذي كان مختبئاً في الجانب المعتم من السيارة. لم يكن يريد أن يعرفه أحد، فقد استبد به الرعب والفزع.

ورجاني قائلاً: «يا صاحب الجلالة: دعوني أعود إلى عمان».

ـ قلت لماذا؟

ـ قال: «لقد سمعت تهديدات بالقتل موجهة إلى شخصي. إن لي أسرة وأولاداً، فإذا ما تبعتكم، فلن أكون حياً في هذه الليلة».

فأمرت سائقي بإيقاف السيارة. كنت متقزز النفس قرفاناً مشمئزاً. وقلت لعلي أبو نوار: «أخرج. وعد إلى عمان. وانتظرني في القصر».

وهكذا، وبدون القائد العام لجيشي، تابعت سيري باتجاه المعسكر الذي وقع فيه التمرد. كنا نلتقي بمزيد من الشاحنات وبمزيد من الجنود الغاضبين ومن المدنيين وكنا نسمع طلقات النار التي كانت تشتد حدتها كلما اقتربنا من مدينة الزرقاء. كان الطريق مسدوداً بالحواجز وقد عمد بعض الضباط المسلحين إلى تهديدنا وتظاهروا باطلاق النار لعدم تعرفهم بعد على قائدهم الأعلى.

خرجت من السيارة وخاطبتهم قائلاً: «هذا هو أنا، الحسين، أن ملككم سليم معافى. إن حياتي ملك لكم. كل شيء يسير على ما يرام. عودوا إلى معسكراتكم. وسوف ألحق الآن بكم».

كان المشهد يتجاوز حدود الخيال. ولقد انقضت السنون على ذلك. ولكنني

ما زلت أذكر كل دقيقة، كل ثانية من هذه الليلة. كان بعض الجنود يعتمرون الخوذات. وكان بعضهم الآخر بلا أردية. لقد صفق الجميع. أما سيارتي الشيفروليه القديمة المسكينة، فقد كانت تتقدم وهي تتمايل في سيرها، ويهبط هيكلها كلما مرت على أية حصاة. كان سقفها قد أصيب بالاعوجاج. وكان الجنود الذين تعلقوا على مراقيها يرفضون النزول. فعمد خالي وهو من أبطال الرياضة ومن ذوي البنية المتينة إلى تقويم اعوجاج سقفها بدفعة من كتفه. وأنزلنا هؤلاء الركاب المشتعلين حماسة.

عندما وصلنا إلى الزرقاء، لم أجد أثراً لمرافقيَّ العسكريين. إلا أنني أنقذتهما بعدبضع لحظات بالقرب من مقر قيادة لواء الأميرة عالية. فقد أوقفهما بعض العسكريين الذين كانوا يرفضون تصديق ايضاحاتهما ويعتبرونهما من المتآمرين. كانا مرتبكين بعض الشيء عندما كشفت مكانهما.

كانت بعض الشاحنات التي كانت تحترق هنا وهناك، تعوق تقدمنا عبر المعسكر. وبالتدريج أعدت ترتيب مجرى الحوادث. فقد طلبت قيادة لواء الأميرة عالية إلى رجالها أن يستعدوا لمسيرة طويلة، لمناورة روتينية، بدون سلاح. ولكن الرجال كانت قد بلغتهم شائعات غريبة. فلم يعد من السهل انقيادهم، حتى أن صف ضابط سأل أمام رؤسائه: «وماذا سيكون مصير الملك في كل هذا؟».

تبع هذا السؤال فوضى لا توصف. فقد احتلت الكتيبة، ثم اللواء مخزن الذخيرة وحاصرا نادي الضباط الذين كانا يظنان بهم الخيانة، ثم اتجه رجالهما نحو عمان ليطلعوا على ما يحدث فيها ولقد وجدت فيها بعد قائد اللواء فاراً على الطريق وأخذته معي في السيارة. ولكن الأثم كان قد تم اقترافه.

بادر المتآمرون إلى العمل بسرعة. فقد استقدموا وحدات المدفعية وأوهموها بأن وحدات المشاة تتجه إلى عمان لتهديد الملك لم يصدق رجال المدفعية ما أوحي إليهم إلا أنهم اعتقدوا بأنهم يخفُّون إلى نجدتي إذا ما اندفعوا في أثر وحدات المشاة يلاحقونهم. وبدأت المعركة. كل جانب كان مقتنعاً بخيانة الطرف الآخر،

فاتجهت نحو مقر قيادة الفرقة حيث كان الجنود قد أتلفوا كل شيء في طريقهم، ثم إلى مقر قيادة اللواء. وهناك أيضاً كان كل شيء قد قلب رأساً على عقب، باستثناء صورة للأميرة عالية.

اعتليت سقف سيارتي، ثم ظهر دبابة، وجعلت أخاطب الجنود. كانت المدافع الرشاشة تدوي وكانت طلقات الرصاص تصفّر بالقرب من أذنيّ وكنت أشعر بحرارتها، حتى أنني كدت أفقد سلاحي من جراء التدافع الذي كان يفوق الوصف. ونجحت بصعوبة في مغادرة مقر قيادة اللواء على الرغم من رفض القوات أن تدعني أعبر الطريق.

كانوا يصرخون: «أنهم سيقتلونكم يا صاحب الجلالة. سوف لن تتحركوا من هنا!».

واستطعت أخيراً أن أذهب وأن أنفذ إلى خطوط المدفعية. ولم يكن الأمر سهلاً لأن القصف كان مستمراً من الجانبين. ولكن لحسن الحظ لم يحدث مكروه. كما أننا لم ننجوا من الموت، أنا ورفاقي في هذه الليلة إلا في آخر لحظة. فقد كان أحد الضباط المتمردين قد علم بقدومي فلغم جسراً صغيراً وانتظر أن أعبره لتفجيره. إلا أن رصاصة أصابته في الظلام فجرحته، ومرت سيارتي بسلام.

وعلمت فيما بعد أن علي أبو نوار، بدلاً من التوجه تواً إلى عمان، قد حاول أن ينفذ إلى المعسكر من باب خفيّ، ولكن لما اتجه فريق من الجنود نحو السيارة فضّل أن يعود من حيث أتى وأن يفر إلى قصر بسمان والأمل يداعب خياله بلا شك في أن يجده مطوقاً من قبل الكتيبة المدرعة. وقد قال لرئيس الديوان بأنني قد بعثت به لكي يطمئنه، هو ومساعديّ، بأنني بخير ويطلب إليهم أن ينتظروا عودتي.

أمضيت ساعات عديدة في الزرقاء. ولم أعد إلى عمان إلا في منتصف الليل بعد أن أعدت النظام إلى نصابه في كل مكان.

وعندما وصلت إلى القصر ارتقيت درجاته أربعا أربعا لكي أصل في أقرب

وقت إلى علي أبو نوار. كان قد سد المدخل الرئيسي عشرات من الجنود الذين قالوا لي بأن علي أبو نوار ينتظرني في مكتبي الصغير وأعلموني فوراً بالحوادث التي وقعت في القصر في غضون ذلك.

إذ عندما وصلت المدرعات حاول علي أبو نوار أن يخاطب الضباط، اعتقاداً منه بأنهم حلفاؤه. ولكن رقيباً أولاً صوب إلى بطنه مدفعه الرشاش وهو يسدد نظراته إلى عينيه وقال له:

«لو لم تكن في قصر الملك لكنت أحلتك إلى حساء باللحم. عد إلى المكتب وابتهل إلى الله أن يعيد الملك سليماً معافى ليستطع أن يقول لنا ما نصنع بك».

كان علي أبو نوار قد انهار انهياراً تاماً. وكان الجنود يتجولون في القصر وهم يصرخون: «لتسقط الشيوعية. الموت لأبي نوار وسائر الخونة!». كان يجب أن يرى المرء هذا المشهد المحزن: القائد العام لجيشي يسكب الدمع كالأطفال. إنه لأمر يبعث على الرثاء.

ماذا عليّ أن أصنع بهذا الرجل الذي كان صديقاً لي. عاد الماضي إلى ذهني بينما كنت أسمع كلمات التهديد الموجهة إليه. تذكرت رفيق الخير الذي كأنه فيما مضى عندما كنت أمضي به إلى مطاعم باريس. وخطرت ببالي أحاديثنا حول مستقبل الأردن وكل أنواع المشروعات التي استحوذت على قلوبنا. وها هو الآن يبكي بلا حياء. الدموع تنهمر على محياه والخوف على حياته قد استبد به.

قلت له: «ماذا تنتظر مني؟».

كان وجه اللواء أبو نوار ممتقعاً شاحباً. قال متمتماً متلعثماً أنه يريد أن أحميه.

«ولكن ماذا فعلت لتبرير ما أوليتك إياه من ثقة؟».

فتوسل إلي مرة أخرى أن أرأف به وأن أنقذ حياته. كل ما قاله لي كان كذباً، ولا شيء غير الكذب. أحسست فجأة بأنني متعب جداً فقد كان هذا

الأسبوع منهكاً بالنسبة لأعصابي. كانت تصرفات هذا الرجل الذي وثقت به هذه الثقة قد أمرضتني. كيف تستطيع الإنسانية أن تنجب مثل هذه النذالة والدناءة والخسة؟

لم أستطع أن أطاوع نفسي بالحكم عليه بالإعدام. ولقد وجهت إليّ انتقادات شديدة من جراء العفو الذي منحته إياه. فقد غدا فعلاً فور إطلاق سراحه عدواً لدوداً مدى سنوات.

كثير من الناس يعتقدون بأنه قد أخطأني الصواب من جراء الإبقاء على حياته ولكنهم نسوا عاملاً جوهرياً ليس له أي طابع شخصي ذاتي. انني لا أستطيع أن أعرف ماذا كان سيعني إسم علي أبو نوار في السنين المقبلة لو تم إعدامه. وليس لدي رغبة في أن أجعل منه بطلاً يميز فترة من تاريخ الأردن.

سألته من جديد:

- «ماذا تنتظر مني؟».

- فأجاب: هل أستطيع أن أذهب إلى إيطاليا لقضاء أسبوعين فيها ريثما تهدأ الأمور؟.

- قلت له: «أوافق على ذلك. أنك تستطيع الذهاب».

كنت أعرف أنه عندما يغادر الأردن فلسوف لن نراه مرة أخرى قبل مرور بضع سنين. ولم أخطىء في تقديري. فقد أمضى الليلة، ويا لسخرية القدر، مع سعيد المفتي الذي كنت قد طلبت إليه أن يتولى العناية به. وقد اضطر أخو سعيد الذي كان طبيباً، أن يعطيه مسكّناً. وفي اليوم التالي سافر علي أبو نوار مع أسرته إلى دمشق.

تجاوز الليل منتصفه، ولكن النوم لم يكن موضوع بحث. كان علي أن أنجز أمرين: تشكيل حكومة، ومخاطبة الشعب عن طريق الإذاعة، لإطلاعه على الأحداث الأخيرة. كانت محطة البث الرئيسية لدينا موجودة في القدس ولم يكن لعمان سوى جهاز بث صغير ضمن استوديو صغير أيضاً لا يغطي سائر المناطق.

لم تنته بعد المعوقات والمزعجات. وكان لا بد من بضعة أيام أخرى لإعادة النظام والاستقرار. حاولت أن أشكل حكومة خلال هذه الأيام المنهكة وهذه الليالي التي مرت بلا نوم. ولكن بدون جدوى. عينت قائداً عاماً للجيش، إلا أنه فرّ إلى دمشق. وتوقفت عن البث محطة الإذاعة الرئيسية في القدس، في لحظة عصيبة، لأن مديرها والأفراد الشيوعيين من موظفيها قد أغلقوها. جاءت وحدات الجيش، الواحدة تلو الأخرى لتقسم يمين الأخلاص والولاء للملك وللأردن. ولكن إذا كانت مظاهر إعادة التنظيم قد بدت تعود في الداخل فإن الضغوط الخارجية كانت مازالت شديدة فقد احتشدت القوات الإسرائيلية على الحدود الأردنية متأهبة للهجوم. وازدادت دعايات الأقطار المجاورة حدة وعنفاً بشكل خاص. وبينما كنت في صراع مع سائر هذه المشكلات غادر لواء مدرع سوري، تحت القيادة العليا للجنرال المصري عامر، غادر قاعدته في الشمال وطوق مدينة أربد تطويقاً كاملاً. وتساءلت: هل تنقضي مشاكلنا يوماً؟

كان يرابط في الأردن لواءان أحدهما سوري والآخر سعودي، منذ حرب السويس. لم يكن الرئيس السوري ولا القائد العام لجيشه على علم بهذه المناورة العسكرية. وكانا يجهلان أيضاً من أمر بإجرائها! ومع ذلك فقد أولاني الملك سعود تأييده ووضع تحت قيادتي القوات السعودية المعسكرة في الأردن. كان لواء جيداً. وقد بذلنا غاية ما في الوسع لنجعل منه قوة جد فعالة.

في اليوم التالي للمناورة التي ألغيت بسرعة، غادر القائد العام الجديد للجيش الأردني عمان، لمقابلة زميله السوري على الحدود بين البلدين. فقد كنت قد عينت اللواء الحياري ليخلف علي أبو نوار. وكان قراراً خاطئاً إذ بعد أن أقسم اليمين، ذهبت لأستريح بضع ساعات. كانت أول سنة من النوم أنالها منذ أيام عديدة. وأوليت إدارة الأمور لخالي الشريف ناصر. لقد كنا قد ألفنا الأنباء التي تبعث على الدهشة والحيرة، إلى الحد الذي لم يكلف خالي نفسه أمر إيقاظي وإعلامي عندما بلغه أن اللواء الحياري قد لجأ إلى سورية. كانت الساعة قد بلغت السابعة صباحاً، عندما دخل الشريف ناصر غرفتي. وكان الحياري قد

غادر البلاد منذ عدة ساعات. حياني بتحية الصباح فحييته بمثلها وسألته هل من جديد؟

ـ لا شيء ذو طابع خاص يا صاحب الجلالة. إلا أن القائد العام لجيشكم قد فر إلى سورية!

ـ لماذا لم توقظني؟

ـ لم أكن أعتقد أن أمراً كهذا يستحق هذا العناء.

انفجرت ضاحكاً لأننا كنا على علم بأن الحياري كان متورطاً كعلي أبو نوار في المؤامرة، وأنه بالإضافة إلى ذلك كان ضعيفاً. ولم أعينه قائداً عاماً إلا لأنه لم يكن يوجد أحد غيره. كان هدوء خالي قد شرح صدري وشدد من عزيمتي إلى أقصى الحدود.

لقد فكرت بأن «الأمور على كل حال لا يمكن أن تغدو أسوأ مما هي عليه».

عندئذٍ عينت على رأس جيشي الجنرال حابس المجالي الذي كان صديقاً قديماً يتمتع بثقتي المطلقة.

ومع ذلك كان عليَّ أن لا أنسى الحياة السياسية. إذ ما لبث أن تم إعداد فريق حكومي جديد. فقد عينت الدكتور حسين فخري الخالدي رئيساً للوزراء كما أن النابلسي نفسه قد عينٍ وزيراً. ولكن التوتر الداخلي الذي تبعته مظاهرات الشارع، أضعف الحكومة بسرعة. وفي القدس، كان المحرض الشيوعي يعقوب زيادين، عضو مجلس الأمة، يهدد بتدمير وحرق الأماكن الإسلامية والمسيحية التي كان يسميها (أفيون الشعوب) بواسطة الأشرار من المخربين، إذا لم يعمد الشعب إلى التظاهر ضد الخالدي.

وعندما جاءني الخالدي لتقديم استقالته، وكانت عيناه ملأى بالدموع، قال لي: «عندما فقدت أبويّ، لم أذرف دمعة واحدة. ولكن اليوم، أمام فقدان بعضهم للشعور بالمسئولية وانعدام وعيهم. وإزاء الشرور والأضرار التي يتسببون

بها لبلادي وشعبي فانني لم أستطع أن أتمالك نفسي. لقد أعددت مع ذلك كل شيء في حالة إعلان الأحكام العرفية. فالموقف يستلزم ذلك. ويبدو أنه هو الخيار الوحيد. أرجو لكم يا صاحب الجلالة حظاً سعيداً، وأشكركم جزيل الشكر على ثقتكم.

شكرته على كل الجهود التي بذلها. كان هنالك سياسيون آخرون، ينتظرون في ديواني، كنت قد استدعيتهم، وكانت الساعة تقارب العاشرة مساءً. كان بينهم صديق قديم هو إبراهيم هاشم الذي اغتيل في العراق بأسلوب جبان نذل. وسليمان طوقان وسمير الرفاعي الذي كان قد تقلد منصب رئيس الوزراء مرات عديدة. لم يكن الوقت مناسباً لإلقاء الخطب. شرحت الموقف ثم أضفت: «أيها السادة، ليس في الموضوع التماس وإنما أمر. لقد قمنا بإجراء سباق مع الشمس ضد ساعة حساب الوقت. إذا لم تتشكل حكومة غداً عند الفجر فلسوف تكون نهاية الأردن. نحن في حاجة إلى السيطرة على الموقف بحزم ولا أستطيع أن أفعل ذلك لوحدي. هذه البلاد بلادكم. تذكروا أنكم قد بنيتموها بسواعدكم وعرقكم. ليس الآن وقت للتردد».

تشكلت حكومة في فترة قياسية برئاسة إبراهيم هاشم. كانت محطة الإذاعة جاهزة لإذاعة رسالتي إلى شعب الأردن. أعلنت الأحكام العرفية ووضعنا القوات المسلحة على أهبة الإستعداد بصورة مؤقتة، وحظر نشاط الأحزاب السياسية.

استطعت أخيراً أن أخطو بعض الخطوات أمام القصر وأن أستنشق هواء الصباح البارد النقي. فقد عاد السلام إلى الأردن وفرَّ الخونة. آويت إلى فراشي في الساعة العاشرة صباحاً. لقد فقدت كل مفهوم للزمن، في الليل وفي النهار على السواء. استغرقت في النوم طويلاً، ولكن قبل أن أستسلم للرقاد، حمدت الله على نعمائه. فالأردن سوف يعود إلى الحياة من جديد.

بدأ شهر رمضان يقترب من نهايته. وانني أعتقد بأن الشعب بأجمعه قد حمد الله على أنه قد وقى بلادنا وصانها. فقد كان وجودها مهدداً تهديداً خطيراً. طوال

هذا الشهر الفضيل. وهكذا انتهت هذه المرحلة الحرجة من حياتنا. لقد اكتشفت فيها بعد أعلاماً جديدة تمثل «جمهورية الأردن». فقد عثرنا على نموذجين منها في مكتب علي أبو نوار. كانت ثقته بالنصر قد بلغت حداً جعله لا يكلف نفسه عناء إخفائهما. ومن البديهي أن المؤامرة كانت موجهة من الخارج، وكان هدفها النهائي، بعد اغتيالي، هو إنشاء نوع من الإتحاد الفدرالي مع مصر، وتحويل الأردن بذلك إلى دولة تابعة لروسيا السوفياتية على افتراض أننا قد نجونا من التدمير.

مضت سنون عديدة على هذه الفترة. ولقد قيل وكتب الكثير حولها. بعضها صحيح وبعضها الآخر خطأ. الجميع، جميع المذنبين قد عفي عنهم. غدا النمر مالكاً لمزرعة واستقام غير بعيد عن عمان. عمد معن أبو نوار إلى دراسة العلوم السياسية وأصبح مواطناً نموذجياً. وهو الآن سفير للأردن في بريطانيا العظمى. انتهى علي أبو نوار بالعودة إلى الأردن، بعد أن قام (برحلات) طويلة في الأقطار العربية التقدمية. وقد عمل بلا انقطاع وكان طوال السنوات الثلاث الأخيرة سفيرنا في باريس. ويتولى الحياري الآن وظائف هامة في الإدارة الأردنية.

يصعب على المرء اليوم أن يعتقد بأن مؤامرة أعدت بهذه الدقة والاحكام، قد انتهت بالفشل. ولكن المحرضين عليها، والذين كانوا يودون أن يدفعوا بالأردن إلى الدمار، قد نسوا عنصراً هو أكثر العناصر أهمية، وأعني به الشعب الأردني.

* ومع ذلك لم يكن يحفّ بكم سوى الأعداء. متى تم إنشاء الاتحاد العربي؟

ـ بعد زمن قصير، في الرابع عشر من شباط (فبراير) ١٩٥٨، قرر العراق والأردن تحقيق الاتحاد العربي أثر موافقتهما على ميثاق دستوري مشترك. كان هذا الحدث التاريخي يكرّس جهودي وسنوات الكفاح من عمري. وكنت أرجو أحر الرجاء أن يطبع هذا الحدث بطابعه بداية عهد جديد للقضية العربية. كان اتحادنا المؤسس على المساواة المطلقة، يشكل النموذج والحجر الأول الذي يجري إرساؤه في سبيل تحقيق وحدة عربية موسعة، تنقصنا الآن بصورة تبعث على المرارة والألم.

ولكن ويا للأسف، كان هذا أكثر مما يستطيع أن يحتمله بعض الحكام العرب. إذ بعد خمسة أشهر من توقيع المعاهدة، اغتيل بوحشية ابن عمي فيصل. ولم يعد اتحادنا العربي سوى حلم منهار. أما المسئولية بأكملها لما جرى، فتقع على عاتق الرئيس عبد الناصر، لسبب بسيط: وهو أن اتحادنا كان يشكل مثلاً أعلى في العلاقات بين شعبين شقيقين. كانت مصر وسورية قد أنشأتا قبل أسبوعين الجمهورية العربية المتحدة. وبينما كان العراق والأردن شريكين متساويين في الاتحاد العربي، كانت مصر تستعبد سورية في الجمهورية العربية المتحدة. فأدرك عبد الناصر فوراً التوازن المثالي للطريقة التي انتهجناها، هذا التوازن الذي كان ينقص ما اعتمده من أسلوب. وإنني أعتقد أيضاً بأنه كان لديه ما يكفي من الفطنة والدراية لكي يفهم أنه إذا ما أجريت مقارنة بين تجربتينا، فإن التجربة التي تخصنا ستكون حتماً أشدّ فعالية وأكثر واقعية بمراحل. فالعراق بثرواته النفطية على شواطئ الخليج التي كان عبد الناصر يطمع فيها، يعتبر أحد أقوى الدول في العالم العربي. فاتحاده مع الأردن من شأنه أن يضع حداً للحلم الذي طالما داعب خيال عبد الناصر وهو: أن يجعل من الجمهورية العربية وحدة جغرافية. ذلك لأن

حدود الاتحاد العربي الجديد الذي يرتبط بميثاق للدفاع المشترك، تمتد من سيناء، إلى الكويت. ولما كان عبد الناصر يعلل نفسه بالأمل في أن يبتلع الأردن يوماً لكي يجعل منه جسراً بين سورية ومصر، فقد جاء اتحادنا يعرقل طموحاته ويشكل سداً طبيعياً في مواجهة تصاعد الشيوعية في العالم العربي، لا سيما أن الملك فيصل وأنا، كنا أحفاد الزعيم الهاشمي الكبير الشريف حسين الذي رفع راية الثورة العربية ضد الأتراك خلال الحرب العالمية الأولى. لقد جرى تتويجنا في اليوم نفسه وكنا نؤمن بحماسة بالغة، بحرية العرب الحقيقية التي ناضل جدنا من أجلها. ثم سنحت لنا فرصة الإثبات للعالم العربي كيف أن نظام حكم دستوري ديموقراطي يمكن أن يطبق على بلدين تقدميين.

ما أكثر الآمال الكبار التي كانت تملأ قلبينا في صباح هذا اليوم الرابع عشر من شباط (فبراير) عندما كان علمنا الجديد، الأسود والأبيض والأخضر، يرتفع صاعداً نحو السماء! لقد عملت بلا انقطاع من أجل وحدة بلدينا. ولو كان الأمر لا يتعلق إلاّ بي وحدي، لكان الاتحاد قد ولد منذ مدة طويلة. عندما عانقت فيصل تبادرت إلى ذهني أولى كلمات خطابي الذي أذعته بالراديو وهي: «هذا هو أسعد أيام حياتي انه يوم عظيم في التاريخ العربي. لقد اتحدنا في ظل علم واحد، في ظل راية العروبة التي حملها دائماً جدنا الأكبر الوقور الحسين بن علي الكبير، خلال الثورة العربية الكبرى».

ولقد قبلت بسرور تعيين فيصل على رأس الاتحاد وأن تصبح بغداد وعمان عاصمة على التوالي. كل منهما لمدة ستة أشهر. كان الاتحاد مفتوحاً لكل بلد عربي يرغب في الانضمام إليه. كان لا بدّ من توحيد السياسة الخارجية والمالية والتربية والتعليم والتمثيل الدبلوماسي لبلدينا في الأشهر المقبلة، على أن تحافظ مع ذلك كل دولة على وجودها المستقل، وسيادتها الإقليمية والنظام القائم فيها.

لقد درست في مطلع ولايتي الملكية نوعاً من الاتحاد القومي على أساس ميثاق بغداد. ولكن آمالي تلاشت عندما رأيت بأية سرعة وقِّع الاتفاق الذي لم يشتمل إلاّ على العراق فقط. بينما كانت الحكمة تقضي بإعداد ميثاق دفاعي يضم

سائر البلاد العربية. فالأردن بصفته شريكاً في الاتحاد العربي لم يبرم ميثاق بغـداد. ولكنني كنت مدركاً بأن اتحادنا سوف يدعم دعماً قوياً خـطنا الـدفاعي ضـد بعض البلاد التي كانت تؤيد التغلغل الشيوعي في العالم العربي.

كل شيء لم يتم بالطبع بلا مشقة. فقد برزت صعوبات لا مفـرّ منها عنـدما اتحدنا تحت علم واحـد. بعض هذه الصعـوبات نجمت عن المشـاكل التي كـانت تـواجه فيصـلاً. كان ابن عمي ورفيق دراستي في هـارو مقـربـاً إلى نفسي. فتبينت الأمنية التي أعرب عنها عبد الناصر في عام ١٩٥٥ إذ قال: «إنني أتمنى له الكثير من النجاح وأعلق عليه آمالاً كباراً». ولكن فيصلاً كان يعيش مأساة. فلم يستطع أن يحقق أيـة من رغباتـه ومشروعاتـه، ولم تعط له الفـرصة إطـلاقاً ليـمارس شخصيـاً مسئولياته. وعندما أفكر في اليوم الذي وقعت فيه معاهدة الاتحاد، يعـود إلى ذهني الكثير من الذكريات التي أعتقـد بضرورة الكشف عنها. لا لشيء إلاّ للدفـاع عن ذكـرى صديقي وأخي في الـدم، فيصل. إن الحـوادث التي سـأرويهـا قـد سبقت اغتيال ابن عمي، إذ لم يحمل الحكام العراقيون على محمل الجد تحذيراتي المتكررة، كما أن فيصلاً كان عاجزاً أو غير قادر على أن يفصل في أمر أو أن يقوم بعمل.

عندما كنت في هـارو، كنت أحب أن أتمتع بحـريتي. وكانت تقلقني رؤيـة فيصـل مخنوق الإرادة، لا يتمكن من التصرف منفـرداً فكأنـه كان واقعـاً في شرك نصب له. وليس في نيتي أن أنحي باللائمة عـلى الجيل القـديم من الساسـة الذين تولوا تربيته، ولكنني لا أستطيع تجنب ذكر بعض عدم التوازن في علاقاته مع خاله ولي العهد، الذي اغتيل إلى جانبه خلال مذبحة بغداد.

*** إن فيصلاً غير معروف معرفة جيدة من الغرب. فهل تستطيعون أن تحدثونا عنه أكثر قليلاً؟**

- عين ولي العهد، الأمير عبد الإله وصياً بعد وفاة والد فيصل، الملك الشعبي غازي الذي توفاه الله على أثر حادث سيارة. كان فيصل ما زال بعد طفلاً. فسيطر ولي العهد على المسرح السياسي العراقي طوال سنوات ريثما يبلغ ابن عمي سن الرشد ويتمكن من ممارسة سلطاته الدستورية. كانت البلاد بأسرها تبتهل إلى الله لكي يصبح ملكاً في أحد الأيام. ولكن حتى في هذا اليوم لم يطرأ على الأمر أي تغيير يذكر.

كان ولي العهد قد عمل الشيء الكثير للعراق. ولكن تأثيره على فيصل كان من العمق بحيث بقي الرئيس الفعلي. وعلى الرغم من أنه لم يكن يملك الكثير من الشعبية، إلاّ أنه كان يتمتع بسلطة واسعة، احتفظ بها حتى آخر يوم من حياته. ولعلّ مما يؤسفني جد الأسف، أنني شخصياً لم أكن مع ولي العهد، على صلة ودية ولئن كانت تقاليدنا شديدة الدقة فيما يتعلق بالاحترام الواجب الإعراب عنه لكبار السن، إلاّ أنه كان يصعب عليَّ أحياناً أن أتقيد بها. وتعود برودة العلاقات بيننا إلى حادث وقع في ساند هيرست.

عندما كنت تلميذ ضابط، كان الملك فيصل يشغل داراً في مدينة ستين يستخدمها في رحلاته إلى بريطانيا العظمى. جاء في أحد الأيام لزيارتي في ساند هيرست، بصحبة ولي العهد. وأعتقد أن ذلك كان يوم سبت، لأنني كنت في إجازة وكنت قد اعتزمت الذهاب إلى لندن. ولكن في لحظة المغادرة سألني:
«لماذا لا تأتي معنا إلى ستين لتناول الشاي؟ إنك تستطيع أن تذهب بعدئذ

إلى لندن إذا شئت».

قبلت الدعوة وانطلقنا معاً. كان ولي العهد يقود السيارة بنفسه وكان المرافق العسكري الذي كان قائداً للحرس الملكي العراقي أثناء الانقلاب، يحتل المقعد الأمامي الآخر. وكنت أنا وفيصل نجلس على المقعد الخلفي. وكانت سيارتي تتبعنا.

نشب شجار في الطريق بين فيصل وخاله. لم أستحسن إطلاقاً أن يحدث مثل هذا الخصام أمام المرافق العسكري وبحضوري ولكنني جاهدت نفسي لكي أكظم غيظاً كان يتعاظم ثم توقف النزاع لحسن الحظ.

كنا على مقربة من ستين عندما سأل فيصل ولي العهد: «ألا نستطيع أن نسلك طريقاً منحرفاً يا خالي. يوجد فيلم تصور مناظره غير بعيد من هنا. وستكون رؤية الكيفية التي يجري فيها العمل هنالك، مدعاة للبهجة والسرور».

لم يتنازل ولي العهد حتى بالإجابة. أصبت بالذهول، لأن فيصلاً كان ملكاً للعراق على كل حال! إستشاط عبد الإله غضباً من جديد بدون سبب مبرر. وجعل يشتم الملك ويوبخه ويعنّفه كما لو كان صبياً غير مؤدب.

فقدت عندئذ رباطة جأشي، وزايلني هدوء أعصابي وانفجرت قائلاً: «خففوا السرعة إذا سمحتم. إنني آسف لحضور هذا الشجار العائلي. وإنني لا أستطيع أن أحتمل أكثر مما فعلت. وإنني أقل استعداداً أيضاً لمعاودة سماعكم. توقفوا من فضلكم».

تسمّرت السيارة في مكانها. وخرجت دون أن أتفوه بكلمة. وأغلقت الباب بشدة. وانتهت حفلة الشاي إلى هذا الحد. انتظرت سيارتي وذهبت إلى لندن. ربما كنت عنيفاً بعض الشيء، ولكن صبري قد نفد. لقد ثقل عليّ تراكم هذه المنغصات التي كان يكابدها ابن عمي الذي أحببته كأخي.

وإنني لعلى اعتقاد بأن ولي العهد، لم يغفر لي أبداً ما حدث. خلال الفترة

التي ازداد فيها مرض والـدي سوءاً، وكـان مستقبل الملكيـة مزعـزعاً، كـان الأمير موجوداً في عمان فأسرَّ إلى رئيس الوزراء قائلاً: «مهما حدث لا تدعوا الحسين يعتلي العرش، على الأقل ليس في وقت مبكر».

ـ فسأله رئيس الوزراء لماذا؟

ـ فـأجاب الأمـير: إنه ليس أهـلاً للمسئوليـة. ويجهل كـل شيء عن جلال الملك ووقـاره». وأضاف إلى ذلـك شكاوى أخـرى. ولكن رئيس الـوزراء لم يعـر ذلك أقل أهمية. وإنني لأذكر أيضاً حادثاً آخر أخرجني عن طوري.

كنت في رحلة إلى بغـــداد. وكـان فيصـــل يـــطوف معي في زيـــارة لقصره وملحقاته. كنا نتقدم الموكب. وكان فيصل يقود سيارة رياضية الطراز صغيرة قديمة العهد على ما أعتقد، بينما كان ولي العهـد والشخصيات الأخـرى يقتفون أثـرنا في سيارات رولس رويس فخمة من أحدث طراز.

سألته: «لماذا لا تملك سيارة أكثر لياقة؟».

فرفع فيصل كتفيه ولم يحر جواباً. بلغت مني الحيرة والاضطراب حداً جعلني عنـد عودتي إلى مقـر إقامتي، أن أتصـل هـاتفيـاً بموريس رينـور في عـمان قـائـلاً: «أرجوك أن تأتي بسيارتي الجديدة من طراز أوستن مـارتن. فقد أهـديتها إلى الملك فيصل».

هذا الحادث وحـوادث أخرى تلتهـا لم يكن في مقدورهـا بالـطبع أن تـدعم علاقاتي بولي العهد. لقد رويتها لك لأشرح سبب وجود هـذا التباعـد بين فيصـل وشعبه. كان لا يستطيع التصرف إلاّ بإذن. وهذا الإذن لم يمنح له دوماً.

هذه الأمثلة توضح أيضاً الأسباب العميقة لبعض الصعـوبات التي جـابهتنا عنـد إنشاء الاتحـاد العربي. كـانت المحادثـات التمهيديـة بيني وبين الملك فيصـل تجري في عمان ضمن أفضل الشروط والظروف. فقد وافق فيصل مثـلاً أن نترأس الاتحاد العربي نحن الاثنين بالتناوب. وعندمـا وصل ولي العهـد برزت الأحـداث

الأولى. بدأ يعارض اتفاقنا بشدة. وخلال ليلة كاملة، كانت إحدى أطول الليالي التي استغرقتها مفاوضاتنا، أذكر أننا تشاجرنا حتى تم التوصل إلى هذا الخيار: اما أن يتزعم الملك فيصل الاتحاد دون تناوب، أو أن صيغة التناوب يجب أن تؤمن للعراق عدداً أكثر من النواب في البرلمان المشترك.

كان فيصل منقبض النفس. أما أنا فلحقت بي إهانة. ولكن الأمر الجوهري كان إيقاف الاتحاد على قدميه. فأعلنت عندئذ: «إن وضعي الشخصي لا يهمني إلّا قليلاً. ولكنني لا أستطيع أن أقبل الاضرار بمصالح شعبي. يجب أن يكون للأردن من الأعضاء في البرلمان عدد مساوٍ لما للعراق فيه. فالاتحاد يجب أن يؤسس على المساواة».

وعندئذ اتفقنا. وبفضل هذا التنازل أصبح الملك فيصل هو الرئيس للاتحاد. وهكذا ولد الاتحاد العربي.

لقد أعرنا بالطبع الكثير من الأهمية لموقف عبد الناصر إزاء الاتحاد الجديد. في مطلع الأمر بدا مؤيداً وبعث بتهانيه إلى الملك فيصل حتى قبل أن يعود الأخير إلى بغداد. وقد وصف الاتحاد «باللحظة المباركة» التي انتظرها العالم العربي بفيض من الأمل وقال بأن شعوره العميق هو أن شباب وإيمان وإخلاص فيصل سوف تساعد كثيراً على تحقيق حلم العرب الكبير في الوحدة. وأن القومية العربية فخورة بالخطوة التي تم إنجازها في عمان وأنه واثق من أن ما استجد من أحداث في هذه الأيام الخالدة بالنسبة إلى الشعوب العربية لتبشر ببزوغ فجر الوحدة الكبرى. واختتم عبد الناصر كلمته قائلاً: «إنني أهنئ جلالتكم من كل قلبي. وأرجو الله أن يسدد خطاكم في طريق النجاح وأن يبارك شعبكم العظيم».

حوّل الملك فيصل الرسالة إلي وسألني رأيي فيها. لقد حملتني البرقية على الابتسام فمنذ الأيام العنيفة التي ثارت فيها الفتن وحوادث الشغب بمناسبة حلف بغداد بتحريض من عبد الناصر وأنا أبذل ما في وسعي للتوفيق بيننا. وخلال غزو السويس، لعب الأردن دوراً كبيراً في حث العالم العربي على الوحدة. وكنا أول من ساند عبد الناصر عندما أممت قناة السويس، وأول من دعا إلى اتحاد العالم

العربي لدعم عبد الناصر، بعد هجوم إسرائيل والأقطار الغربية على مصر. كما أننا كنا أول المقاتلين في حرب عام ١٩٦٧. ولقد عملت مع الرئيس اللبناني كميل شمعون على الإعداد لمؤتمر تجتمع فيه الدول العربية لتأييد مصر. كانت مهمة في غاية الصعوبة آنئذٍ، أن نجمع شمل العالم العربي للوقوف إلى جانب قضية عبد الناصر.

هذه الذكريات عادت إلى ذهني عند قراءة البرقية. فعبد الناصر كان يعرف الجهود التي بذلها الأردن لتحقيق الإتحاد، فلم يبعث إليّ بتهانيه. وكنت أعرف بالطبع لماذا.

كان «نسيانه» يدل على أنه لا الأردن كبلد، ولا الحسين كملك قد أصبح لهما أهمية في نظره بعد الآن. كان عبد الناصر يتوقع أن يسيطر العراق على الأردن. كان عاجزاً عن فهم أننا كنا شركاء أحراراً متساوين. ومرت السنون منذ ذلك العهد، فقد مات فيصل وعبد الإله، وتوفي عبد الناصر وآخرون غيره. أما الأردن فما زال واقفاً على قدميه.

إليك الآن كيف بلغنا نبأ الإنقلاب العسكري الذي أثير في العراق وكيف أننا لم نتمكن من أن نقنع العراقيين في أن يحملوا تحذيراتنا على محمل الجد. إنها قصة ذات طابع مأساوي بالغ.

لقد حذرت شخصيات ابن عمي فيصل من هذا الخطر المهدد قبل اليوم المحتوم. فقد جاءتنا أول الظنون والشكوك على أثر اعتقال عميل ناصري يدعى أحمد يوسف الحياري. وهو أردني من رجال كتيبة المدرعات الرابعة. كان أحمد يوسف يعتزم اغتيالي واغتيال خالي الشريف ناصر في الوقت نفسه وكذلك بعض المسئولين الآخرين عن طريق إلقاء قنابل خلال احتفال عام كان عليّ أن أترأسه. وعند اعتقاله أدلى باعترافات كاملة وأبلغ عن انقلاب عسكري تعده الجمهورية العربية المتحدة يفترض وقوعه في العراق والأردن في منتصف تموز (يوليو). ولقد وفرت لنا المعلومات التي تم الحصول عليها فيما بعد، تفاصيل المؤامرة وأسماء بعض المحرضين. كان المفروض أن تقع المؤامرة في كل من بغداد وعمان في آن

واحد. وكان أول رد فعل لديّ هو تحذير ابن عمي فيصل. فاتصلت به هاتفياً وقلت له: «لدي معلومات هامة لإبلاغكم إياها حول (انقلاب عسكري) يدبر في العراق. كونوا حذرين متيقظين».

ـ سألني: بماذا تنصحونني؟
ـ فأجبت: «إبعثوا لي أحداً، يكون شخصية هامة، ولسوف أعطيه سائر التفصيلات، ولكن إفعلوا بسرعة».

شكرني الملك فيصل وبعث إليّ بالفريق رفيق عارف القائد العام لقوات الإتحاد العربي الذي وصل بالطائرة. لم يكن ثمة وقت يمكن إضاعته إذا ما أريد اكتشاف المتآمرين في الوقت المناسب. أدخل عليَّ الفريق عارف فور وصوله إلى عمان. وانني ما زلت أذكر المشهد: كان معي رئيس الديوان ورئيس الوزراء والفريق عارف، والقائد العام للقوات الأردنية. قدم ضابط من المخابرات لعارف بتأن وبدقة التفاصيل والإثباتات التي تمكنا من جمعها. كنت من وقت إلى آخر ألقي على الفريق عارف نظرات خفية. كان يبدو عليه السأم والملل. وفي ختام الحديث، تمطى وضحك هذا الضحك المرح الفكه المعهود لدى كل العرب وقال:

«يا صاحب الجلالة، اننا جد ممتنون لجلالتكم. وانني أقدر جهودكم. ولكنني أريد أن أؤكد لكم بأن الجيش العراقي مؤسس على تقاليد متينة، وهو على كل حال يعتبر أفضل جيش في الشرق الأوسط، فهو لم يعرف المشاكل ولا التغيرات التي طرأت حديثاً على الشرق الأوسط». وتوقف لحظة ليلتقط أنفاسه ثم قال: «لدي انطباع بأن الأحرى بنا نحن أن نقلق على مصير الأردن. فهذا الانقلاب يهدد بلادكم فعلاً وليس بلادنا. فأرجوكم أن تراعوا جانب الحذر والحيطة».

ـ فصحت به: ولكن لا بد لك من أن تفهم خطورة الموقف والتهديد الذي يلقي بثقله على العراق أيضاً.
ـ فأجابني: أؤكد لكم بأنني فهمت. ولكنني أشك في ذلك.

ـ ورجوته قائلاً: عدني على الأقل بأنك سوف تطلع الملك فيصل والسلطات على كل الوثائق التي أبلغناك إياها.

ـ أعدكم يا صاحب الجلالة بأن الملك والحكومة سوف يجري إبلاغهما.

ثم غادر الفريق عارف بعد أن فاه بهذه الكلمات. لقد فعلت كل ما كان في وسعي لتحذير ابن عمي وإبلاغه. عاد الفريق عارف إلى بغداد قبل أربعة أيام من يوم الإثنين الفاجع. كنت وحدي مع شكوكي وظنوني أبتهل إلى الله وآمل من كل قلبي أن يكون جزعي وقلقي واضطرابي لا أساس لها. وأن يكون الأمر مجرد إنذار كاذب ولقد علمنا فيما بعد أن بغداد قد تلقت تحذيرات أخرى ولا سيما من جانب تركيا.

خلال العطلة الأسبوعية اتصلت بابن عمي هاتفياً من جديد. كان ذلك عشية سفره في زيارة لتركيا. فأعربت له عن تمنياتي له بإقامة طيبة. وكنت سأتولى رئاسة الإتحاد بالنيابة، خلال غيابه، ووعدته بأن أكرس له كل جهودي.

***كيف أمكن لهذه المأساة أن تحدث، على الرغم من تحذيراتكم وتحذيرات الأتراك وربما تحذيرات شاه إيران؟**

ـ كان مقتل ابن عمي في يوم الاثنين الواقع في الرابع عشر من تموز (يوليو) ١٩٥٨. كان بالتأكيد إحدى أقسى الصدمات التي كان عليَّ أن أحتملها خلال ثلاثة وعشرين عاماً من ولايتي الملك. وكان على الصعيد السياسي كارثة، إذ أدى إلى انهيار الإتحاد بين بلدينا الذي سبق التوقيع عليه قبل فترة قصيرة. كانت الساعة تقارب السابعة صباحاً عندما أبلغت بالهاتف أن شيئاً ما قد حدث في العراق. كانت الأنباء تتواتر متناقضة من سائر النواحي. وساد جو من البلبلة والارتباك والتشوش. لم أكن أعرف ما إذا كان الملك قد مات أم أنه سليماً معافى. كان ثمة شائعات تفيد بأنه في طريقه نحو تركيا كما كان مقرراً. كنا نريد أن تطمئن قلوبنا. ولكن كان من المستحيل الإتصال ببغداد بالهاتف أو بالراديو. كان العراق مقطوعاً عن بقية العالم. ولم تبلغنا الأنباء الأولى إلا في وقت متأخر من النهار. ولسوء الحظ كانت تؤكد مخاوفي الأولى.

لم أكن أفهم سبب اغتيال ابن عمي والإبقاء على حياتي. ففيصل الذي كان يكبرني ببضعة أشهر، لم يلحق أذى بأحد. فهو لم يعرف أبداً السيطرة على أي موقف إلى الحد الذي يجعله يتخذ قراراً سياسياً من شأنه أن يناوىء به أو يعاكس أو يغيظ أيا كان. ومع ذلك كان هو وليس أنا الذي مات. لقد كنا متقاربين روحياً الواحد نحو الآخر، خلال حياتنا المشتركة القصيرة. فعشنا متحدي القلب متفقي الرأي. وكان جد كل منا على صلة وثيقة بالآخر أيضاً. كان جده فيصل الأول أخا للملك عبد الله. وقد لعب دوراً كبيراً في الثورة العربية، وحارب لورانس إلى جانبه.

عندما كنا أصغر سناً، كنا نلعب معاً. وهو الذي أهداني أول دراجة لي. وعندما كنا في هارو تناقشنا في مسائل. كان من المحتمل أن نواجهها في يوم ما. وانني أعتقد بأن الكثير من العراقيين المؤيدين منهم للملكية أو المناوئين لها، على السواء، لا بد وأنهم، عند وفاته، قد شعروا بالخزي الشديد للطريقة الوحشية التي اغتيل بها، وأن السبعة عشر عاماً التي مضت منذ وفاته لم تمحو بعد هذا الخزي. كانت الملكية شعبية دوما في العراق. وكان والد الملك فيصل، الملك غازي صافي القلب طاهر السريرة صريحاً وكان لينّ الجانب سهل المدخل إزاء شعبه. وعندما توفي على أثر حادث سيارة، هلل العراق بأسره لفيصل الصغير وانتظر بفارغ صبر استلامه مقاليد السلطة. ولكن طموح فيصل ذبل ثم انطفأ على مهل. لقد شعرت بذلك وحاولت التدخل ولكن أعبائي ومسئولياتي لم تدع لي وقتاً لهذه الغاية، فذهبت جهودي عبثاً.

في اليوم نفسه اجتمع مجلس الوزراء في عمان. واقترح علي كثير من أعضائه أن أقاوم بالقوة إنشاء نظام جديد على اعتبار أن العراق والأردن كانا مرتبطين بمعاهدة تعاون مشترك. ولم يكن الجيش العربي الأردني أبداً متحمساً، حماسته وتصميمه آنئذٍ. عرض عليَّ أعضاء الوزارة أن أرسل فوراً قوات إلى الجزء العراقي من الإتحاد الذي لم يكن قد جرى حله بعد، لمحاولة طرد المتآمرين وإعادة النظام.

فشرحت بأوضح العبارات الممكنة الأسباب التي تحملني على رفض هذا التدخل: «نحن لسنا شعباً تواقاً إلى أن يفرض نفسه على الآخرين. فإذا كان شعب العراق قد صمم على اختيار أسلوب آخر لحياته، فله أن يتدبر أمره بنفسه، مهما كانت وجهة نظرنا إزاء ذلك، وربما بادرنا إلى العمل فيما بعد، إذا ما طلب إلينا التدخل ولكن ليس قبل ذلك».

ولقد تأثر قراري بعدة عوامل. أولاً ماذا يستطاع إنقاذه بعد؟ لا شيء على حد علمي. فالملك وأسرته وأشخاص عديدون قد قتلوا. ثانياً نحن لا نعرف كيف جرت الأمور حقيقة في العراق، وبذلك فإن من الصعب أن نتمكن من

السماح لأنفسنا بإرسال قوات هنالك. فإذا كان علينا أن نقاتل، فإن ضرباتنا يجب أن توجه ضد العناصر التي حاكت المؤامرة وليس ضد الأبرياء المضللين.

كنت قلقاً أيضاً من التهديد الذي كان يلقي بثقله على الأردن لأنه كلما تعرض شعب عربي لبعض الصعوبات، كانت إسرائيل على استعداد للهجوم. فنحن ليس في مقدورنا أن ندع حدودنا التي تمتد ستمائة كيلو متر بلا حماية دون أن نستقطب بعض المتاعب.

ولما كنت أعرف من ناحية أخرى أن القاهرة كانت مصممة على الإطاحة بالملكية في الأردن فقد كنا في الواقع مرغمين على مجابهة عدو مزدوج. فقد غدا الأردن البلد الوحيد في وجه الشيوعية. كما أن الجمهورية العربية المتحدة لم تكن تطمع في أقل من السيطرة على العالم العربي.

من الصعب على الذين لم يزوروا الأردن، أن يتصوروا مقدار الآلام التي قاسيناها طوال هذا الصيف الفاجع من عام ١٩٥٨. لم يكن لطرقنا أي منفذ على العالم الخارجي. فقد حاصر السوريون رواقنا الجوي وسككنا الحديدية. وكان ميناؤنا الوحيد في العقبة الذي يبعد ثلاثمائة كيلو متر من عمان، غير متطور بما فيه الكفاية كما أن الطريق الصحراوي الذي يربط عمان بالعقبة كان غير مكتمل بعد. كنا محاصرين حصاراً كاملاً.

إحتفلت القوات العراقية المرابطة في الأردن، عند الانقلاب، بفرح شديد، بالإطاحة بالملكية، معربة عن أملها في أن دور الأردن لن يتأخر. أحتجز بعض الضباط العراقيين لبضعة أيام في الأردن وعاملناهم بمنتهى الرعاية والإكرام، لأننا كنا نود التأكد من السماح للأردنيين الذين ما زالوا على قيد الحياة في بغداد بالعودة إلى بلادهم. ولقد فقدنا العديد من كبار الوطنيين أثناء التمرد. كان بينهم سليمان طوقان وزير الدفاع، وإبراهيم هاشم الشيخ الحكيم الذي كان من رجال القانون اللامعين ومن كبار الإداريين. فقد تولى رئاسة الوزارة عدة مرات، وكان عند قيام الاتحاد، نائباً لنوري السعيد رئيس الوزراء.

كان الطقس حاراً أثناء صيف عـام ١٩٥٨ ، وكانت الأخـطار المهددة تحـوم فوق بلادنا. بدأ الانتظار الطويل، الانتظار الذي لا نهاية له. ما الذي سيقع؟ مـا الذي سيفعله آخر الفراعنة في الجانب الآخر من النيل؟

وكـان الأسوأ من هـذا، هو أن حلفـاءنـا في العـالم الحـر الـذين ضحى من أجلهم زعماء العراق بـأرواحهم، هذه الأقـطار التي كافـح وقاوم العـراق التغلغل الشيوعي إلى جانبها، هذه الأمم، قد اعترفت الواحدة تلو الأخرى بالنظام الجديد في بغداد. كانت مسارعتها في إقامة علاقات مع الزعماء العراقيين الجدد في الـوقت الذي لم تكد تدفن آلاف الجثث، لا نظير لها سوى ما أبدته من قلة الحياء وانعـدام الاحتشام. حدثت هـذه الاغتيالات في الـرابع عشر من تمـوز (يوليـو) فإذا بـتركيا تعـترف بالنـظام الجديـد في (٣١) منه، ثم اعتبـاراً من الأول من آب (أغسطس) لحقت بها بريطانيا العظمى والولايات المتحدة الأمريكية.

ومنذ ذلك الحين بدأ الـطوق الحديـدي يشتد ضغـطه حولنـا. كان ينقصنـا الوقود وكذلك. . الأصدقاء. فقد أغلق السوريـون حدودهم في وجـه كل تعـامل معنا. لم نعد قادرين على استخدام طرقنا التقليدية. كانت الصهـاريج ممنـوعة من اجتياز سورية للوصول إلى لبنان وتأمين تزويدنا بالوقود. كنا قد بدأنـا استيراده من العـراق فإذا بهـذا المصدر يجف معينـه، حتى ان العـراق سمـح لنفسـه بـاحتجـاز صهاريجنا ليزيد من اختناقنا. كان الوقود في غاية الضرورة لنا من أجـل ضخ المـاء اللازم لاستهلاك السكـان في عمان وفي المـدن الأخرى، وكـذلك من أجـل توليـد الكهرباء، ونقل المؤن إلى جنوب البـلاد، حيث كان المحصـول سيئاً، ولنقـل الماء أيضاً.

أصابني اليأس، فتوجهت بالنداء إلى الولايات المتحدة التي كانت مصادرها من النفط في المنطقة لا حـدود لها. رجـوت القائم بـأعمالهـا تومـاس رايت أن يأتي لمقابلتي، وشرحت له بصراحة، الصعوبات التي تعترضنـا، وأضفت: «إن الموقف حرج، وبدون هذا النفط سوف لن نستطيع الاستمرار في العيش».

بعد أقل من أربع وعشرين ساعة، حطت الطائرات الأولى غير بعيد عن عمان. وجعلت الصهاريج المتبقية عندنا توزع النفط في المدينة. وعندما بدا أن كل شيء قد تمت تسويته، وقعت حادثة غير منتظرة: لم تعد الطائرات تهبط في عمان. ماذا جرى إذن؟ إتصلت هاتفياً بالمطار. كنت في البدء أعتقد بأن حادثاً فنياً قد أعاق الطائرات عن الهبوط. ولكن لم يكن الأمر على هذا الحال.

هل غيَّرت واشنطن رأيها، لا: بل أصدقاؤنا في العربية السعودية الذين كان يتوقف عليهم مصيرنا قد رفضوا السماح للطائرات الأمريكية التي تنقل النفط من الخليج، بالتحليق فوق أراضيهم في حين أنه كان الطريق الممكن الوحيد. كان بعض المستشارين في العربية السعودية يعتقدون أن الأردن يعيش ساعاته الأخيرة، فلم يرغبوا أن يستفزوا عبد الناصر.

غدا الوضع خطيراً. لم أكن أود أن أقول لشعبي ما كان القليل منا يعرفه، وهو أن الاحتياطي من النفط لدينا قد نفد. وأننا محاطون تماماً بالأعداء.

عاد المستر رايت من جديد لمقابلتي حاملاً أنباء أدعى إلى القلق قال لي: «يا صاحب الجلالة إن السعوديين لا يرفضون السماح لنا بأن نبعث إليكم بالوقود فحسب، بل إنهم يمانعون أيضاً في عودة الطائرات الموجودة في الخليج حتى ولو كانت فارغة».

بدأ اليأس يتسرب إلى نفسي. إنني أستطيع محاولة الحصول على مصادر أخرى للتموين. ولكن أين أجد الطائرات الشاحنة لنقلها؟

إنني لا أذكر أنني كنت غاضباً مغتاظاً إلى هذا الحد في حياتي.

رفعت سماعة الهاتف وطلبت الملك سعود على عجل. فاحتجت إلى ثلاث ساعات لإيصال ندائي، إذ كانت الاتصالات الهاتفية مع هذه البلاد في غاية الصعوبة.

وبينما كنت أنتظر مخابرتي الهاتفية جعلت أتأمل في تعقّد الطبيعة الإنسانية.

كنا وحدنا بلا مورد تقريباً. لماذا؟ إن تصرفاً كهذا ما كان ليثير استغرابي من جانب الشيوعية التي ما كنت لأنتظر منها أية شفقة على كل حال. ولكن من جانب الأخوة العرب. . . . ! سمعت بعد قليل صوت الملك سعود من الطرف الآخر للخط. لم أستطع أن أتمالك نفسي. وعندما سألته لماذا يقابلنا عربي بالرفض، إعتذر وقال: «لو كنت مطلعاً على هذه التفاصيل لكنت تصرفت بشكل آخر. أما الآن فقد فات الوقت. لأن الحكومة قد سبق لها أن إتخذت قرارها».

قلت في نفسي ما أسخف هذا العذر! وأجبته: «إنني لن أنسى ما حييت هذا الرفض الذي تواجه به بلادي وشعبي في لحظة حاسمة نجاهد فيها للإبقاء على حياتنا».

بعد انقطاع قصير الأمد، تلقينا الوقود، ولكن بأكثر الأساليب الممكنة إهانة وإذلالا. جاء التموين من لبنان، ونقل كل ليتر من الوقود عبر الأجواء الإسرائيلية. . . وهكذا، حيث قابلنا شعب عربي بالرفض، قبل العدو!. وفي نفس الوقت الذي حاولت فيه أن أجد حلاً للعديد من مشاكلي، دعوت الحكومة إلى اجتماع فوق العادة يعقد في القصر، وقررنا أن نطلب إلى الولايات المتحدة وإلى بريطانيا العظمى أن تبعثا إلينا ببعض القوات. كنا في حاجة إلى معونة ليست مادية بقدر ما هي معنوية. كانت تكفي قوة رمزية وأقول صادقاً بأنه كان قد أصابنا الأعياء. فلم يكن في مقدورنا أن نفعل غير ذلك. كان علينا أن نجابه المؤامرات داخل البلاد. وكانت تحتشد قوات عسكرية على حدودنا. وكنا ما زلنا بعد، أعضاء في الاتحاد العربي. فوجدت نفسي إذن زعيماً للاتحاد العربي الذي لم يجر حله تماماً بعد. ولما كانت المعاهدة الأردنية العراقية قد نصت على أنه في حالة حدوث أزمة داخلية يتوجب على القطرين تبادل المساعدات حتى العسكرية منها إذا ما دعت الضرورة، فقد كنا في حاجة، في هذه الظروف، إلى قوة رادعة قادرة على صد العدوان خلال غياب قواتنا الخاصة. كان هذا القرار مهماً. ولم يكن في مقدوري اتخاذه وحدي. عندما وافقت الحكومة على اعتبار هذا الطلب ملائماً، أمرت بعقد مؤتمر مشترك يضم الوزراء والنواب والأعيان ودعوت إليه أعضاء

الاتحـاد العربي. قلت لهم بـأن الحكومـة تنظر في طلب عـون القـوات الأمـريكيـة والبريطانية. وإنني أدعو كل واحد منكم «أن يبـدي رأيه حـول هذا المـوضوع وأن يعبِّر بحرية عن وجهة نظره». فأقر اقتراح الحكومة بالإجماع.

ولما كان سفيرا الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى غائبين عن الأردن، فقد استـدعيت القائمـين بالأعـمال. السيدين ميصـون ورايت. شرحت لهـما بـأننـا لا نطلب مساعـدتهم لمواجهـة وضعنا الـداخلي، ولكن لأننـا مقتنعين فقط بـأن شعباً صغيراً حراً لا يستطيع أن يقف وحده لكي يواجه بمفرده الاضطرابات التي تهدده. وأضفت: «إنـه لا يهمنا من تكـون البلاد التي ستبعث إلينـا ببعض قـواتهـا. ولن نحتاج إلى هذه القـوات للمرابـطة فترة طـويلة في الأردن. إن العون الـذي أطلبه باسم شعب الأردن يرمز إلى التضامن الوثيق لبلدان العالم الحر».

تـركت للبريطانيـين والأمريكـان مهمة أن يقـرروا بأنفسهم مَن مِن البلدين سيمنحنا مساعـدته. ووردنـا الجواب بسرعـة: سيأتي المـظليون الـبريطانيـون من قاعدتهم في قبرص.

إعتقلنا في ليلة الأربعاء (١٦) تموز (يوليو) آخر المتآمرين الذين كانوا يعدون للانقلاب وبذلك أفلتنا من هذا الانقلاب قبل وقـوعه بقليـل. كنا نـراقب مراقبـة شديدة أبسط حركات وسكنات المتآمـرين منذ أن بـرزت الدلائـل الأولى وأمسكنا بالرسائل التي حددت اليوم التالي (١٧) تموز (يوليو) بـداية للتمـرد. وبذلـك نجا الأردن في آخر لحظة. كان الانقلاب في الأصـل قد تحـدد له يـوم الرابـع عشر من تموز (يوليو) ولكن التدابير الأمنية التي اتخذناها أرغمت المتآمرين على تأجيل موعد مؤامرتهم.

عندما ألقي المتآمرون في السجن، تمكنت أخيراً من أخذ قسط من الراحة، لأنني منذ مذبحة بغداد، لم أنم سوى أقل من ساعتين. إستيقـظت باكـراً في اليوم التـالي. ومنذ السـاعـة التـاسعـة والنصف كـان الهـديـر يبشر بقـدوم الـطائـرات الضخمة، ووصول المظليين البريطانيين.

إستطعت فيما بعد أن أعيد تشكيل صور الأحداث التي جرت في وايتهول، والأسباب العميقة للجواب الرائع للمستر ماكميلان، وللسرعة التي أقام الدليل عليها. فقد وجدوا من الأفضل على كل حال إرسال قوات بريطانية بدلاً من قوات أمريكية، لأنه كان لدى البريطانيين قوات على أهبة الاستعداد في قبرص تستطيع أن تبلغ الأردن في الصباح، في حين كان رجال البحرية الأمريكية قد سبق لهم الشروع في النزول في لبنان. كان في وسع البريطانيين أن يبادروا إلى العمل بسرعة. إذ في الوقت الذي تلقت إنكلترا طلبنا، كانت دوائر الاستخبارات البريطانية قد أطلعتها بالتفصيل عما كان يحاك من مؤامرات. أدى امتزاج هذين العاملين إلى امتناع رئيس الوزراء عن اتخاذ ما كان يدعوه «أصعب قرار» في حياته السياسية. لقد أنذر ماكميلان بأن مستقبل الأردن مهدد بصورة خطيرة، فدعا فوراً أعضاء حكومته إلى الاجتماع.

كان الوزراء البريطانيون مقتنعين بأنه إذا لم يتقرر التدخل البريطاني العاجل، فإن الموقف سيتعرض إلى خطر ازدياد التدهور وبالتالي إلى اشتعال الشرق الأوسط بأسره بسرعة.

ذلك لأنه إذا أصاب العراق الأردن بعدواه، فإن العربية السعودية، هذا المخزون الجبار من احتياطي النفط، ستتعرض إلى خطر عدم الإفلات من العدوى. ومَن يستطيع في هذه الحالة التنبؤ بالنتائج التي ستنجم عن ذلك؟

أختتم اجتماع الوزارة في الساعة الثانية صباحاً. ووجهت رسالة بالشيفرة إلى قبرص. فصدرت الأوامر إلى المظليين البريطانيين بالانطلاق إلى الأردن. كان لا بدّ من العمل بسرعة لذلك أقلعت طائرات نقل الجنود البريطانية على الفور باتجاه عمان.

سأل نائب بريطاني في ذلك العهد، عن سبب عدم إجلاء ملك الأردن ونقله إلى إنكلترا بدلاً من إرسال قوات إلى عمان؟

علمت بهذه القصة بعد مضي سنة في الوقت الذي كنت فيه موجوداً في

لندن. فقلت عندئذ لرئيس الوزراء، بمناسبة حفلة عشاء أقامها على شرفي:

«إن عضواً محترماً في برلمانكم قد توهم أن اثنين من رجال الشرطة كانا كافيين لتأمين حمايتي، وأنه لا تستدعي الضرورة إرسال قوات إلى الأردن لكي تحميني. إنني لم أكن شخصياً في يوم من الأيام في حاجة إلى الحماية. إن قواتكم لم تحم الأردن ولم تحمني أنا شخصياً ولكنها حمت قضية الحرية».

* كنتم محاطين بالاعداء أكثر فأكثر.

ـ نعم كان عام ١٩٥٨ عام التجارب المريرة بالنسبة إليَّ، تماماً كعـام ١٩٧٠، ولسـوف يبقى راسخاً في ذهني إلى الأبـد. غادرت آخـر فصائـل القوة العسكـرية البريطانيـة في عمان في (٢٩) تشرين الأول (أكتـوبر) وأبحـرت من العقبـة في (٢) تشرين الثاني (نوفمـبر) ولقد أتـاح لنا مجـرد وجودهـا خلال بضعـة أشهر أن نلتقط أنفـاسنا بعض الشيء. كـان الجنود ذوو القبعـات الحمراء، بتجـوالهم في شـوارع عمان، قد مكنوا الشعب من التثبت من أننا لم نكن وحدنا وأنه لا مجال لليأس.

لقد كان عدد كبير من أفـاضل رجـال الأردن متواجـدين عرضـاً واتفاقـاً في بغـداد عند وقـوع التمرد الـذي فقدوا فيـه حياتهم في نفس الـوقت مـع ابن عمي وأسرته. كل شيء كـان قد أعـد بمهارة لكي يقـع الإنفجار في بغـداد وعمان في آن واحد. ولقد حصلنا على الادلة التي تؤيد ذلك فيما بعد.

كنت الهـدف التالي في أذهـان المتآمـرين. وإذا كنت لم أخش على مصـيري الشخصي أو مصير أسرتي، فقد كنت أشد قلقاً على الأردن، أسرتي الكبرى. لقـد انضم إليَّ كل أردني حقيق بهذا الاسم خلال هذه الفترة العصيبة، وأيدني بقدر مـا استـطاع. فأصبحت أشعـر بأنني زعيم عشـيرة يزداد عـددها بـاستمرار وتتـوحـد صفوفها بتسلسل الأحداث، مما حال دون تـدميرنـا. وكنت أدرك جيداً أنـه إذا ما أصابني شيء ما، فإن بلادي سوف تنهار. وما كان بودي أن أترك الأردن مـا دمت أشعر بأن وجـودي سوف يعود على بلادي بأي نفع مهما بلغ.

بقيت مسألة جوهرية: ماذا أفعـل لسائـر هؤلاء الوطنيـين المخلصين الـذين برهنوا على ولائهم لي؟. إن الحل لا يكمن في تشكيـل حكومـة جديـدة. فقد كنـا

محاطين بأعداء لا يستطيع إيقافهم شيء ما دمت باقياً في منصبي. وإنني لأرجو أن تؤمن بأنهم كانوا خصوماً مخيفين.

وعندما يتفحص المرء هذه السنين الماضية فإنه سيتحقق من أن عام ١٩٥٨ كان ذروة سنين ثلاث كان الأردن خلالها تحت رحمة دعاية خارجية ترمي إلى التخريب، وإلى تسلل العملاء الشيوعيين كانت دعايتهم ذات مظهر براق، وكانت تنتشر في أقصى أنحاء البلاد. وبينما كانت القاهرة تملك أجهزة للبث عصرية وقوية، لم يكن لاذاعة عمان في ذلك العهد، سوى جهاز قوته خمسة كيلواط يغطي مساحة نصف قطرها خمسون كيلو متراً. ولقد بذلنا ما في مقدورنا لمكافحة موجات السباب والشتائم التي كانت تتوارد علينا من الخارج. ولم يكن يسع المواطنين سوى الضحك عندما كانوا يعودون إلى بيوتهم بعد انتهاء أعمالهم اليومية فيسمعون من أجهزتهم اللاقطة عبارات كهذه: «الجنود يتذابحون في عمان والدماء تغطي الأرصفة بلونها الأحمر القاني!» الخ. بالطبع كثير من الناس البسطاء، كانوا يصدقون أقوالاً كهذه، ولكنهم ما كانوا يشكلون إلا أقلية ضئيلة لحسن الحظ.

واني لأذكر يوماً كنت أقوم فيه بجولة بالسيارة مع صديق لي باتجاه جبل (نبو). كان كل شيء هادئاً عندما التقطت فجأة اذاعة القاهرة وسمعتها تقول: «سوف نقاتل إلى أن نستأصل الحسين وزمرته». وغير بعيد من ذلك المكان على سفح جبل الزيتون، سمعت اذاعة دمشق تقذف بشتائم أخرى، ولعل أكثر الأمور خطورة بلا شك، هو تسلل العملاء المحرضين الذين كانت أساليبهم في الافساد معروفة جيداً. كان هؤلاء العملاء كثيري العدد، وكانوا يعيثون فساداً في مجموع أجزاء الوطن، فيدخلون بشكل خاص أسلحة كان من الصعب علينا أن نحول دون تسربها لطول حدودنا وضعف الحراسة والمراقبة فيها أحياناً.

ولقد اتسع نطاق هذا التسلل إلى الحد الذي اضطررنا فيه إلى تعرية حدودنا الغربية بعض الشيء مع إسرائيل لتعزيز الحدود التي تفصلنا عن بعض الشعوب

العربية الشقيقة! . لم يكن ثمة شيء يتوقفون عنده. كانوا مصممين على عمل كل شيء. وهنالك واقعتان توجزان تماماً هذا الوضع الذي لا يطاق:

الواقعة الأولى، تورط فيها الملحق العسكري المصري في عمان الرائد فؤاد هلال الذي كان قد تعرف على عسكري أردني يعمل في الدائرة القضائية التابعة للقيادة العامة، ويدعى صفوت شقير. أما هدفه: فهو رشوة شقير وحمله على اغتيالي.

لم تعد هذه المؤامرة ضد حياتي لتقلقني أبداً. ولو أنه كان لا بد من اكتشافها في حينها! ولكن هذا الأسلوب الجديد الذي كان يستخدمه أعدائي قد بدا لي «مستقبحاً» لاسيما وأن سفارة مصر كانت تتمتع بحمايتنا!، أسوة بكل السفارات الأخرى.

أبلغني ضابط استخبارات بالأمر وقال: «نحن ننتظر حالياً. فلقد أعلمنا شقير أنه على موعد قريب مع الدبلوماسي المصري».

ـ سألته: ما هي الأدلة التي لديكم؟

ـ فقال كل شيء مسجل يا صاحب الجلالة.

قررنا الاستمرار في ممارسة هذه اللعبة وانتظار الموعد المقبل. ولكن ما لبثت الأمور أن فسدت. فقد اكتشف المصريون المسجل الصغير والسلاح الذي كان يحمله رجلنا، فاحتجزوه طوال الليل، وعذب وضرب ضرباً مبرحاً. فاضطر أن يوقع تحت التهديد المسلح «اعترافاً»، لم يحظ بالطبع في نظرنا بأية قيمة. وسلم المصريون شقيراً إلى الشرطة زاعمين بشكل خاص أنه تسرب إلى السفارة بطريق الكسر والتحطيم، ولكنهم احتفظوا بسلاحه وبالمسجل الذي كان معه. وبالطبع طلبنا استدعاء هذا الملحق العسكري المزعج.

وقد جرى فيما بعد توقيف تسعة عشر شخصاً آخرين، كشفت محاكمتهم أن الرجل الذي كان يوجههم لم يكن سوى قنصل مصر العام محمد عبد العزيز. كان هو الذي يصدر إليهم أوامر التخريب والتدمير وادخال الأسلحة إلى الأردن

سراً ابتداء من قطاع غزة. وقد استدعي هو الآخر إلى بلاده.

أما الواقعة الأخرى، فقد جرت بعد تمرد الزرقاء، وقبل قليل من مقتل ابن عمي في بغداد. في ذلك الوقت، كنت أتوهم أن من الممكن أن تنتظم الأمور، وأن نستطيع العيش بسلام مع جيراننا وحتى أن نبني جيشاً مشتركاً مع مصر والعربية السعودية على السواء.

بينما كنت أعمل في القصر ذات مساء، طلب ضابط مقابلتي والتحدث إليّ. كان يبدو مضطرباً. قدم إليّ مظروفاً، ورجاني أن أطلع عليه. كانت رسالة مكتوبة من العقيد يسري قانصوه الممثل المصري لدى القيادة الموحدة لجيشنا، وكانت موجهة إلى اللواء محمد حافظ اسماعيل في رئاسة أركان الحرب في القاهرة: كان اغتيالي وارداً فيها بالتفصيل. وكان بين الشركاء المتواطئين، العديد من كبار الضباط والجنرالات الأردنيين الفارين إلى دمشق والقاهرة، فور حادث الزرقاء، لاسيما علي أبو نوار والحياري. وقد أوردت رسالة قانصوه أيضاً قائمة بضباط أردنيين كانوا يتظاهرون بأنهم من الموالين والنزيهين، أي الخطرين إذن! كان لابد من العمل بسرعة. فقمنا بإجراء اعتقالات عديدة لحسن الحظ قبل تدمير الجسور والمباني والأمكنة الاستراتيجية الأخرى. وتم الاستيلاء على كميات هامة من الأسلحة والذخائر، ومنشورات الدعاية. كان الوقت قد حان لكل هذا!

في ذلك الحين كان المرء يستطيع شراء الأسلحة السوفياتية في أي مكان. فقد دخل بعضها عن طريق التهريب وبعضها الآخر كانت مصر قد تركته في سيناء بعد حملة السويس. وقد حصل أحد المقربين مني على قطعة من هذا السلاح على رصيف مشرب للقهوة في أريحا بدون أية صعوبة وبدون أن يعطي اسمه أو أن يبين نوع الاستعمال الذي من أجله يحتاج إلى هذا السلاح. كان سلاحاً ممتازاً كما استطعت أن أتحقق من ذلك فيما بعد.

لقد افتتح الروس لأنفسهم معظم الأسواق العربية عن طريق مبيعاتهم الرسمية من السلاح إلى مصر. وبتواجدهم فيها أصبح من العسير طردهم منها.

ربما كان المصريون غير راغبين في استضافة عدد من الروس والتشيكوسلوفاكيين، ولكن عندما يشترون أسلحة ثقيلة وخفيفة تتطلب صيانة خاصة، فإنهم مضطرون على الغالب أن يحتفظوا بالباعة في متناول أيديهم، ثم جاء دور الميج مع جميع «الخدمات اللازمة بعد البيع»، والفنيين والعملاء والمدربين وأسرهم الخ . . .، لقد سر الروس بذلك. فقد نالوا ما أرادوا. ومن ذلك إلى الإنطلاق نحو دمشق وبغداد، أو أي مكان آخر، لم يكن أمامهم سوى خطوة أخرى!

كان زعماء الدول العربية الذين كانوا يهاجموننا وقتئذ، أدوات في أيدي موسكو دون أن يشعروا بذلك على الغالب. أما أنا فقد لبثت متمسكاً بشدة بقناعتي بأن الشيوعية لا تستطيع في أية حال أن تساعد على تحرير الشعوب العربية، لأن كل فرد منهم لا بد أن يصبح في النهاية «عبداً لموسكو».

*** لقد تعرضتم لعدة محاولات اغتيال منذ عام ١٩٥٢. بعضهم يقول أنها عشرة، وبعضهم يقول أنها عشرون. لقد قتل رؤساء وزارات وأعضاء حكومة ومقربون إليكم، ما هي في نظركم المؤامرة ذات الطابع المميز والأكثر مأساوية؟**

- كان بلا شك الهجوم الجوي السوري عام ١٩٥٨ بعد بضعة أشهر من المقتل الفاجع لابن عمي وأسرته في بغداد. فقد قدرت في نهاية تشرين الأول (أكتوبر) أن الأزمة قد هدأت بما فيه الكفاية إلى الحد الذي يمكنني من أخذ اجازة قصيرة. وعلى ذلك قررت الذهاب إلى أوروبا بطائرتي الخاصة. فكاد هذا الطيران أن يكلفني حياتي.

أقلعت من عمان في الساعة الثامنة وعشرين دقيقة صباح العاشر من تشرين الثاني (نوفمبر) بالطائرة القديمة ذات المحركين التي كانت لجدي ثم أصبحت بعدئذ ملكاً للقوات الجوية كان مساعد الطيار العقيد جوك دالجليش المستشار الجوي لدى القوات الجوية الملكية الأردنية عهدئذ. وكان المسافرون خالي الشريف ناصر واثنين من الطيارين في القوات الجوية الملكية الأردنية، كانا مكلفين بإعادة الطائرة، وموريس رينور.

كانت السلطات السورية المؤيدة للناصرية، تعرف قبل سفري بأنني سوف أكون في هذه الطائرة وأنني أعتزم الذهاب إلى لوزان لقضاء ثلاثة أسابيع فيها بالقرب من والدتي الملكة زين الشرف، ومن ابنتي عالية وبقية أفراد أسرتي. وكان عليّ أيضاً أن أحتفل بعيد ميلادي في الرابع عشر من تشرين الثاني (نوفمبر). وقد حجزت غرف لهذه الغاية، في بوريفاج الفندق نفسه الذي تلقيت فيه هذه البرقية التي كشفت ما حتمته الأقدار، فنادت بي ملكاً قبل ستة أعوام.

أبلغت شعبي بسفري، على خلاف عادتي، حتى أنني ألقيت خطاباً وداعياً عشية رحلتي حضره سائر أعضاء السلك الدبلوماسي.

لم يكن أبسط، على ما يبدو، من التحليق في سماء سورية ولبنان حتى قبرص، أول محطة لنا، ثم استئناف الرحلة نحو أثينا وروما، كان هذا هو الطريق الأقصر المألوف. وكان من حقنا أن نتبع هذا الطريق نحو أوروبا.

عندما أقلعنا، كان الجو بارداً والسماء مغطاة بالغيوم، فارتفعنا في السماء حتى بلغنا تسعة آلاف قدم لكي نتجه نحو الحدود السورية. تبددت الغيوم بسرعة، واتصلنا بدمشق عن طريق الراديو محددين مكاننا فوق الحدود وطالبين السماح لنا بالاستمرار في الطيران.

ولكي يتسنى فهم ما تلا ذلك، تجدر معرفة أن مطار دمشق هو الذي أذن لنا بمتابعة طريقنا. كانت خوذتي موجهة على ذبذبة الموجة التي يتخاطب بها المطار المذكور، ولقد سمعته بأذني. وعلى هذا واصلنا الطيران باتجاه نقطة محددة ضمن المجال الجوي السوري حيث كان علينا أن نشير إلى موضعنا. وهذا ما فعلناه. سألتنا دمشق عن الوقت التقريبي لمرورنا فوق المدينة، فأجبنا.

في هذه اللحظة خالجنا ارتياب أولي. وبالفعل بعد هنيهات قليلة، نادتنا دمشق من جديد وأعلمتنا بأنه: «لم يسمح لكم بالتحليق فوق دمشق. وعليكم أن تهبطوا».

فأجبنا فوراً «لقد حصلنا على الأذن بالتحليق، وليس بالهبوط في دمشق، إن قبرص هي وجهة سيرنا».

ردت دمشق: «إنتظروا».

لقد اعتقدنا نحن الاثنين في غرفة القيادة، بأن في الأمر خطأ. فواصلنا سيرنا حتى غدونا على ما يقرب من خمسة وعشرين كيلومتراً من دمشق التي كنا نستطيع مشاهدتها بين مجموعتين من الغيوم، عندما نودي علينا مرة أخرى: «لم

يؤذن لكم بالتحليق عليكم بالهبوط في دمشق». وفوراً تقريباً بدأو يوجهون إلينا التعليمات الخاصة بالهبوط. وطلبوا إلينا أن نشير إلى اللحظة التي نصبح فيها باتجاه المدرج. فحولت ناظري إلى داجليش.

وبدون أن نتفوه بأية كلمة، إستدرنا نحو عمان وأجبنا في نفس الوقت: «إذا كانت هذه أوامركم النهائية، فينبغي علينا أن نتصل بعمان لإبلاغهم بالأمر».

كنت قلقاً حقاً، فناديت عمان وأطلعتهم على ما حدث. فورد الجواب متلهفاً، ولكن واضحاً: عليكم بالعودة إلى القاعدة حالاً. أبقوا على موجتكم ولا تبلغوهم باستلام أية رسالة أخرى. وبأسلوب معبّر عن مقتضى الحال أضاف الصوت: حظاً سعيداً.

أعدت الاتصال اللاسلكي بدمشق فسألونا: «أين موقعكم؟». فأجبناهم: «نحن الآن نطير بشكل دائري بانتظار تعليماتكم النهائية». في هذه المرة كان السوريون أكثر صراحة وحزماً. فقد أمرونا منْ جديد بالهبوط. فرددت بإيجاز: «نحن آسفون. لا نستطيع ذلك». ثم أعدت الاتصال اللاسلكي بعمان.

كنا نتجه نحو أقرب نقطة على الحدود الأردنية دون أن نعنى بسلوك نفس المسار الذي اتبعناه في الذهاب: وذلك اختياراً للطريق الأقصر! كنا نطير على ارتفاع عشرة آلاف قدم، عندما طافت بذهني فجأة فكرة: تلفت نحو جوك وقلت له: «لماذا لا نهبط ونعود بمحاذاة الأرض؟».

إنطلقت هابطاً بسرعة تقارب الأربعمائة كيلومتر في الساعة. وهي أقصى سرعة ممكنة تحتملها طائرة الدوف القديمة المسكينة هذه! إعتقدت بأننا عندما نصبح بمحاذاة الأرض تضعف إمكانيات اكتشافنا، وتزداد صعوبة تحديد موقعنا لأن الطائرات النفاثة تتحرك بصعوبة على ارتفاع منخفض ولأن مدخراتها من الوقود محدودة.

كدنا نلامس الأرض على ارتفاع يقرب من الصفر، عندما اقتربنا من الحدود الأردنية.

وفجأة جاءني إلى غرفة القيادة أحد الطيارين الجالسين في الجانب الخلفي من الطائرة، وصاح: «لقد رأيت طائرتي ميج تطيران على ارتفاع عال بمواجهتنا!».

وبديهي أنهما لا يستطيعان المجيئ إلاّ من الحدود الأردنية. ومن المحتمل أن يكونا قادمين من المجال الجوي الأردني. كانت نظرة داجليش تؤكد لي بأننا أدركنا نحن الاثنان، المقصود من ذلك. فهاتان الطائرتان لم تقلعا، بعد رفضنا الهبوط في دمشق.

أعتقد بأن داجليش وأنا قد أحسسنا برعشة من الغم والضيق ولكنني طلبت إلى الطيار أن يعود إلى الخلف وأن ينبهني إذا ما رآهما من جديد. ثم شدّ كل منا حزام الأمان على وسطه.

بعد دقيقتين مرت طائرتا الميج (١٧) التابعتان للجمهورية العربية المتحدة بجانبنا الأيمن وانعطفتا لتقطع علينا الطريق، ثم أخذتا في الارتفاع ثم غاصتا لمهاجمتنا.

جعلت طائرتي القديمة تقوم بإجراء قوس دائرة. فإذا كان لا بدّ من أن نموت هنا، فلسوف أسقط إحدى طائرتي الميج على الأقل. ولماذا لا أسقط الاثنتين بوسائلنا الضعيفة التي توجد في الطائرة.

إستلم جوك قيادة الطائرة. وبينما كانت الطائرتان (المعاديتان) تنقض علينا، كان جوك قد أبقى انعطاف الطائرة في أقصى حدوده الممكنة. كانت الطريقة التي انتهجوها بسيطة. كانوا يغوصون أمامنا، كل بدوره، في محاولة لقطع الطريق علينا ومهاجمتنا من الأمام. وما كنا نستطيع إتيان أي عمل سوى مراقبتهم ومحاولة استباقهم. ما هو عدد المرات التي هاجمونا فيها. عشرة، خمسة عشر، عشرون، لم أعد أذكر ذلك. كان هنالك دفاع واحد ممكناً: وهو الانحراف عن خط مسارهم عندما نراهم ينقضون ويهجمون علينا. كنت أعرف أن طائرة الميج تستطيع أن تجري انعطافات مماثلة لما نفعله ولكن بعد أن خفضنا سرعتنا إلى مائة وخمسين

كيلومتر في الساعة، أصبحنا قادرين على إجراء دوائر أكثر صغراً. كانت انعطافاتنا الفجائية القصيرة التي كنا نجريها في أواخر اللحظات ترغم طائرتي الميج على إطلاق الرصاص فوقنا كلما كانت تمران بنا.

كان أخشى ما نخشاه هو أن نفقد رؤيتهما. فكان علينا أنا وجوك أن نجعل أعيننا تراقب في كل مكان لاكتشافهما قبل الهجوم ولقد جعلنا طائرة الدوف القديمة تقوم بحركات جريئة، وأرغمناها أحياناً أن تبلغ في سرعتها أقصى حدود إمكاناتها ولقد صمدت بأعجوبة.

وبينما كنا نطير في كل اتجاه، ساءلت نفسي فجأة عن وضع رفاقي في الرحلة، أولئك الجالسين على المقاعد المخصصة للمسافرين، وعن كيفية احتمالهم لقفزات الطائرة واهتزازاتها. وفي غضون ذلك، دخل خالي الشريف ناصر غرفة القيادة وصاح: «ماذا يجري؟».

فصرخت فيه: «إنهم يهاجموننا».

قال لي عندئذ: «أعطني جهاز المخاطبة اللاسلكي لأقول لهم ما أعتقده فيهم!».

فأجبته: «ليس هذا هو الوقت المناسب». إلّا أن موقفه قد شدد من عزائمنا ورفع من معنوياتنا بعض الشيء.

تضاعفت الهجمات من كل اتجاه، فصرخ جوك: «من الحكمة أن نبعث بإشارة استغاثة في حالة اضطرارنا إلى الهبوط أرضاً».

وهذا ما فعلته ولكننا لم نستطع الاتصال بعمان، لأننا كنا نطير على ارتفاع منخفض.

وقد كدنا بعد لحظات أن ننسحق. كان جوك وراء عجلة القيادة ينظر إلى اليسار باحثاً عن إحدى طائرتي الميج، بينما كنت أتفحص الأفق باتجاه اليمين باحثاً عن الطائرة الأخرى. ومن يمن الطالع أننا أدرنا رأسينا في نفس اللحظة، فوجدنا

أننا نطير في خط مستقيم باتجاه تل، فقفزنـا معاً إلى عجلة القيـادة لتصحيح مسـار الطائرة، فاضطربت الـطائرة القـديمة وشبَّت بعنـاء وترددت هنيهـة وأخيراً كـادت تلمس التل على بعد بضعة أمتار!

كان علينا مع ذلك أن لا ننسى الطائرتين السوريتين. فقد حـاولتا بـأساليب مختلفة أن تهاجمانا تارة معاً وتارة بالتناوب ثم من جديـد مشتركتين معاً. لقـد تولـد لدينا انطباع بأننا كنا نلعب «لعبة القطة» في الأجواء وبسرعة مخيفة. كانتا تطاردانا وكان علينا أن نتفادى الضربات. ولكن كان شعوري بـانه اذا كـانت هذه اللعبـة خطرة بالنسبة إلينا فقد كانت خطرة بالنسبة إليهما أيضاً، كنا نرى بوضـوح طلقات الرصاص المتتابعة تمر أمامنا ووراءنا وأحيـاناً فـوقنا وأحيـاناً أخـرى تحتنا. ولكنهـما كادتا، هما نفساهما، أن تصطدما مباشرة ببعضهما.

إستمـرت الهجمات بـإيقاع متسـارع إلى أن تعرفنـا تحت أقدامنـا على أرض الأردن. وفجأة أصبح كـل شيء هادئـاً. سكن كل شيء فقـد عبرنـا أرض بلادنـا واستدار المهاجمون متجهين نحو سورية.

واصلنا الطيران نحو عمان عـلى ارتفاع منخفض خشيـة أن يكتشفنا الـرادار السوري إذ كان في مقدورهم أن يبعثوا إلينا بقاذفات أخرى تطير في هذه الأنحاء. وعندما ابتعد الخطر تماماً أخذنا في الارتفاع. وفي هذه اللحظة عاد خالي إلى غرفـة القيادة حاملاً سيجارة قدمها إليّ. يا لها من سيجارة، ما ألذ مذاقها!. قال لي فقط وسبابته في الهواء: «عمل رائع!».

جعـل رينور يبحث عن وجبـات الفطور التي لم نتنـاولها. فـوجدنـا الطعـام مقلوباً رأساً عـلى عقب. كل شيء قـد انكفأ أثنـاء المرات العـديدة التي قمنـا فيها بالهبوط العمودي والطيران على شكل قوس دائرة. كان الشاي والقهوة مسفوحـين في كل مكان. ومع ذلك استطاع كل منا أن يتناول كوباً من الشاي.

ثم استمعنا إلى صوت بـرج المراقبـة في عمان وأصـوات الطيـارين الأردنيين الذين كانـوا يطوفـون في الأجواء بحثاً عنا. لقـد عدنـا من بعيد، من بعيـد جداً وباستطاعتنـا أن نكون فخـورين بأنفسنـا. لقد نجـونا حقـاً من خطر أكيـد. لقد

أخلفت موعداً مع الموت كان قد حدد لنا. ولقد تساءلت عن السبب الذي حمل السوريين على مهاجمتنا بهذا الأسلوب الجنوني. وحتى اليوم لم أعثر بعد على جواب.

كانت طائرتي الدوف معروفة من الجميع، الأردنيين منهم والعرب الآخرين. ولم يكن من المعقول أنه قد اختلط عليهم أمرها فاعتبروها طائرة أخرى. كانت تحمل بوضوح شارة القوات الجوية الملكية الأردنية، مع شعاري وعلمي الشخصي. لقد هبطت في دمشق عدة مرات، إحداهما في زيارة رسمية. لم أعتقد لحظة واحدة أن السوريين كانوا يودون إعادتنا من حيث أتينا فحسب، إذ يوجد لهذه الغاية مصطلحات دولية، وإجراءات قائمة بذاتها يعرفها الطيارون في العالم أجمع، لم تطبق بالنسبة إليّ في أية لحظة. كان طيارو الميج يعرفون ذلك أيضاً. ولم تدع هجماتهم المتكررة أي شك حول التعليمات التي تلقوها.

كان السوريون شديدي الحساسية لمجالهم الجوي. فقد اكتشفوا قبل ذلك ببضعة أشهر طائرة مدنية لبنانية فوق دمشق، فأطلقوا عليها نيرانهم بدون إنذار. ولقد تمكن الطيار من النجاة بأن هبط بشكل عمودي نحو الأرض وطار على ارتفاع منخفض باتجاه بيروت. ثم وقعت حوادث أخرى فيما بعد لم يتم جلاء أمرها أبداً. ولكن ما هي الأعذار التي يمكن الاحتجاج بها عندما تضرب بالمدافع الرشاشة الطائرة المدنية المجردة من السلاح؟

ليس ثمة غير جواب واحد في نظري. أنهم كانوا يريدون القضاء علي كما قضوا على ابن عمي فيصل ملك العراق قبل ذلك بثلاثة أشهر ليتخلصوا من الهاشميين. ومن السهل جداً أن يقال فيما بعد بأن هذا الحادث يعود إلى إصراري على الرغبة في الطيران!.

من هم هؤلاء الطيارون؟ من الذي ألغى التعليمات الأولى التي أذنت لي بالطيران عبر الأجواء السورية؟ لم يردنا بالطبع أبداً أي جواب مرض على أسئلتنا من جانب سلطات الجمهورية العربية المتحدة. وقد روعي الصمت المطبق فيما

يختص بمعرفة الشخص الذي صدرت عنه الأوامر المضادة والتعليمات المعطاة لطياري طائرة الميج بإسقاطنا.

بعد دراسة الحادث بشكل جدي، قررنا عدم عرض القضية على الأمم المتحدة. فقد فضلت أن أجعل منها قضية شخصية بدلاً من اعتبارها قضية قومية. فمعرفة وزن الأمور، خيرها وشرها، بهدوء وبمعزل عن انفعال النفس، تدخل في باب مهنتي كملك.

وما من شك في أن هذه المواجهة مع طائرتي الميج السورية كانت اللحظة التي رأيت فيها الموت مني قاب قوسين أو أدنى، طوال حياتي كرجل.

*** عندما تتلفتون إلى الوراء لتتوجهوا بأنظاركم نحو الخمسينيات ألا يتكوّن لديكم انطباع بأن حياتكم كانت أشبه بحياة المغامرين؟. مرة كانت قططكم تأكل من طعامكم فتموت مسمومة. وفيما بعد وضع حامض كيميائي صرف في زجاجتكم التي تحتوي على نقاط لعلاج الأنف...**

- نعم، يتراءى لي أحياناً أنني الشخصية الرئيسية لقصة بوليسية. أنني أصنف المؤامرات في ذهني صنفين متباينين. هنالك من جهة «الضربات الأعظم»، كقضية الزرقاء، التي تهدف إلى الإطاحة بالملكية وتقويض دعائم الأردن. وبهذه المناسبة، إذا كان القضاء المادي على شخصي هاماً بالنسبة للمتآمرين، فهو ليس إلا إحدى المراحل في الدسائس والمكائد التي كانت تدبر. وهنالك من جهة أخرى محاولات اغتيال ضد شخصي ليس لها أية علاقة بالسياسة إطلاقاً. فإذا كانت المؤامرات ضد حياتي وحياتي فحسب، أكثر عدداً من تلك التي دبرت ضد نظام الحكم، فذلك لأن أولئك الذي جهدوا طوال هذه السنين لإيقاع الاضطراب والفوضى في حياة البلاد، قد أدركوا بأنه ليس من السهل خلق ثورة عندنا. كانت آخر المحاولات وأشدها بعثاً على الحزن الأسى، هي محاولة أيلول الأسود عام ١٩٧٠.

ليس من المستطاع، كما أمل بذلك المعارضون، شراء جماعات الوطنيين ذوي الولاء والأخلاص اللذين يعلوان على كل ثمن. كان الخيار الوحيد أمامهم هو إذن التخفي في ثياب القتلة، والعمل في الظلام، بعيداً عن الأنظار الفضولية، ثم قتلي أنا شخصياً، أو قتل بعض الحكام الآخرين، على أمل أن تؤدي هذه الإغتيالات الوحشية إلى زج البلاد في حرب أهلية محتملة.

لقد أحبطت بالفعل إحدى هذه المؤامرات، عندما اكتشفت أنهم يعتزمون اغتيالي بحامض كيميائي صرف. ولكن قبل أن أروي لك هذا الحادث، يجب أن أقوم بعودة قليلة إلى الوراء. سوف لن أقص عليك سائر المحاولات الرامية إلى قتلي منذ هذا اليوم من تموز (يوليو) عام ١٩٥١، وفي المسجد الأقصى بالقدس، بعد الاغتيال الوحشي لجدي، عندما أصابتني رصاصة في صدري فاصطدمت بأحد أوسمتي وارتدت. لا سوف لن أقص عليك كل هذا لأنه سيكون باعثاً على الكثير من الضجر والملل. لقد قادت العناية الإلهية خطواتي طوال أكثر من عشرين عاماً، ولا سيما أثناء هذا الصيف من عام ١٩٦٠ حيث نجوت من الموت مرتين خلال أربع وعشرين ساعة.

في التاسع من آب (أغسطس) ١٩٦٠ خضبت بالدماء، إحدى المؤامرات الوحشية، هدوء الصيف وسكينته. في هذا اليوم أغتيل رئيس الوزراء هزاع المجالي وإثنا عشر آخرون من الأردنيين بأسلوب نذل دنيء، عن طريق تفجير جهاز وضع في مكتب رئيس الحكومة. كان هزاع المجالي رجلاً شجاعاً مولعاً بالحرية واسع الشعبية في سائر أنحاء المملكة. وانني ما زلت أشعر بحزن عميق عندما أستذكر هذه الأحداث بالرغم من مرور خمسة عشر عاماً عليها.

يستطيع أي مواطن، جرياً على العادة المتبعة في بلادنا، أن يقابل رئيس الوزراء في بعض أيام الأسبوع، ليبسط له مطالبه وشكاواه. كان اليوم الذي اختاره القتلة إذن متأثراً بهذه الخاصية لأن من البديهي أن يكون هزاع المجالي حاضراً ليستقبل زواره. ولما كان المتآمرون على علم بصلات الود التي تربطني به، فقد وضعوا القنبلة في مكتبه في ليلة ٢٨ ـ ٢٩ آب (أغسطس) وراهنوا على أنه عند إعلان وقوع المؤامرة، سوف أسرع فوراً إلى مكان الحادث. فوضعوا جهاز تفجير آخر بأسلوب شيطاني مخصص لقتلي مع أناس آخرين.

لقد اعتلّت صحتي بعض الشيء في هذا الصيف. فقد عملت كثيراً إلى الحد الذي جعلني أصاب بالإرهاق والتعب الشديد. يضاف إلى ذلك أن مرض التهاب الجيوب الأنفية كان يقلقني إلى حد ما، فقررت في يوم الاثنين هذا، الواقع

في (٢٩) آب، أن آخذ قسطاً من الراحة. لقد تحدثت مع رئيس الوزراء عشية هذا اليوم فقد كنا جد مرتاحين من الأعمال التي أسفر عنها مؤتمر وزراء خارجية الجامعة العربية الذي انعقد في شتورا في لبنان.

كنت إذن أستريح في مزرعتي في الحُمّر، عندما قرع جرس الهاتف في حوالي الساعة الحادية عشرة، وفي الطرف الآخر من الخط تعرفت على الصوت الحزين لمدير مكتب هزاع المجالي. كانت الجملة التي تلفّظ بها وقتئذٍ موجزة وجافة بحيث أصابني بالجمود:

«يا صاحب الجلالة. إن مكتب رئيس الوزراء قد انفجر وهزاع باشا قد قتل».

أعدت السماعة دون أن أطرح أية أسئلة، وارتديت ملابسي على عجل. تذكرت وأنا أستعد للخروج، سرور هزاع المجالي في مساء اليوم السابق عندما أعرب لي عن ارتياحه لرؤية السلام وقد عاد يخيم على الأقطار العربية، ولانتهاء المؤامرات والدسائس! . إذن ما هي جدوى قمة شتورا التي عقدت حديثاً؟ هل لا بد من العودة إلى عهد الإرهاب والقلق اللذين كانا سائدين في الماضي؟ هل توقيعات وزراء الخارجية التي لم يجف مدادها بعد، قد أصبحت الآن معدومة القيمة؟

كنت وراء عجلة القيادة في سيارتي بعد بضع لحظات، وقد وضعت سلاحاً إلى جانبي، واتخذ جنديان مكانيهما في المقعد الخلفي، وانطلقت باتجاه العاصمة.

عندما اقتربت من ضواحي عمان، اعترضت طريقي سيارة خرج منها وزير الدفاع، ثم وصلت سيارة أخرى كانت تقل حابس المجالي القائد العام للجيش، وابن عم رئيس الوزراء المقتول.

قال لي المجالي: «يا صاحب الجلالة اننا لن ندعكم تتابعون سيركم مهما كان الثمن. إنكم لن تستطيعوا عمل أي شيء الآن. قد انتهى الأمر. وانني قانع بأنكم ستتعرضون للخطر في الظروف الحالية، إذا ذهبتم إلى عمان».

سألته عما وقع بالضبط.

ـ فأجاب: أن نصف المبنى قد انفجر وقد انسحق جسم هزاع المجالي بسقوط سقف مكتبه عليه.

ـ هل عثرتم عليه؟

ـ لم نعثر عليه حتى الآن لوجود الكثير من الأنقاض. كما أن الذين يتولون عمليات الإغاثة، لم ينتهوا بعد من مهمتهم. ولا بد أن يكون الانفجار قد وقع في مكتبه.

رفض الجنرال المجالي ووزير الدفاع مرة أخرى أن أذهب إلى مكان الحادث للاطلاع على الخسائر، ولكنهما اقترحا أن أذهب إلى القصر.

بعد مرور أقل من ساعة على الانفجار الأول، وقع انفجار ثان بنفس العنف، تسبب بمزيد من الخسائر، وقتل مزيداً من الأشخاص الأبرياء، ولا سيما بين من كانوا يتولون الإغاثة، وبين موظفي الرئاسة الذين جاءوا ليساعدوا في إنقاذ الجرحى.

لقد أصبت بالغثيان من جراء كل هؤلاء القتلى، كل هذا الدم وهذا الرماد كان بين الذين قتلوا، صبي في العاشرة من العمر وشيخ في السبعين، وامرأة طاعنة في السن جاءت من بعيد لتقدم عريضة إلى رئيس الحكومة. كان هزاع المجالي قد طلب إلى موظفي مكاتبه إدخال أقل عدد من الأشخاص معاً، فقد كان يخشى وقوع مؤامرة، لا سيما وأن مؤامرة قد أحبطت قبل ذلك ببعض الوقت.

كان لا بد من أن نمسك بزمام الأمور بسرعة فائقة لكي لا ندع أية فرصة للمتآمرين، ولتجنب تشابك الأمور من شأنه أن يؤدي إلى نتائج خطيرة. وبسرعة سمع (صوت العرب) من القاهرة، يذيع بلهجة تتسم بالعدوانية والاستخفاف والغيظ نبأ مقتل «عميل للاستعمار» سيتلوه مقتل آخرين!

وما كدت أبلغ مكتبي في القصر حتى انتشرت أنباء تفيد بأن هزاع المجالي

ما زال حياً، وأنه كان يمسك رأسه بيديه، وأن جسمه مغطى بالدماء. بدأ قلبي ينبض بشدة وقد فاض بالأمل والرجاء. ولكن فرحي لم يدم سوى فترة قصيرة، ويا للأسف فقد اكتشفت جثة صديقي المنكود الحظ ممزقة بفظاعة. كانت وفاته فورية، لأن جهاز التفجير القاتل كان قد أخفي داخل مكتب عمله، وفي أحد أدراجه على وجه التأكيد.

دعوت فوراً أعضاء الوزارة إلى اجتماع غير عادي لتشكيل حكومة في أقرب وقت. لم يكن من السهل استبدال رجل كهزاع المجالي. وقد وقع اختياري على رئيس ديواني بهجت التلهوني.

وإليك على وجه التقريب الكلمات التي وجهتها إلى الحكومة الجديدة. قلت لهم: «أيها السادة ان من الأمور الأساسية تشكيل حكومة في أقرب وقت. لم يكن من السهل استبدال رجل كهزاع قضوا على هزاع، فأصابونا إصابة بالغة، عنيفة في أعماقنا، ولكنهم لم يقضوا على الأردن. فعلينا أن نواصل أداء رسالة هزاع المجالي، رعاية لمصلحة هذا البلد وخيره. ولسوف نثأر لأنفسنا من هذه الإهانة، ومن جريمة القتل هذه، ولكننا، بانتظار ذلك، سوف نعمل بمزيد من العزم والتصميم، لإنقاذ بلادنا من الأيدي المجرمة التي تنوي تدميرها. لقد فقدنا رجلاً من كبار رجال الدولة ولكن، حتى أثناء المحن والشدائد يجد المرء أحياناً بعض العزاء، كالذي يتيح لي الآن أن أخاطبكم، أنتم الذي صان الله حياتكم.

بقي معظم وزراء هزاع المجالي في مناصبهم لنبرهن للعدو بأنه لم يطرأ أي تغيُّر على السياسة التي ننتهجها. وقد واصل التلهوني نفس المهمة ونفس البرنامج كسلفه الذي كان خير صديق له طوال سنوات.

في آخر ساعات النهار استأنف الفريق الحكومي نفسه العمل، كما لو أن شيئاً لم يحدث، وأقسم التلهوني اليمين القانونية. كان كل ذلك أعظم ستار من الدخان نستطيع أن نضلل به أعداءنا ومنتقدينا، فنثبت لهم بذلك بأنهم إذا ما صرعوا رجلاً مهما عظم شأنه، فإنهم لن ينجحوا في تقويض أركان بلد ونظام حكمه.

ولقد أثبت التحقيق فيما بعد أن موظفين من دائرة المطبوعات يعملان في مبنى رئاسة الحكومة، قد غادرا عمان في هذا الصباح، واجتازا الحدود السورية للذهاب إلى دمشق. كانت سورية وقتئذ الاقليم الشمالي للجمهورية العربية المتحدة التي كانت عاصمتها القاهرة. وهكذا تأكدت الشكوك التي ساورتني.

عندما أصبح كل شيء هادئاً، وغدا وجودي في القصر غير ذي ضرورة، عدت إلى مزرعتي في الحمَّر لاستريح بضع ساعات، وأتناول بعض الطعام. وما كدت أبلغ القصر حتى اتصل بي هاتفياً عمي الشريف حسين قائلاً: «يا صاحب الجلالة. إنني أكلمكم بحضور حابس المجالي، ورئيس شعبة مكافحة الجاسوسية. لقد اتضح لنا أنهم سيحاولون قريباً التآمر على حياتكم وأن الشخص الذي اختير لهذه العملية، هو أحد رجال حاشيتكم، اما في الحمَّر أو في القصر. أرجوكم أن تبقوا حيث أنتم. ولسوف نأتي حالاً».

بعد فترة وجيزة، أسمعني رئيس شعبة مكافحة الجاسوسية، تسجيلاً.

قال: «اصغوا إلى هذا يا صاحب الجلالة» وأدار الشريط. سألت من هو؟

ـ فأجاب هو أحد رجالي الذي أصبح منذ فترة قصيرة صديقاً شخصياً لعضو في سفارة الجمهورية العربية المتحدة».

أخذ يقف شعر رأسي كلما طال استماعي للحديث الذي دار بين رجلنا وبين الدبلوماسي الأجنبي والذي كان يتضمن هذه الجملة التي لن أنساها أبداً: «بعد قليل سيلقى حسين نفس المصير. فلدينا رجل من أنصارنا يعمل مع أفراد حاشيته الأقربين. ولسوف ينتهي كل شيء قريباً. ولو استمر في اتباع نفس مألوف عاداته، فقط، لكنا انتهينا منه، منذ مدة طويلة».

وأضاف عمي: «كل هذا صحيح ومؤكد تماماً. ومن الحكمة أن لا تناموا في قصر بسمان في هذه الليلة».

ولما كان اتيان أمر مرة واحدة لا يصبح عادة، لذلك قررت أن أذهب لأنام

عند موريس رينور وزوجته اللذين كانا يقيمان في دار قريبة من مكتبي، في الحديقة الملكية. وهذا من شأنه أن يتيح لجهاز الأمن أن يرصد بسهولة ذهاب واياب الخدم وأن يراقب تحضير وجبات الطعام. أقمت في غرفة صغيرة مخصصة للأصدقاء، وطلبت إلى صديقي أن يعمل على ارسال بعض ملابسي وأغراضي الشخصية التي أعطيته قائمة بها. وجعلتهم يبعثون إليّ أيضاً بزجاجة صغيرة جديدة من النقط الخاصة بمعالجة الأنف، لأن جيوبي الأنفية كانت تؤلمني. ومن باب الاحتياط، طلبت إلى السيدة رينور أن تلقي بالنقط الأنفية الموجودة في جميع الزجاجات المستعملة، فمن يدري!

منذ نعومة أظفاري وأنا أعاني من الجيوب الأنفية. ولقد أجريت لي عملية جراحية في هذه الجيوب عندما كنت تلميذ ضابط في ساند هيرست. كان العلاج الوحيد هو الراحة. ولكن راحتي في الأردن كانت أمراً غير ذي موضوع، لاسيما في هذا الوقت بالذات. فالمسكّن الوحيد لما كان ينتابني من ألم هو إذن تعاطي هذه النقط ولقد كانت متاعبي اليومية والأحداث القريبة العهد، ترغمني على تعاطي هذه النقط باستمرار. ما الذي حملني في هذا اليوم على التخلص من الكمية القديمة التي كنت أدخرها من هذه المادة أية غريزة جعلتني أوصي على كمية أخرى منها؟. لا أدري.

في هذا المساء، بالفعل، عندما طلبت من السيدة رينور أن تحمل إليّ دوائي، نادتني من غرفة استحمامها قائلة: «تعالوا بسرعة وانظروا».

فقد سالت من الزجاجة الجديدة التي فتحتها بعض النقاط، ووقعت في الحوض. لابد للمرء أن يرى ليقتنع. كان السائل يغلي! صببت عندها محتوى كل الزجاجة، فنتج عن ذلك نفس الحادثة! إذ كان السائل يتحرك ويضطرب ثم يغلي ويزداد غليانه ويرغي ويزبد!.

لقد فتنت بهذا المشهد. ثم قالت لي السيدة رينور: «انظروا إلى القعر» فوجدت أن الكروم والدهان قد تجمدا على شكل قشور متراكمة.

كانت التحاليل الكيميائية التي أجريت على السائل صريحة واضحة حاسمة: لقد احتوت الزجاجة على حامض كيميائي قوي شديد يكاد يكون صرفا. لابد أن أحداً من المقربين ـ لأنه استطاع الدخول إلى غرفة استحمامي ـ قد أفرغ الزجاجة أو الزجاجات من محتوياتها الأصلية، وأبدلها بالحامض الكيميائي.

لم نكتشف أبداً المذنب الحقيقي. فإذا رجعنا إلى التسجيلات المغناطيسية، فإنه لا يمكن أن يكون إلا أحد خدمي. كان من الصعب عليَّ أن أتخيل أن يكون أحد هؤلاء الرجال الذين يعملون عندي بأمانة منذ سنين. ومع ذلك اضطررت إلى ابدال سائر الخدم وجميع الأدوية التي كنت أتعاطاها.

إن قضية النقط الأنفية فظيعة حقاً، ولكنها أبعد من أن تساوي في هولها وشناعتها قضية القطط. فالمرء لا يستطيع احصاء القطط في عمان لكثرتها. كان جدي يحب الهررة، وفي عهده كانت مجموعة كاملة من السنانير تتردد على مداخل القصر، بحثاً عما يتمونون به من طعام.

كنت أطوف يوماً في ممرات قصر بسمان التي تحيط بها الزهور، فأصابتني الدهشة المؤلمة من جراء اكتشاف ثلاث قطط ميتة. فاضت نفسي شفقة على سوء مصيرها، اعتقاداً مني بأنها قد ماتت جوعاً. فأنا أيضاً أحب القطط، وطرحت على نفسي بعض الأسئلة بشأنها. وقلت لأول ضابط صادفته: «افعل اللازم لدفن هذه القطط الميتة». مشيراً إلى المكان الموجودة فيه.

ـ ثلاث قطط يا صاحب الجلالة! . ما أغرب هذا الأمر.

ـ قلت: «لماذا»؟.

ـ فأجاب الضابط عندئذ: «بالأمس جمعنا ست قطط في هذه الجهة، وفي اليوم الذي سبقه كان هنالك سبع ملقاة في الجهة الأخرى». اعتراني انفعال شديد. يا للحيوانات المسكينة. كان ذلك حقاً. جميعها قد سممت. لم يرد أحد أن يبلغني بالأمر لأنهم على علم بمحبتي لهذه الحيوانات، ثم لكي لا يثيروا قلقي، وأخيراً لأنهم لم يكونوا متأكدين تماماً من طبيعة السم.

ساورتنا بعض الشكوك حول شخص يعمل في المطبخ. ولكننا احتطنا بحيث لا يكون لهذا الرجل أية علاقة بطعام جلالتكم وأسرتكم.

ـ من هو هذا الرجل؟

ـ لقد وردنا تقرير سري منذ بضعة أيام من ملحقنا العسكري في بيروت، يفيد بأن شعبة مكافحة الجاسوسية للجمهورية العربية المتحدة في دمشق، على صلة حديثة العهد بمساعد طاه هنا في القصر. يدعى أحمد نعنع. وكنا قد اعتزمنا اعتقاله بلا ابطاء».

كان اعتراف هذا الرجل واضحاً محدداً. كان لأحمد نعنع ابن عم في دمشق يعمل في المكتب الثاني السوري، عندما بلغه أن أحمد نعنع يعمل في مطابخ القصر. أقنعه بتسميم الطعام، قاصداً في ذلك بداهة أن يصيبني أنا وأسرتي. وبحكم كون نعنع معدوم الخبرة في أمور السموم، فقد كان يجري تجاربه على القطط! . لقد أقر بملء ارادته وحريته بأنه إذا لم يجر بعد أية محاولة ضدي، فلأنه كان عاجزاً عن تقدير الكميات الصحيحة التي يتعين عليه وضعها. وبالرغم من أبحاثه وملاحظاته، لم تمت أية هرة بسرعة كافية. وأشار إلى أنه قد ارتكب خطأ بترك هذه الحيوانات تتجول في الساحات المعشوشبة من القصر حيث يراها الناس. ولولا ذلك، وخلال فترة قصيرة، فقد كان يعتقد أن بإمكانه أداء رسالته على ما يرام.

ألقي الرجل في السجن. وبعد مرور بعض الوقت. بينما كنت أغادر المسجد بعد أداء الصلاة فيه، بمناسبة إحدى أعيادنا الكبرى، اقتربت مني فتاة صغيرة تحمل نسخة من القرآن الكريم وجعلت تتوسل إليّ أن أفرج عن أبيها الذي لم يكن غير أحمد نعنع. ماذا أستطيع أن أفعل وأنا خارج من بيت الله الذي أمرنا بالرحمة والغفران؟ التفت إلى رئيس ديواني، وقلت له: «اتصل بالسلطات، واعمل على اطلاق سراح هذا الرجل».

أفرج عن أحمد نعنع بعد ساعتين. وتمكّن من الاحتفال بالعيد مع أسرته.

*** تعتبر دوائر استخباراتكم بين أفضل دوائر استخبارات في الشرق الأوسط. فإذا كنتم ما زلتم على قيد الحياة، وإذا كان الأردن ما زال أمة حرة، ألا يعود الفضل في ذلك جزئياً إلى ما تتصف به من مزايا؟**

- قبل عام ١٩٥٦، أي قبل حملة السويس، كانت دوائر الاستخبارات الأردنية محدودة الأهمية على الأقل، بحيث لا تقارن بمثيلاتها لدى جيراننا، إن لم تكن هزيلة. كان ثمة بعض المؤامرات والدسائس والوشايات. لا شيء أكثر من ذلك، حتى أنه حدث مرة أن أباً لأسرة وشى بابن له كان قد غادر سورية مكلفاً بمهمة قتل هزاع المجالي أو خالي الشريف ناصر. كان ذلك على كل حال، قبل بضعة أسابيع من مصرع رئيس الوزراء في مكتبه مع أشخاص آخرين.

لم أحبب شخصياً في يوم من الأيام كل هذه التدابير الأمنية التي كانت تحيط بي، ولكن ازاء موجة التحديات والهجومات التي كانت توجه ضد بلادي، اضطررنا إلى إنشاء شبكة للمخابرات أشدّ فعالية وأكثر مضاء. وإنني أعتقد بأنه ليس لدينا اليوم ما نحسد عليه أيا من جيراننا، بل أن الأمر هو العكس تماماً.

ومن ناحية أخرى، كان علينا أنا وخالي، أن ننقذ أنفسنا من كمين نصب لنا قبل بضعة أشهر من رحيل كلوب عن الأردن. فقد اعتدت أن أتناول طعام العشاء في مزرعتي في الحمّر، عندما كانت حرارة الصيف مرهقة مضنية. لم تكن قائمة بعد، الدار الجميلة التي عملت على انشائها فيها بعد، لتتخذ منها أسرتي مسكناً لها، وإنما كان ثمة مبنى صغير تعود ملكيته إلى جدي. كنت أتنقل بلا حرس يرافقني. وكثيراً ما كان يختلط على الناس الأمر، فلا يميزون بيني وبين خالي الشريف ناصر، لاقتنائنا سيارتين من طرز بويك متماثلتين.

في إحدى الأمسيات، سبقني خالي على الطريق إلى الحمَّر، بينما كنت قد أمضيت فترة بعد الظهر في جرش، المدينة الرومانية القديمة.

أبصرت فجأة على ضوء مصابيح سيارتي، سيارة خالي واقفة في عرض الطريق، وعجلتاها الأماميتان منحدرتان في حفرة. كان يبدو على الشريف ناصر أنه قد أصيب بصدمة أذهلته بعض الشيء. وكانت ملابسه مغطاة بالتراب. قال لي بادئ ذي بدء أنه وقع ضحية انفجار لإطار إحدى عجلاته. فلما اقتربت، رأيت ثقبين أحدثهما الرصاص في النافذة الأمامية لسيارته على مستوى عجلة القيادة، وقد أحصينا تسعة ثقوب في السيارة، أحدها أصاب إطار العجلة الأمامية اليسرى.

لقد كان القتلة ينتظرونني منذ أن أقبل الظلام، لعلمهم بأنني لا بدّ من أن أمر بهذا المكان. إلاّ أنه اختلط عليهم أمر التمييز بين سيارتينا. عندما أبصروا سيارة البويك، أضاءوا مصابيحهم لإصابة عيني السائق بالبهر والعشاوة، ثم فتحوا النار من سلاحين أوتوماتيكيين. لقد توفر لخالي الوقت للتوقف وإلقاء نفسه خارج السيارة، حتى أنه تمكن من انتضاء سلاحه وإطلاق النار مرتين على القتلة الذين وثبوا داخل سيارتهم وفروا باتجاه عمان.

إندفعت داخل سيارتي وانطلقت في أثرهم. كانوا متقدمين عليّ فترة عشرة دقائق. وعلى الرغم من الوصف الذي أعطانيه خالي لم أستطع اكتشاف سيارتهم. ولم نتمكن أبداً، على كل حال، من العثور على مرتكبي هذا الاعتداء.

لقد وقعت فيما بعد، محاولات ومؤامرات أخرى، ولعلّ تعدادها يغدو مملاً باستثناء واحدة تستحق أن نتوقف عندها.

قليل جداً من الأشخاص، وبالذات من رجال حاشيتي المقربين، من كان مطلعاً على سر وضع من الترقب والقلق استغرق أسابيع خمسة. وبالفعل خلال الخمسة والأربعين يوماً التي دامته رحلتي إلى الولايات المتحدة في عام ١٩٥٩، كان إلى جانبي متآمر. رجل كان يريد قتلي! كنا نعيش معاً، ونأكل معاً. كان دوماً

بقربي في السهرات الرسمية. ولقد قدم إلى القادة والحكام الأمريكيين. ولكنني كنت أعرف أن وراء ابتساماته وانحناءاته، يختفي زعيم مؤامرة، عقد العزم على الإطاحة بنظام الحكم الأردني.

كان هذا الرجل، هو اللواء صادق الشرع، رئيس أركان حرب القوات المسلحة. لماذا كان إلى جانبي؟ قبل قليل من مغادرتي الأردن للقيام بهذه الرحلة الأمريكية الطويلة، تكوّنت لدي قناعة بأن صادق الشرع وبعض الضباط قد دبروا ضربة ترمي إلى الإطاحة بي خلال وجودي في الخارج. كانت الخطة قد أعدت بدقة، بمساعدة بعض الأقطار الأجنبية. وقد علمت فيما بعد، أن بين الأعمال التي كان يعتزم تنفيذها، احتلال مقر قيادة الجيش واغتيال القائد العام، وقذف قصر زهران بالقنابل، حيث كانت تقيم أسرتي إلخ . . . ، لم يكن صادق الشرع من الرجال الذين يكتفون بالتدابير الناقصة، فقد قال لشركائه: «عندما تبلغون زهران، لا تضيعوا الوقت في إطلاق النار بالبنادق، بل استخدموا المدافع رأساً».

كان يبلّغني عن أفعال وحركات صادق الشرع، ضابط من الموالين، كان يلعب لعبته ليطلعني بانتظام على المجرى الذي تتخذه الحوادث. لم يكن لدي حقاً أي برهان محسوس على المؤامرة مع أن بداهتها كانت تبدو أكثر وضوحاً يوماً بعد يوم، وما كنت لأستطيع على كل حال أن أعتقل هذا الجنرال، ما دام أن البدء بالتنفيذ لم يتم بعد. واقتربت ساعة رحلتي.

ما العمل؟ إتخذت القرار الممكن الوحيد: وهو أن أمضي به معي طوال هذا الارتحال الطويل الأمد. فيكون على الأقل تحت رقابتي. تعلّل بكل ضروب الاوجاع والموانع الشخصية لكي لا يرافقني، ولكنه لم يستطع التملّص. كانت رغباتي بمثابة أوامر!.

كنت مبتهجاً بالقرار الذي اتخذته، وبالموقف الذي وضعت فيه رئيس أركان حربي. عندما بلغت الولايات المتحدة، كان معظم المتآمرين قد اعتقلوا وألقوا في غيابة السجن. أما رفيق السفر المزعج، فقد استبد به القلق المتزايد. كانت الأنباء

الوحيدة التي يملكها، تصله بواسطة الصحف الأمريكية، لأنني أصدرت أمري قبل مغادرة عمان بأن لا يشار إلى اسم صادق الشرع مهما كان الأمر، في البرقيات أو الرسائل التي كان يبعث بها إليّ. يضاف إلى ذلك أنه لم يطلع على أية برقية، رغم محاولاته المتكررة. كان يقرأ سائر الصحف التي كانت تقع تحت يديه، فيعلم يوماً بعد يوم باعتقال وسجن أصدقائه، ويخشى أن يشي به أحدهم اخيراً. لقد راودته نفسه بالتواري والتخلي عن مرافقتنا، ولكن ذلك كان مستحيلاً.

إتصل في واشطن ثم في نيويورك بالأردنيين في محاولة لمعرفة المزيد عن الأمور إلّا أنه لم يكن أحد يعرف شيئاً عن ذلك. كان كل التماس له مرفوضاً، سواء لملازمة غرفته أو لأية أعذار أخرى. فقد صممت أن لا يبتعد عني قيد أنملة طوال سائر رحلتي.

في لندن، على طريق العودة، أحس بأن الأمور تسوء بالنسبة إليه، فطلب أن يدخل المستشفى لإجراء «عملية مستعجلة»، مؤكداً أنه سوف يلحق بنا فيما بعد إلى عمان. ولكن الإذن بذلك قد رفض، إلّا أنني وعدته بأنه عندما يعود إلى عمان وتسوء حالته الصحية، فلسوف يكون بإمكانه العودة إلى إنكلترا لإجراء هذه العملية ذات الضرورة الملحة. بعد قليل من عودتنا، جرى اعتقاله وسجنه، وحكم عليه بالإعدام. وقد خفف هذا الحكم إلى السجن مدى الحياة. ثم عُفي عنه وأطلق سراحه فيما بعد. وهو أيضاً يشغل اليوم مناصب مهمة.

*** لماذا لم تحاولوا عرض «القضية الأردنية» على العالم في وقت مبكر، على الأمم المتحدة مثلاً؟**

ـ لقد حاولت طويلاً أن أتفادى ذلك. كانت المشكلة عربية بالذات ولا تعني سوى العالم العربي. كنت أكره أن أبسط غسيلنا القذر أمام الآخرين، إلاّ أن المقتل الوحشي لهزاع المجالي أرغمني على إعادة النظر في موقفي، فقررت، بعد شهر من مصرع رئيس وزرائي، أن أتوجه إلى منظمة الأمم المتحدة لإلقاء خطاب هناك. كان ثمة بواعث عديدة تدفعني إلى أن أفعل ذلك.

فقد أصبحت هذه الهيئة الدولية، منذ بعض الوقت، الهدف المفضل لخروتشوف والشيوعيين. لم يكن الزعيم السوفياتي ليخفي عداءه للسكرتير العام داغ همرشولد. كان يعتلج في نفسي شعور واضح جداً بأن العالم الشيوعي وبعض الأمم التي تدعي الحياد، قد تعاظمت أهميتهم باستمرار وأخذوا يستخدمون منبر الأمم المتحدة مكاناً لدعايتهم.

كان هناك كتلتان تتجليان: الأمم الحرة التي تريد أن تبقى حرة. ثم الآخرون. كان يساورني خوف شديد فيما يختص بالاختيار الذي سوف تمارسه الأمم الأفريقية التي استقلت حديثاً.

ثم، ولا سيما بالنسبة إلى سائر ما يتصل بنا من قريب في الشرق الأوسط، كنت لا أحب هذه الامتيازات التي يدعيها لنفسه الرئيس عبد الناصر كناطق بلسان العالم العربي. فليست له في ذلك أية صفة أو أي حق. لقد مات الرجل حقاً، فلا يليق أن نثير جدالاً حول هذا الموضوع، ولكن آنذاك كنت أعتبر أن من

واجبي إبلاغ الأمم المتحدة بذلك، خاصة فيما يتعلق بازدياد حدة التوتر بين الجمهورية العربية المتحدة والأردن.

كنت أعتقد أن لي أيضاً رأيي الشخصي الذي من حقي الإدلاء به حول بعض القضايا الحيوية بالنسبة إلينا نحن العرب، كالقضية الجزائرية، أو قضية وجود إسرائيل. سيكون صوتي ضعيفاً حقاً، إذا ما قيس بصوت الروس أو أصدقائهم، ولكنني قررت الذهاب إلى نيويورك، سواء سمعوني أم لا.

كنت أفكر بأنني سأقوم برحلة سريعة وسهلة ولكن دون أن أعتمد على «معونة» جيراننا في الجمهورية العربية المتحدة. ولما كان لا يوجد آنئذ خط مباشر للطيران بين عمان ولندن لطائرات الكوميت التابعة لشركة الخطوط الجوية البريطانية التي تخدم مناطق الشرق، فقد طلبت أن تهبط في الأردن بشكل استثنائي إحدى الطائرات النفاثة الإنكليزية لكي تأخذني مع حاشيتي. فقبل الطلب.

بموجب الاتفاقيات الدولية، أبلغت شركة الخطوط الجوية البريطانية، دمشق بالتغيير الذي طرأ على خط سير الطائرة وبوجودي على متنها، وبطيرانها عبر أجواء سورية. بعد أن قبلت دمشق هذا البرنامج الجديد ووافقت على التحليق عبر أراضيها، عادت فرفضت رفضاً باتاً. وبعبارة أخرى لا تستطيع طائرة الكوميت أن تحط في عمان لتأخذني. فاضطررت عندها أن أستعير طائرة قديمة تعود للخطوط الجوية الأردنية، وعرّجت على السعودية والسودان لأبلغ لندن أخيراً ماراً بطرابلس الغرب ومالطا. لقد تحوّل طيران طبيعي يستغرق سبع ساعات إلى رحلة دامت ثلاثاً وعشرين ساعة. ولكن لا شيء كان في مقدوره أن يعيق سفري إلى الولايات المتحدة. وفي لندن أخذت أول طائرة متجهة إلى نيويورك.

غداة وصولي، جاءني السكرتير العام للأمم المتحدة إلى الفندق في زيارة مجاملة كانت على ما يبدو امتيازاً نادراً. وقد علمت فيما بعد أنني كنت في الواقع رئيس الدولة الوحيد الذي جاء لتحيتي في هذه الدورة. وهذا ما تأثرت له شديد التأثر. لقد كنت دوماً أكن لهذا الدبلوماسي السويدي الذي كرّس حياته لقضية

الحرية، الكثير من التعاطف والاحترام. وقد كان مصرعه ضربة قاصمة لأصدقاء حقوق الإنسان.

لم يكن من السهل كتابة هذا الخطاب المهم الأول، لحكمي الملكي الفتيّ، ولكن هذا العمل كان جزءاً من مهنتي. كان أمامي يومان. وعلى عكس ما كان يفعل رؤساء الدول الآخرون الذي اعتادوا تكليف مساعديهم ومستشاريهم بكتابة خطاباتهم فقد أعددت خطابي عملياً بنفسي. لقد مورست عليَّ ضغوط مختلفة جاءت من كل جانب تشير عليّ بالاعتدال في أقوالي وعباراتي، ولكن، حسبما قلت فيما بعد لأحد الدبلوماسيين الذي طرح عليَّ السؤال: «لم أقم بهذه الرحلة الطويلة المضنية التي امتدت عدة آلاف من الكيلومترات، لألقي فقط بعض المألوف من مبتذل الكلام».

إن منظمة الأمم المتحدة، بالنسبة إلينا نحن الشعوب الصغيرة لشيء سحري يمنحنا في الوقت نفسه، الحماية والسلام والتقدم. وقد كنت مصمماً على أن أقول كل ما كان يعتلج في نفسي. وإلاّ فالأفضل أن أبقى في بلدي.

أنهيت خطابي في الرابعة من صباح الثالث من تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٦٠. ودخلت مبنى مانهاتان الزجاجي في التاسعة والنصف. كان عليَّ أن ألقي خطابي في العاشرة، ولكن خروتشوف تقدمني. ففي خطاب بالغ العنف حمل على منظمة الأمم المتحدة وعلى مختلف مظاهر الحياة في العالم الحر، مزدرياً ومستصغراً كل ما نؤمن به من أمور. كان لديّ انطباع بأن كلمتي التي أعددتها سوف تكون جواباً ممتازاً على تهجماته. وعندما بدأت خطابي، نهض السكرتير العام للحزب الشيوعي السوفياتي ووفد الجمهورية العربية المتحدة وغادروا القاعة. ولكنني لم أكترث لذلك إطلاقاً، لأنني لم أكن إليهم أتوجه بخطابي، وإنما كان حديثي موجهاً إلى العالم الحر. بعد مرور خمس عشرة سنة، ما زال خطابي يمثل المبادئ التي أدافع عنها. لقد كان هذا الخطاب أهم ما ألقيته طوال ربع قرن من الحكم الملكي. وانني أستطيع إلقاءه الآن دون أن أعدِّل فيه فاصلة أو كلمة.[1]

(١) أنظر الخطاب ملحقاً في الصفحة (٢٤٦).

لقد تأثرت، بعد القاء خطابي من تلقي التهاني من الرئيس أيـزنهاور والمستر ماكميلان وحتى من المسـتر نهرو. ولقد دعـاني الرئيس فيـما بعد إلى البيت الأبيض ودار بيننا حديث هـام امتد فـترة طويلة. وأقـام السيد همـرشولـد على شرفي حفلة عشاء خاصة أن هذا الرجل الذي استغرقته المشاغل، ووجه إليه قبل وفاته الكثـير من الـذم والقدح، قـد تمكن من التفرغ بعض الـوقت، على الـرغم من التزامـاته المضنية، للمجيء مرة أخرى إلى الفندق الذي أقيم فيه، لتحيتي قبل رحيلي.

لقـد مات أيـزنهاور، ومات نهرو وهمـرشولـد، وأدركت الوفـاة خروتشـوف وعبد الناصر، وما زلت هنا دوماً باقياً. أما القضية الفلسطينية، فما برحت على مـا هي عليه، رغم التصويت المتكـرر الحديث العهـد حولهـا، ورغم ما صـدر بشأنها مؤخراً من مقررات.

*** بعد فترة على الأقل مضطربة، تعرضت حياتم خلالها للخطر مرات عديدة، يبدو أن خصومكم، مع بداية الستينيات قد غيروا من أساليبهم ازاءكم، فازدادوا احتراماً لشخصكم، وعاملوكم كرئيس دولة حقيقي، كما تعاظم وزنكم باستمرار على المسرح الدولي.**

- لم يستنكر العالم مصرع رئيس وزرائي هزاع المجالي، عموماً فحسب، بل أن بعض الأقطار العربية التي لم تكن بين أقل الدول العربية أهمية، لم تستحسن اطلاقاً هذا الاعتداء البشع. يضاف إلى ذلك أن خطابي في الأمم المتحدة قد أنالني مكانة رفيعة جديدة في ميدان الشرق الأوسط. ومنذ ذلك الحين، لم يعرفوني فحسب، بل عرفوا أيضاً، وبشكل خاص، بلادي وما يشغلها من هموم ومشاكل. لقد كنت مرغماً على أن أذيع من على منبر أهم المحافل الدولية، وقائع احتفظت بها لنفسي فترة طويلة. وكنت مستعداً للاستمرار في السكوت عنها، لو لم يأتوا في عقر داري فيشيعوا الاضطراب والارهاب.

وما من شك إذن في أن المذنبين سيزدادون شعوراً بالأثم فيما بعد. وعلى ذلك كان من واجبي أن (أبسط لهم يدي) وأن أحاول إيجاد التقارب بيننا. فخطوت إذن الخطوة الأولى بأن كتبت رسالة شخصية إلى الرئيس عبد الناصر طلبت إليه فيها أن يبذل ما في وسعه لتحسين العلاقات بين الجمهورية العربية المتحدة والأردن. وأن يضع حداً للدعاية المعادية التي كانت تشنها ضدنا اذاعتا القاهرة ودمشق منذ خمس سنوات. وقد ضمنت رسالتي أيضاً ما كنت أرجوه من إمكانية الاجتماع به خلال الأشهر المقبلة لنجري معاً محادثات صريحة ومخلصة، حول سائر القضايا التي باعدت بيننا والتي يمكن أن تفرق بيننا في المستقبل.

بعـد ثلاثـة أسابيـع، وفي نهاية شبـاط (فـبرايـر) من عـام ١٩٦١، أجـابني الرئيس المصري بكتاب في منتهى الود، وأستطيع أن أقول بكتـاب يمتلىء حـرارة، دعاني فيه بـ (صاحب الجلالة) أو (أخي) وشاركني فيـه وجهات نـظري وأفاض في طياته بالعبارات التي تنسجم مع ارائي ومعتقداتي. ولا شـك أنه كـان مشغولاً بمـا فيه الكفاية بالهموم والمتاعب التي كان يثيرها حلفاؤه السوريون والعـراقيون بحيث كان الاستمرار في اشاعة الاضطراب في بلادنا يتطلب منه المزيد من الجهود. وعلى ذلك نشأ بيننا، منذ ذلك الحين، نوع من الهدنة.

كان هذا بداية عهد سعيد تـوافق من ناحيـة أخرى في ٢٥ أيـار (مايـو) مع زواجي بفتاة انكليزية شابة، كريمة مقدم في البعثة العسكرية البريطانية في الأردن، وهي المس جاردنر الشهيرة باسم الأميرة منى. أثار هذا الزواج حقاً بعض المشاكـل من الناحيتين الدستورية والدينية ولكن تمت تسوية سائـر الأمور بسرعـة. وقد دام زواجنا اثنتي عشرة سنة، أنجبت لي زوجتي الثانية خـلالها أربعـة أطفال: صبيـان هما عبدالله وفيصل، وابنتان سميتا زين وعائشة.

لقد بدا أنه قد بزغ فجر عهد جديد بالنسبة لبلادي. فقد أتاح لاقتصـادنا، الهدوء الذي تلا فترة بالغة الاضـطراب، قفزة كـان في مسيس الحاجـة إليها. كنـا بالطبع نتمتع بمسـاعدات خـارجية وعـلى الأخص بمعونـات أمريكيـة وانكليزيـة، ولكن كان لدينا مواردنا الخاصـة. وكنت عازمـاً على استثـمارها وعـلى العمل عـلى ازدهارها.

كـان قطاعنـا الاقتصادي الأول عهـدئذ يتـألف من الفوسفـات والبـوتـاس وتصفية البترول والسياحة التي كانت تجتذب سنـوياً مئـات الآلاف من الأشخـاص القادمين من العالم أجمع لـلاستغراق في الخشـوع والتأمـل الروحي بجـوار الأماكن المقدسة.

أنشئت مصفاة جديدة في الزرقاء تتيح معالجة (١٨١) ألف طن من البترول الخـام اعتباراً من عـام ١٩٦١ وكمية مضـاعفـة بعـد مضي ثـلاث سنـوات. أمـا

الفوسفات فقد حقق نهضة أكثر اتساعاً. كانت صادراتنا منه في عام ١٩٦١ (٣٢٠) ألف طن، فبلغت (٦٦٠) ألف طن في عام ١٩٦٤ وتضاعفت الكمية المصدرة في عام ١٩٧٠. وأما الأسمنت الذي كان صناعة ناشئة يتراوح إنتاجها في حدود (٨٥) ألف طن في السنوات الأولى من حكمي الملكي، فقد ازداد إنتاجها حتى بلغ (٣٢٠) ألف طن في عام ١٩٦٥. لقد رأت النور صناعات أخرى كان لها تأثير داخلي بشكل خاص، ولكنها كانت تؤمن العمل لعشرات الآلاف من العمال كمطاحن الحبوب وصناعة الدخان والمعلبات.

وظهر جيل من الأردنيين وخاصة من الصناعيين ومدراء الأعمال والتجار على الطراز الغربي، ومن الرجال الذين يتعاطون المهن الحرة، ومن المدرسين الحائزين على الشهادات من الجامعات الأجنبية، كما وضع الحجر الأساسي للجامعة الأردنية.

لقد انفتح أمامنا عصر جديد حقاً. ولكن إلى متى سيدوم؟.

كنا في حاجة إلى هذه الوثبة الجديدة، إلى هذا الإندفاع. ولما كنا لا ننسى أننا في الأردن شعب زراعي، فقد بذلت جهوداً خاصة في هذا المجال. كان الشروع في إنشاء قناة الغور الشرقية قد غدا ضرورياً لري السهول في شمالي البلاد. وقد أنجزت الأشغال الخاصة بذلك في عام ١٩٦٦ وبلغت نفقاتها خمسة ملايين جنيهاً استرلينياً.

أتاحت هذه القناة البالغ طولها (٦٥) كيلو متراً والتي تسير في خط مواز لنهر الأردن، أتاحت ري أربعين ألف فدان من الأراضي الإضافية بمياه نهري الأردن واليرموك. وهكذا استطعنا، منذ ذلك الحين ليس تنظيم مجرى المياه فحسب، وهي مياه كانت تأتي عالية أحياناً، ومنخفضة إنخفاضاً خطراً في السنين الأخرى، ولكن تمكنا بشكل خاص من معادلة إنتاجنا من القمح الذي كان يعطي في السنوات الجيدة كعام ١٩٥٦ (٢٤٥) ألف طن وفي السنوات العجاف، كعام ١٩٦٠ (٤٣) ألف طن فقط، وهو ما كان يحمل بين طياته الكوارث والنكبات.

بفضـل هذا المـاء الذي بعثت بـه إلينا العنـاية الإلهيـة ازداد سائـر الإنتـاج الزراعي. بنسب محسوسة جداً. حتى الماشية انتفعت به فقد كانت قطعـانها لدينـا قليلة الأهمية نسبياً في الخمسينيات، فارتفعت أعـدادها الى (٨٠٠) ألف رأس من الغنم و(٦٥٠) ألف من الماعز و(٦٥) ألف من البقر و(١٩) ألف من الجمال.

إن كـوني ملكاً لـلأردن يعني أن أتولى العنـاية والإهتـمام بكـل شيء بشغف وكلف وحماسة. وما زالت، حتى يومنا هذا، جميـع القطاعـات وأسباب تـطويرهـا وتنميتهـا محل اهتـمامي اليومي، فـأطلب من أجلها التقـرير تلو التقـريـر وأقـابـل المسئولين، وأقوم بالزيارات المفاجئة.

إن خطط التنمية لدينا موجودة هنا للتنبؤ ولتقديم الخـطوط العريضـة لأردن المستقبل وأن ما يعتد به في نظري هو الأرقام الباردة التي لا تتأثر بالميول والأهـواء، الأرقام الدقيقة. لقد ازداد دخلنا القومي مقـدار ستين بـالمائـة بين عـامي ١٩٥٤ و ١٩٥٩. وفي فجر حرب حزيران ١٩٦٧ بلغ ثلاثة أضعـاف ما كـان عليه في عـام ١٩٥٤ كل شيء قد انطلق من الستينيات. سـواء في ذلك تـطورنا الاقتصـادي أو الاجتماعي أو الثقافي. أما ميناؤنـا الوحيـد على البحـر الأحمر، ميناء العقبة، فقـد ضـاعف من شحنـاتـه الصـادرة والـواردة بـين عـامي ١٩٦١ـ ١٩٦٧، وازدادت نقلياتنا على الطرق البرية. كما اتسع نـطاق النقل الجـوي اتساعـاً جديـداً وبلغت السياحة عندنا نسباً في غاية الأهمية. كل هذه الآمـال، كل هـذه النتائـج المشجعة قـد أوقفتها فجـأة حرب عـام ١٩٦٧. ولولا هـذه الحرب لكـان الأردن منذ عـام ١٩٧٠ بلداً قادراً على سد حاجاته بنفسه دون معونة خارجية.

ولكن هذا الهدوء الوقتي العابر في الحياة الداخلية لبلادي لم يمنعني من النظر إلى ما يجري في الخارج، فالإتفاق بين العرب قد تعقـدت أموره وارتبكت أحـواله باستمرار، وشهـر العسل بـين مصر وسوريـة قد تمـزق كيانـه إلى أن أصيب أخيراً بالتلاشي والإنحلال. فاعـترفت فوراً بـالحكومـة السوريـة الجديـدة. وقامت بيني وبينها علاقة اتسمت بالمجاملة وحسن المعاملة. وهـذا ما لم يلق عنـد عبد النـاصر قبولاً أو رضى. وهو أمر طبيعي. ولكن ماذا فعـل لارضائي طـوال هذه السنـوات

الماضية. لقد قلت له ذلك على كل حال بصريح العبارة، في خطاب أذيع على موجات الأثير، وجهته إلى شعبي، قبل قليل من حلول عيد الميلاد عام ١٩٦١. وبعبارات غير مقنعة، قلت له بصراحة بأنني سوف أستمر في مكافحة الاستبداد وما أقامته مصر في سورية من اضطهاد وفساد، وكانت تنوي تطبيقه علينا. ولم يتسرب أي شك إلى ذهني من أن خطابي لا ينطوي إطلاقاً على أي هجوم على الشعب المصري، بل على حكامه فحسب.

تقاربت أيضاً مع العربية السعودية التي أخذت تبتعد عن القاهرة. وفي آب (أغسطس) من عام ١٩٦٢ قررنا أنا والملك سعود أن نوحد جيوشنا وأن نزيد أيضاً من تنمية التعاون الاقتصادي بيننا. وبعد مرور شهر على ذلك، نشبت حرب اليمن الطويلة التي كان يتصارع فيها نظام الحكم الجمهوري الذي يدعمه عبد الناصر، ونظام الامام الملكي الذي كانت تسانده القوات السعودية.

إلا أن الأحداث تجري بسرعة في الشرق. فعبد الكريم قاسم، جلاد الأسرة المالكة في بغداد في تموز (يوليو) من عام ١٩٥٨، ذهب ضحية للعقيد عبد السلام عارف. وحل فريق من البعثيين محل حكومة قاسم التي كانت قد قطعت علاقاتها مع القاهرة، وبذلك ثار موضوع الاتحاد مع مصر. وفي هذه المرة، ليس مع سورية فحسب، بل مع العراق أيضاً.

أبدلت رئيس وزرائي وصفي التل الذي كانت القاهرة قليلة الميل إليه، بسمير الرفاعي في آذار (مارس) من عام ١٩٦٣. وفي (١٧) نيسان (أبريل) وقع جيراني الثلاثة على وثيقة اتحادهم فاستتبع ذلك قيام سلسلة من المظاهرات في عواصم العرب الكبرى ولم تنج عمان من هذا النوع من المسيرات التي تحولت بسرعة إلى شغب وفتنة. كان بعض المحرضين الشباب يصرخون باسم عبد الناصر، ويتعرضون بالأذى للسكان المدنيين وللمباني العامة. وفي (٢٠) نيسان (أبريل)، قتل أربعة أشخاص وجرح ثلاثون في القدس. وفي مساء اليوم نفسه أسقط البرلمان الحكومة. فعينت عمي الشريف حسين رئيساً للوزراء وعقدت مؤتمراً صحفياً لم أكتم فيه غيظي من هؤلاء البرلمانيين الذي أسقطوا الرفاعي

ولكن، تفادياً من ازدياد تفاقم الأمـور، هنأت الإتحـاد المصري السوري العـراقي الذي كنت على استعداد تام للتعامل والتعاون معه.

لقـد عانينـا طوال سنـين من تدخـل العناصر الأجنبيـة في السـير الـداخـلي لأعمالنا، وقاسينا الأمرين في حمل الآخرين على احـترامنا. وقـد مورس كـل أنواع الابتزاز على أرضنا باسم القضية العربية والتقارب الكبـير. إن أفعالاً كهـذه ينبغي أن لا تتكرر، وعليَّ أن أبدو حازماً. لذلك أجرى العسكريون تفتيشاً دقيقاً في سائر أنحاء البلاد لتجنب كل تحريض أو كـل محاولـة للقيام بثـورة أو انقلاب. وهكـذا تغلب الحزم. ليس فقط لم يحدث شيء عندنا، بل حدث بعد مرور بعض الوقت، في تموز (يوليو) أن تعثَّر اتحـاد الأقطار الثـلاثة. ووجـد عبد النـاصر نفسه وحيـداً، وحيداً حقاً، فعمد، حفاظاً على مـاء وجهه، إلى الـدعوة إلى قمـة عربيـة تعقد في القـاهرة في كـانون الثـاني (ينايـر) ١٩٦٤. وقد دعيت إليهـا. ومرة أخـرى كانت «لقاءات مؤثرة» ولكن عليَّ أن أعترف بأن الرئيس عبد الناصر، قد تغير كثيراً. لقد بـدأ يشيخ بعض الشيء. حتى أنـه تكوَّن لـدي انطبـاع بأنـه كـان في حـاجـة إلى مساندتي. تلاقينا عدة مرات في هذه السنة. في آذار (مـارس) وفي الصيف، ثم في مؤتمر الإسكندرية في أيلول (سبتمبر).

نوقشت في القاهرة، نقاط أساسية ثلاث: قضية ميـاه نهر الأردن التي كانت تود سورية تحويل مجراها. وإنشاء قيادة مشتركة برئاسة الفريق علي عامر، وأخيراً، وبشكل خاص، الدعم غير المشروط لمنظمة التحرير الفلسطينية التي كان يتزعمهـا وبقي يتزعمها أحمد الشقيري.

*** ألا تشعرون يا صاحب الجلالة بأنه على أثر مؤتمر القاهرة قد بدأت مشاغلكم الأولى مع المنظمة والصدامات الأولى مع المقاومة التي أدت فيها بعد إلى أحداث أيلول الفاجعة في عام ١٩٧٠؟**

ـ هذا جد محتمل. وأن التاريخ وحده هو الذي سيفصل في ذلك. في ٢٨ أيار (مايو) من عام ١٩٦٤، عقد الفلسطينيون مؤتمراً وطنياً في القدس، اشترك فيه ما يزيد على الأربعمائة مندوب. وفي هذه المناسبة أعلن الميثاق الوطني الفلسطيني. وقد نص في هذه الوثيقة على أن فلسطين كل لا يتجزأ وأن دولة إسرائيل غير شرعية وأن منظمة التحرير الفلسطينية هي صاحبة الأهلية الشرعية «لتحرير أرض فلسطين» ولكنها سوف لن تمارس أية سيادة على الضفة الغربية من المملكة الأردنية الهاشمية. ويقول الميثاق أخيراً بأن المنظمة سوف تتعاون مع سائر الدول العربية ولكنها سوف لن تتدخل في الشئون الداخلية لهذه الدول.

استقرت منظمة أحمد الشقيري في جميع العواصم والمدن الكبرى العربية ولا سيما في عمان. ولكن الشقيري لم يحترم منذ البداية الإلتزامات التي وقع عليها في القدس. فقرر أولاً فرض ضريبة على سائر الفلسطينيين مهما كانت جنسياتهم ثم تجنيدهم في صفوف المنظمة. وحاول بعدئذٍ أن يزودهم بالسلاح وخاصة أولئك الذين يعيشون في جوار الحدود الإسرائيلية. وما من شك في أنه إزاء مثل هذه التصرفات، لا بد أن يزداد التوتر بين الأردنيين وممثلي المنظمة. فقد جرت مشادات بينهم خلال مؤتمر قمة الإسكندرية في أيلول (سبتمبر) من عام ١٩٦٤، وحدث مزيد منها أيضاً أثناء انعقاد مؤتمر الدار البيضاء بعد مضي سنة. فقد كان الشقيري يرغب في تسيير الأمور على هواه أكثر فأكثر، بما يتعارض مع الإلتزامات التي تعهد

بمراعاتها. ولم يكن من الممكن التساهل في هذا الشأن، لأنه كان علينا أن نحافظ على وحدة بلادنا.

ثم في الأشهر الأولى من عام ١٩٦٥ ظهرت منظمة فتح، يدعمها حزب البعث السوري، فبرز على مسرح الشرق الأوسط رجل جديد غير معروف إلا قليلاً من الجمهور، وأخذ يتعاظم شأنه شيئاً فشيئاً بمرور السنين، حتى اعترف به العالم بأسره، بعد مضي عشرة أعوام وأعني به ياسر عرفات. وبظهور فتح تطورت الأمور بسرعة.

ازداد التسلل نحو إسرائيل وخاصة انطلاقاً من الأردن، الأمر الذي لم أستطع قبوله. فقد قلت وأعدت القول مراراً وتكراراً منذ ذلك الحين، بأنني لا أريد أن تحدث عمليات الانتقام الاسرائيلية ضحايا أردنيين أبرياء، من جراء عدم احترام المنظمة للوثيقة التي وقعت عليها في أيار (مايو) من عام ١٩٦٤.

في الخامس والعشرين من أيار (مايو) ١٩٦٥، تسلل الفدائيون الفلسطينيون مرة أخرى إلى إسرائيل، وأصابوا ضحايا مدنيين بما في ذلك طفلان، أما الرد على ما حدث فلم يدم انتظاره طويلاً، إذ هاجم الإسرائيليون بوحشية، بعد يومين، مدينتي جنين وقلقيلية. كنت وقتئذٍ في العقبة فانطلقت من فوري نحو المدينتين المنكوبتين وبذلت ما في وسعي لمساعدة الجرحى والتخفيف عن مصابهم. وكان علي في اليوم التالي أن أستقبل نائب رئيس الجمهورية الهندي الذي قدم في زيارة رسمية إلى الأردن. وقد كدت أن لا أقابله أبداً إذ أصابني تعب شديد منذ أيام، لأنني لم أكن قد أغمضت عيني، فنمت وأنا أقود سيارتي واصطدمت بحائط. ونجوت من هذا الحادث، فلم أصب إلا ببعض الخوف.

بعد مرور بضعة أشهر، وفي كانون الثاني (يناير) من عام ١٩٦٦، استقبلت فيصلاً ملك العربية السعودية في عمان. كان قد خلف أخاه سعوداً على رأس الدولة. وقد أثارت هذه الرحلة إلى الأردن من جانب عاهل سعودي، غيظ عبد الناصر. فالملك فيصل كان يدعم النظام الملكي في اليمن ضد القوات المصرية

التي كـان جيشها الغـازي المؤلف من خمسين ألف جنـدي، متورطاً منذ أشهـر في الجبال الجنوبية للجزيرة العربية. كنت أرى هذه الحـرب في اليمن بعيدة تمـاماً عن العقل والصواب. كان التنافس بين الأسر الحاكمة العربية، يزداد وضـوحاً بحيث كان كل شيء يمكن التعلل به لإيجاد القطيعة. وهكذا فإن الحكـومة السـورية التي كان دعمها للمقاومة الفلسطينية يزداد كل يوم والتي كانت تحمل عليّ بـلا انقطاع. أذاعت عـلى رؤوس الأشهـاد في صيف عـام ١٩٦٦ بـأنها لن تشـترك في القمـة الإسـلامية الـرابعة التي ستنعقـد في الجـزائـر في أيلول من عـام ١٩٦٦، لكي «لا تجلس على نفس مائدة المناقشات مع الـرجعيين حسـين وفيصل». وقـد فعل عبـد الناصر نفس ذلك بعد مرور بضعة أيام.

كنت أشعر حقاً بالعزلة في العالم العربي على الرغم من التعاطف الـذي كان يغـدقة عـلي الملك فيصل. ولكن هـذه العزلـة لم تمنعني من القيام بـزيـارة رسميـة قصيرة لبريطانيا استغرقت بضعة أيام حيث حاولت تناسي مشاغـلي وهمومي. بيـد أنني لم أستطع ذلك إذ كـان قلبي وأفكاري يتلفتـان نحو عـمان، ونحو وطني حيث كان الموقف قد أصبح يزداد خطورة. كنا في نزاع مكشوف مع مصر وسورية حول منظمة التحرير الفلسـطينية طبعـاً. انك سـوف تدرك هـذا التناقض وهـو أن عبد الناصر يريد، إن لم نقل يستلزم، أن يفعل الفلسطينيون عندنا تماماً، ما لا يسمـح لهم باتيانه عنده لأنه كان يمنع غارات الفدائيين الفلسطينيين عـلى إسرائيل انـطلاقاً من قطاع غزة الذي كان تحت إدارته.

كنت اهـاجم من كل النـواحي، ليس من قبل جـيراني العرب الأقـربـين، فحسب بـل أيضاً من جـانـب روسيا السـوفياتيـة التي كانت تتهمني بـالتـواطؤ مـع إسرائيل. وهذا ما جاوز الحد! أمرت بإغلاق مكاتب منظمة التحريـر الفلسطينيـة الموجودة في سائر الأراضي الأردنية. وفي تشرين الأول (أكتوبر) وجه وصفي التل، رئيس وزرائي الـذي خلف الشريف حسـين في عـام ١٩٦٤، وجـه إنـذاراً إلى السوريين بأنهم إذا ما أغلقوا حدودهم مع الأردن فأن دباباتنـا سوف تفتحهـا بكل الوسائل. كنت أشعر بـأنني جيد التسلح، حسن التجهيـز مع لـوئين مـدرعين من أحدث طراز وفي أعلى مستوى من التدريب، وسرب من القاذفات المطاردات التي

كانت الولايات المتحدة على وشك أن تسلمها إلي والتي كانت ستضاف إلى طائرات الهنتر التي كانت لديّ.

ولكن على توالي الشهور كانت غارات الفدائيين تزداد على نسق يتسم بالخطورة بالنسبة إلى الجميع. فمثلاً: بين تشرين الأول (أكتوبر) ومنتصف تشرين الثاني (نوفمبر) تسلل مسلحو المنظمة إلى إسرائيل، إحدى عشرة مرة. ست منها انطلاقاً من أراضينا. وكان رد فعل الدولة اليهودية عاصفاً: ففي (١٣) تشرين الثاني (نوفمبر) من عام ١٩٦٦، كان يجب أن نسجل شهيدة جديدة في القائمة الطويلة من القرى التي ضحي بها، هي قرية السموع التي نسفت جميع الدور فيها. وعندما وصلت قواتي إلى المكان وجعلت تقاتل كان الجنود اليهود قد تركوا وراءهم أكثر من خمسين قتيلاً وجريحاً.

ومنذ اليوم التالي كانت بلادي تتعرض من كل جانب لهجوم الدعايتين المصرية والسورية ورجال المقاومة على السواء. فقد وصفنا بأننا عديمو القدرة والكفاءة، خونة جبناء، «عاجزون عن حماية السكان الفلسطينيين في أراضينا». واني لأرجو أن تصدق بأن هذا كان يؤلمنا سماعه! أما أنا فكنت أرى أن الأمر المؤكد الذي غدا أكثر وضوحاً يوماً بعد يوم فهو: وجود مؤامرة شيوعية ترمي إلى تدمير الأردن. وان الجميع يعرفون ذلك! كان علي أن أقاتل لوحدي ضد الجميع. وكنت سأقاتل وحيداً ضد الجميع ما دام الأمر كان يحتاج إلى ذلك. انني هكذا أفهم مهنتي كملك وليس شيئاً آخر. أخاطر بحياتي في سبيل عيشة رضية لشعبي. فلا تهجمات عبد الناصر، ولا انتقادات دمشق ولا شتائم الشقيري الذي اقترح الإنشاء الفوري للجمهورية الفلسطينية في الأردن، بقادرة على أن تغير من الأمر شيئاً. كان شتاء عام ١٩٦٦ ـ ١٩٦٧ يتبدى بشكل خاص عسيراً شاقاً بالنسبة إلى الجميع. ولكن كان لا بد لنا من الصمود. ولقد صمد الأردن.

لم ينسنا الإنكليز والأمريكان. فقد دعمونا ليس بالكلام وبالتصويت في الأمم المتحدة، فحسب بل بعثوا إلينا بالأسلحة والمعدات فوصلت بكميات جسيمة إلى مينائنا في العقبة في فجر عام ١٩٦٧، هذا العام العصيب.

* ومنذ ذلك الحين بدأ التشابك والتصعيد.

ـ هـذا واقع أكيد: لقد ازداد التـوتر عـلى توالي الأسـابيع: الحـرب الإذاعية، حرب البلاغات، هجمات رجال المقاومـة تضاعفت حـدتها كـان يسقط القتلى من كل جانب. كـان هنالـك خسائـر يوميـة جسيمة تقـريباً في المعـدات. إلاّ أن أمراً واحـداً كان يـدهشني. فـالـطائـرات السـوريـة التي كـانت تسقـطهـا المـطاردات الإسرائيلية والقتلى العرب سواء في سورية أو الأردن، كل ذلك كان يبدو وكأنه قد أبقى الـرئيس عبد النـاصر فاتـر الهمة غـير مكترث. ولكن مـاذا حـل إذن بميثـاق الدفاع السوري المصري؟. لماذا لبثت الحدود الإسرائيلية المصرية هادئة؟ ماذا حل بالتضامن العربي الذي أطنب رئيس الدولة المصري في الإشادة به وتحبيـذه؟. لقد لفت نظره إلى ذلك. حتى (حلفاؤه) السوريون أصبحوا قلقـين. وأعلموه بـذلك. فقد كانت دمشق ترغب بأي ثمن أن تجر القاهرة إلى نزاع مسلح.

في (١٥) مايو (أيار) قرر عبد الناصر وضع سائر القوات المسلحـة لبلاده في حالة إنذار وأمر بإجراء مناورات ضخمة في سينـاء «لتخفيف الضغط على الحـدود السـورية الإسرائيليـة» التي حشدت فيهـا تل أبيب قـوات كبيرة. واستـوجب عبد الناصر في (١٩) منه، رحيل جنود الخوذات الزرقاء التابعين للأمم المتحدة فأصبح هذا الرحيل نافـذاً في (٢١) منه. ثم جـاء قرار القـاهرة القـاضي بإغـلاق مضايق تـيران التي تفضي إلى ميناء إيـلات الإسرائيلي. فـاعتبرت الـدولـة اليهـوديـة هـذا التصرف عملاً حربياً.

تلقيت نبأ هذا القرار بذهول في صباح (٢٢) فهذا الإجراء الـذي يفتقر إلى التروي والتفكير ليس من شأنه إلاّ أن يقود إلى النكبة، إلى الكارثة. لأن العرب لم

يكونوا مستعدين للحرب إذ لا يوجد بينهم أي تنسيق ولا أي تعاون ولا أية قوة مشتركة ولا أية خطة! ولكنني كنت متيقناً بأنه: إذا كان لا بدّ للحرب من أن تنشب، وهذا ما كان يزداد جلاء ووضوحاً كل يوم، فلنكن البادئين بالهجوم. أما إذا ما هاجمتنا إسرائيل فإنني لن أقف مكتوف اليدين، وستنحاز قواتي إلى جانب الشعوب العربية. ولقد صرح ابن عمي زيد بن شاكر الذي كان يقود أحد ألويتي المدرعة، في حديث صحفي أدلى به وقتئذ: «إذا لم يشترك الأردن في هذه الحرب، فإن حرباً أهلية ستنشب في الأردن». لقد شعرت في قرارة نفسي بأنني مرتبط ارتباطاً وثيقاً بميثاق الدفاع العربي الموقع في القاهرة في عام ١٩٦٤، حتى ولو بدا أنه لم يعش إلاّ على الورق آنئذ، ولم يكن يعقل أن لا تحترم بلادي التزاماتها وتوقيعاتها وهي التي كانت دوماً تأخذ مكانها في المراكز العسكرية الأمامية في حروب التحرير منذ خمسين سنة. فهذه الحرب المحتملة تخص فلسطين التي كان الأردن يدير جزءاً كبيراً منها. كنت إذن معنياً إلى أقصى الحدود بهذا النزاع الوشيك الوقوع.

كان الأردن أكثر شعوب المنطقة تعرّضاً للخطر من جراء الطول الزائد لحدوده المشتركة مع إسرائيل. كان لدي حقاً أسلحة ومعدات وجيش ممتاز مدرب خير تدريب، ولكن بنسبة أقل من أعدائنا. عبثاً طلبت معونة العراقيين والسعوديين لتوحيد جهودنا في جبهة واحدة، فلم يأت شيء من الشرق. كنت أعرف إذن قبل نهاية شهر أيار (مايو) ١٩٦٧ بأنني سوف أبقى وحدي للدفاع عن خط قتال يمتد من البحر الأحمر حتى بحيرة طبريا. هذه «التعبئة العامة» لجيوش ميدان القتال، لم تمنع جيراني السوريين من ارتكاب اعتداء على أرضي بينما كان من الأفضل أن يركزوا طاقتهم نحو الهدف المشترك!

ولما غدا كل حوار مع دمشق مستحيلاً، التفت نحو القاهرة التي بدت لي أكثر انفتاحاً وتقبلاً للآراء والأفكار. فبعثت في ٢٥ أيار (مايو) إلى العاصمة المصرية، برئيس أركان حربي الجنرال عامر خماش. إستقبل طبعاً بأدب، ولكن لم يجر إطلاعه على شيء ولا على أي اعداد. ولم يستطع مقابلة أي من القادة

المصريين، باعتبار أن عبد الناصر نفسه كان (مشغولاً جداً)، فلم يبق هنالـك إذن سوى حل وحيد فقط من أجل احتـمال معرفـة ما يجـري إعداده من جـانب البلاد العربية، وهو: أن أذهب شخصياً إلى القاهرة.

إطّلعت على رغبتي هذه، سفير مصر في عمان الذي نقل طلبي إلى حكومته. وفي اليوم التالي الواقع في ٢٩ أيار (مايو) وردني جواب عبد الناصر:

«تعالوا إلى القاهرة بأسرع وقت تستطيعون!».

كان ذلك الخطوة الأولى. في اليوم الثلاثين من أيـار (مايـو) طرت سـراً إلى مصر، وكـان يرافقني رئيس وزرائي والجنـرال خماش نفسـه، وشخصان آخـران. إرتديت لهذه المناسبة بزة القتال التي لم تفارقني طوال عدة أسابيع، واعتمرت قبعتي ذات الشعار الملكي، وعلّقت مسدسي بحزامي. لم يصحبني أي حرس أما النيابـة لبضع ساعات فقد أمّنها أخي الأمير محمد في غياب ولي العهـد الأمير حسن الـذي كان في أكسفورد. إستلمت أجهزة قيادة طائرة كارافيل مدنية تابعة لخطوطنا الجوية الوطنية، وبعد طيران لم تتخلله أية مضايقات، هبطت في مطار الماظـة القريب من القاهرة حيث كان الرئيس المصري ينتظرني، يحيط به رئيس وزرائـه والفريق عـلي عـامر رئيس (القيـادة العربيـة المشتركـة) التي كان من المفـروض وجـودهـا! كـان الاستقبال حاراً ودياً. كان يقف المصورون إنقاذاً للمظهر الخارجي! وقبل أسبـوع كانت إذاعة القاهرة تشتمني. وكان عبد الناصر يتجاهلني تقـريباً. واليـوم تظاهـر باعتقالي وهو يمزح أمام الجميع، الأمر الذي أثـار ضحكنا الشـديد. وهكـذا تسير السياسة....

*** أعتقد بأنه قد قيل كل شيء وكتب كل شيء عن حرب الأيام الستة. حتى انكم أنتم بالذات أصدرتم كتاباً في هذا الموضوع هو (حربي مع إسرائيل) فمما لا شك فيه، والإسرائيليون يعترفون بذلك، أن الأردنيين كانوا أكثر المقاتلين خلقاً للمصاعب والمشقات في مواجهة الأعداء، وأنه، بين سائر الجيوش العربية، كان جيشكم هو الذي قاتل أفضل قتال.**

ـ عندما انسحبت قوات الأمم المتحدة من قطاع غزة، كان لا بدّ أن يكون المرء أعمى حتى لا يدرك بأننا قد ألقينا بأنفسنا في فم الذئب وأن الحرب مع إسرائيل قد غدت لا مناص منها. وعلى توالي الأسابيع كان الموقف يتدهور. حدث أولاً العدوان الإسرائيلي على قرية السموع في نهاية عام ١٩٦٦، ثم التوتر المفاجئ على خطوط الهدنة السورية في آذار (مارس) ونيسان (أبريل) من عام ١٩٦٧، مع الاشتباك الجوي العنيف في السابع من نيسان (أبريل). كان قد أمسى واضحاً، منذ قرابة خمسة أعوام، بأنه إذا لم يُفعل شيء، فإننا سائرون على خط مستقيم نحو نزاع مسلح. لقد نشرت (كتاباً أبيض) حول الموضوع منذ صيف عام ١٩٦٢ عنوانه «الأردن والقضية الفلسطينية والعلاقات العربية» ولقد شرح هذا الكتاب وجهة النظر الأردنية حول ضرورة إنشاء وحدة حقيقية وما يتسم به هذا الأمر من طابع حيوي بالنسبة إلى العالم العربي. كانت هذه الوحدة في نظري أساسية. إذ من المستحيل أن ندعم مطالبنا، إذا لم نجمع شملنا وتتوثق صلاتنا. وعلى الرغم من اختلاف وجهات النظر بيني وبين عبد الناصر، وعلى الرغم من اللقاءات والمعانقات العلنية، ومن الخصومات الجديدة، فقد كنت أشد من ناصره حماسة وحرارة شعور، عندما قرر دعوة القمة العربية الأولى فجر عام

١٩٦٤. لقد ساندته في اللقاءات التالية التي تمت في الإسكندرية في أيلول (سبتمبر) من عام ١٩٦٤، ثم في الدار البيضاء في أيلول (سبتمبر) من عام ١٩٦٥. ولقد جرى استعراض كل قضايانا في هذه اللقاءات: مياه نهر الأردن، وعمليات منظمة التحرير الفلسطينية ضد إسرائيل انطلاقاً من أراضينا، والحرب المحتدمة الأوار في اليمن بين مصر والعربية السعودية إلخ. كنت أعرف بأن أقل استفزاز سيكون مناسبة للإسرائيليين لمفاجأتنا وشن حرب خاطفة وقائية ضدنا. وهذا ما لبث أن تبدّى. كان ينبغي أن لا نعطيهم حجة يتذرعون بها لإشعال هذه الحرب. وإذا كان بعض العرب قد فهمني، فإن الآخرين لم يصغوا إليّ.

ومنذ نهاية القمة العربية الثالثة في الدار البيضاء، تدهور الوضع بصورة خطيرة. ومرة أخرى كانت مصر هي المتسببة في ذلك: كانت القاهرة في نزاع علني مع العربية السعودية حول موضوع اليمن الذي كانت الحرب فيه لا تنتهي، ومع الأردن حول موضوع منظمة التحرير الفلسطينية وعلاقاتي معها. ومنذ ذلك الحين أصبح في حكم المؤكد أن القمة العربية الرابعة سوف لن تنعقد، خلافاً لما كان متوقعاً.

منذ عام ١٩٦٦، أمسكت شخصياً إدارة الحكومة الأردنية بيدي وكنت أنا، ولا أحد سواي، هو الذي قرر إغلاق مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية في سائر الأراضي الأردنية. كان لا بدّ لي من التحكم في توجيه هذه الحركة التي كانت تزداد إنفلاتاً وتملصاً من رقابتي. وقد أتاح لي هذا الإجراء الذي اتخذته، إشرافاً أفضل على الوضع الداخلي في الأردن. لقد بدأ رجال المنظمة، وإنني هنا أزن كلماتي، في ممارسة التخريب على نطاق واسع. كان هدفهم الأساسي هو محاولة فصل شعبينا في الضفتين الشرقية والغربية لنهر الأردن، ليتسنى لهم السيطرة عليهما بصورة أفضل لهم. ولتضخيم أعدادهم، عمد زعماء المنظمة إلى إدخال أي كان في صفوفهم، حتى الأشخاص الذين كانوا ينتسبون إلى جماعات سياسية أو إلى أحزاب محظورة عندنا. كانوا يجندون بشكل خاص من الذين ينتسبون إلى الحركات الشيوعية أو اليسارية التي كانت تتكاثر فئاتها. كانت هنالك واقعة قد

أضحت في نظري تزداد ثبوتاً ويقيناً وهي أنه: بتدهور علاقاتنا مع مصر وسورية، وبنشاطات المنظمة فوق أراضينا، غدا مستقبل الأردن، مرة أخرى، في خطر، ومعه قضية الملكية أو النظام الملكي.

لقد سبق لي الحديث عن عدوان السموع في ١٣ تشرين الثاني (نوفمبر) من عام ١٩٦٦ بحجة «الانتقام من النشاط الإرهابي لمنظمة التحرير الفلسطينية» هذا الحادث الذي اشتهر ويا للأسف قد وقع مثله مرات عديدة ضد المخيمات والقرى الفلسطينية المجاورة لإسرائيل. أما قرية السموع هذه التي يبلغ عدد سكانها أربعة آلاف، فكانت تتألف بشكل خاص من أسر اللاجئين الفلسطينيين الذين كان الإسرائيليون يتهمونهم بإيواء المناضلين القادمين من سورية. إستغرقت العملية أربع ساعات. ولقد سبق لي القول بأنه بعد رحيل الإسرائيليين، جرى تعداد واحد وعشرين قتيلاً وسبعة وثلاثين جريحاً من الرجال والنساء والأطفال. أدينت إسرائيل بعنف من قبل الأمم المتحدة بأكثرية أربعة عشر صوتاً ضد صوت واحد. وللمرة الأولى ضم الأمريكان صوتهم إلى أصوات الفرنسيين والروس والإنكليز. ولكن الأمر الأخطر، جاء من أصدقائي العرب: إذ بدلاً من أن يحملوا على إسرائيل، انقلبوا عليّ يهاجمونني! لأنني عارضت أن يقوم رجال أحمد الشقيري زعيم منظمة التحرير الفلسطينية وقتئذ، بشن عملياتهم انطلاقاً من الأردن.

ومنذ ذلك الحين، لم يعد من الممكن إلاّ أن يسوء الوضع ويتدهور ليس بين العرب فحسب، بل مع إسرائيل أيضاً. ولم يخف وصفي التل الذي اغتيل في القاهرة بعد بضع سنين، ما كان يعتلج في نفسه من مشاعر عندما أجاب على الاتهامات الموجهة إلى الأردن خلال مؤتمر صحفي عقده في ٢٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٦. إذ قال بشكل خاص بأن هجوم السموع الذي كان من الواجب أن يتيح للقيادة العربية الموحدة أن تختبر فعاليتها قد برهن بأن هذه القيادة غير موجودة إلاّ على الورق. وأنها كانت إخفاقاً تاماً. كان الأردن خلال هذا الهجوم ينتظر المعونة الجوية من الجمهورية العربية المتحدة التي كانت مسؤولة عن منطقة الدفاع هذه، ولكن هذه المعونة لم تأتِ أبداً. وأخيراً، كان قد تقرر أثناء مؤتمرات

القمة العربية التي عقدت حديثاً، أن كل عملية للمنظمة انطلاقاً من أي بلد عربي، يجب عرضها، قبل التنفيذ على القيادة العربية الموحدة لتتولى تقييمها، وهذا ما لم يحدث. فقد كنت متصلباً بالنسبة لهذه النواحي التي كنت اعتبرها على جانب عظيم من الأهمية. إذ بالإضافة إلى سورية ومصر، كان عليّ أن أواجه خصماً عربياً جديداً لا يقل عنهما، لأنه كان متواجداً عندنا: ألا وهو المنظمة. كانت الشعارات تتطاير في كل اتجاه. أما الشعار الذي كان أكثر إيلاماً لنفسي فقد كان القول: «قبل تحرير تل أبيب ينبغي تحرير عمان».

غدت الحرب لا مفر منها. ولعلّ مما يبعث على العجب أنها لم تنشب إلّا بعد مضي ستة أشهر. الجميع يذكر أهم تواريخ وأهم أحداث ربيع عام ١٩٦٧. وإنني أستعيدها لا لشيء إلّا للذكرى: (٧) نيسان (أبريل)، المعركة الجوية العنيفة بين طائرات الميراج الإسرائيلية والميج السورية. (١٥) أيار (مايو) أذاع نائب رئيس الجمهورية العربية المتحدة المشير عبد الحكيم عامر، أمراً يومياً يتطابق مع الذكرى التاسعة عشرة لاستقلال إسرائيل والعرض العسكري الضخم الذي جرى في القدس المحتلة: كان هذا العرض العسكري تحدياً واستفزازاً، فرفض عدد كبير من الدبلوماسيين الأجانب حضوره. في (١٨) أيار قبل أوثانت السكرتير العام للأمم المتحدة، جلاء قوات الطوارئ الدولية من قطاع غزة دون استشارة لمجلس الأمن، واستلمت مراكزها فوراً، القوات الفلسطينية والمصرية. في الحادي والعشرين منه، بعث إلينا السوريون بسيارة ملآى بالمتفجرات كان مقرراً لها أن تنفجر في قلب عمان، ولكنها انفجرت في الرمثا على حدودنا فأدت إلى مصرع واحد وعشرين أردنياً، الأمر الذي أرغمنا على قطع علاقاتنا مع دمشق. وفي الثالث والعشرين من (أيار) (مايو) زار عبد الناصر سيناء وقرر إغلاق مضايق تيران. وبذلك غدا خليج العقبة محاصراً وميناء إيلات الإسرائيلي مشلول الحركة. وفي الثلاثين منه كان لقائي مع عبد الناصر الذي سمّي فيما بعد (بالمصالحة)، ووقّعت خلاله مع الرئيس المصري معاهدة الدفاع المشترك. وقد طافت صور تبادل العناق بيني وبين عبد الناصر، سائر أنحاء العالم، إلّا أن بعضهم بقي

متشككاً فيما يختص بهذه اللقاءات وهذا الفيض من العواطف الدافقة. وإني لا أخطئوهم.

عدت إلى عمان في مساء الثلاثين ولكن مع شخص مزعج إلى جانبي هو أحمد الشقيري رئيس المنظمة. فقد رجاني عبد الناصر أن أعيده إلى عمان معي فأضطررت إلى الموافقة على ذلك. ومنذ ذلك الحين غدا القتال أمراً محتوماً. بدأ الهجوم الإسرائيلي فجر الخامس من حزيران (يونيو). كنت شخصياً في عداد الأهداف المقصودة، لأن الطائرات الإسرائيلية، في موجات أثر موجات، لم تقصف عمان والأهداف المدنية والعسكرية فيها، فحسب، بل أن عدداً كبيراً من الطائرات، بعد أن حدّدت موقع قصري الذي يظهر واضحاً من بعيد، لقيامه على أحد تلال عمان السبعة، ألقت قنابلها عليه بقصد قتلي وقتل مساعدي وأعضاء حرسي. ولم يكن القصر مستهدفاً فحسب، بل حتى مكتبي أصيب بصاروخ كان من المحتمل أن يقتلني لو كنت داخله. لقد كانوا مزودين بما يحتاجون من معلومات لهذه الغاية.

طوال عدة أيام قاتل شعبي بشجاعة وتصميم. فقد كان الأردنيون في نظر العالم، أشد المحاربين بسالة واقداماً بين سائر العرب. وإنني لفخور بذلك، فخور غاية الفخر. ولكن كان علينا أن نسلم بالأمور التي تبدو جلية واضحة للعيان. فليس في مقدورنا أن نقاوم وحدنا تقريباً في الجبهة الشرقية. لم يأت أي عون ولا أي دعم، فسقطت القدس ثم أريحا والخليل ونابلس ورويداً رويداً وقعت الضفة الغربية لنهر الأردن بأسرها في قبضة الإسرائيليين. لقد نسفوا الجسور وقسمونا إلى شعبين متمايزين. وفي الثامن من حزيران (يونيو) بعد أربعة أيام من بداية المعارك أبلغت السكرتير العام للأمم المتحدة بموافقتي على إيقاف اطلاق النار الذي قرره مجلس الأمن. وماذا كنت أستطيع أن أفعل غير ذلك؟

أصبح إيقاف إطلاق النار نافذ المفعول بعد ظهر ذلك اليوم، لأن بعض جنودي رفضوا القاء السلاح وصمموا على مواصلة الجهاد ببطولة حتى النهاية. وانتهت حرب الأيام الستة هذه بالنسبة إلينا بعد أن سلبت منا القدس، أغلى وأعز

المدن الأردنية على قلبي، وجردنا من الضفة الغربية لنهر الأردن.

بلا راحة ولا نوم ولا طعام تقريباً، بعد أن غدوت الزعيم العربي الوحيد الذي اشترك بنفسه في الحرب، قررت في مساء يوم الثامن من حزيران (يونيو) أن أخاطب شعبي العزيز من على موجات اذاعة عمان. وهذا هو الخطاب: «لقد قاتلنا ببطولة وشرف ولسوف يعترف العرب فيما بعد بالدور الذي لعبه الأردن في هذا النزاع.

لقد دافع جنودنا عن كل شبر من أراضينا بدمائهم الزكية الغالية التي لم تجف بعد، والتي ستحتفظ بلادنا بآثارها وسماتها. إنهم لم يخشوا التفوق الجوي المطلق للعدو الذي شل بالمباغتة والمفاجأة الطيران المصري الذي كنا نعتمد عليه. والآن فإن ما وقع قد وقع. وإن قلبي ليتفطر حسرة وألماً عندما أفكر في جميع من فقدنا من جنودنا الذين سقطوا صرعى والذين هم أعز عليّ من نفسي.

أيها الأخوة. يبدو أنني أنتسب إلى أسرة الذين أراد الله لهم العذاب وبذل التضحيات التي لا نهاية لها لامتهم. إن النكبة التي أصابتنا لأعظم مما يستطيع المرء تصوره. ولكن مهما بلغت جسامتها فلا ينبغي، أيا كان الثمن، أن تضعف من تصميمنا على استرداد ما فقدناه.

وأخيراً إذا كان المجد لم يجزكم خير الجزاء، فليس مرد ذلك إلى نقص في الشجاعة ولكن لأن هذه كانت إرادة الله. كان الله مع شعبنا الآن».

لقد ندر أن تأثرت في حياتي، تأثري وأنا أخاطب شعبي. كنت على وشك البكاء ولكن كان لابد أن أمضي في خطابي إلى نهايته. كنت أعرف أن شعبي كان يذرف الدموع، كان يبكي قتلاه وآلامه. وكان يبكي من أجل بلاده. ولن تكون هذه هي المرة الأخيرة، ويا للأسف. أما الضيف المزعج أحمد الشقيري، الذي غادر الأردن عند اغلاق مكاتب المنظمة ليلجأ إلى دمشق أولاً، ثم إلى القاهرة، فقد رحل من عمان في الثالث من حزيران (يونيو) قبل يومين من نشوب الحرب، للذهاب إلى القدس، وهنالك عقد مؤتمراً صحفياً وتفوه بكلمات مشئومة خدمت

الدعاية الإسرائيلية. ثم عاد في الخامس من حـزيران إلى عـمان. وفي اليوم التـالي يوم الثلاثاء السادس من حزيران، غادرنا فجأة إلى سوريـة «ليطلب إلى دمشق أن تساعدنا بأكثر مما فعلته حتى الآن». ولم نر وجهه أبداً.

***ما هي العبر والدروس التي تستخلصونها من هذه الحرب بعد أن اندملت الجروح بفعل السنين. لقد أفاض الناس في الحديث مؤخراً بأن حرب عام ١٩٦٧ كانت حربكم. في حين أن حرب عام ١٩٧٣ لم تكن تعنيكم.**

- سوف أجيبكم على سؤالكم على دفعتين.

أولاً: سوف أحملكم على الدهشة والحيرة، ولكنني قلت ذلك مرات عديدة: ان هذا النزاع الدامي المميت الشرس الضاري سوف يبقى في نظري (حرباً مزعومة) ولا شيء غير ذلك. لم أقاتل في أية لحظة ضمن شروط حرب حقيقية، ولم أشعر في أي وقت بوجود هذه الحرب. إنني كما تعلم لم أعلن الحرب أبداً على إسرائيل ولم (أحاربها) أبداً بالمعنى الصحيح لهذه العبارة، فلم أزد على أنني كنت أرد على كل اعتداءات أعدائنا، كما كنت أفعل منذ عام ١٩٥٦ أي منذ حوالي عشرين عاماً.

إن السلام في بلادنا غير موجود. ولم ير النور إطلاقاً. فقد فرضت علينا الهدنة حقاً في عام ١٩٤٨ بعد إنشاء دولة اسرائيل. ولكن ما هي الهدنة؟ انها ليست السلام. وهي لم تكن السلام أبداً. ما أكثر ما أستهتر بالهدنة. وخرقها في أغلب الأحيان، أولئك الذين يقيمون في مواجهتنا. إن تعداد ذلك سيكون من الصعب اجراؤه!

لم يتحقق السلام أبداً. وكما تبدو الأحداث اليوم، فإن السلام ما زال بعيد المنال!، حتى بعد مقررات قمة الرباط في تشرين الأول (أكتوبر) من عام ١٩٧٤ وبعدما أجرته الأمم المتحدة مؤخراً من التصويت المتكرر. لابد من إيجاد حل عادل، وإلا فلن يكون هنالك سلام.

نعم في حزيران عام ١٩٦٧ ارتكبنا أخطاءاً وخسرنا حرباً فرضت علينا واستخلصنا منها العبر والدروس التي تجلت على الأقل بعد مضي بضعة أشهر على حرب حزيران عام ١٩٦٧، خلال العدوان الإسرائيلي في الحادي والعشرين من آذار (مارس) ١٩٦٨، على الشونة والكرامة، في الضفة الشرقية لنهر الأردن. كان ردنا الانتقامي الخاطف على القوات الاسرائيلية قد أحال ما أسمته إسرائيل (بالعملية البوليسية البسيطة) إلى اشتباك عسكري تام نجمت عنه خسائر فادحة مني بها المعتدون وكانوا لا يتوقعونها ومع ذلك كانوا يفوقوننا في العدد والطائرات ووسائل نقل الجنود وهو ما كنا لا نملكه. لقد عرفنا كيف نستخلص الدروس من ضعفنا بالنسبة للقوات الجوية ومن المعونة التي نستطيع توقعها من حلفائنا. وعرفنا أننا إذا لم نعتمد على أحد، قاتلنا قتالاً أفضل، وهذا مما لا يتطرق إليه الشك. ولو اتكلنا على المساعدة فلسوف لن تأتي على العموم أبداً! وانني في مركز يتيح لي أن أعرف ذلك جيداً.

أكرر القول بأننا ارتكبنا أخطاءاً منذ ثماني سنوات. وفي رأيي أن أول هذه الأخطاء هو أننا لم ننظم قواعد ومناهج عملياتنا العسكرية تبعاً لإمكانياتنا الخاصة. فمنذ سنين كانوا يحدثوننا عن القيادة العربية الموحدة، وعن القائد العام لسائر الجيوش العربية، وعن معونة شعوبنا الشقيقة الخ. . وقد اعتمدنا على ذلك، وهو أمر طبيعي. وما كان ينبغي علينا أن نفعل. فلو لم نعتمد على هذه المعونة الخارجية المحتملة، لكانت (حربي) مع اسرائيل قد اتخذت مجرى آخر تماماً. ما في ذلك أدنى شك. عندما ينتظر الغطاء الجوي الذي كنت أنتظره، فإنه لا بد لي من أن أقاتل بالأسلوب الذي انتهجته في القتال. ولو عرف رجالنا منذ البداية أنه لا يمكنهم تلقي أية معونة، لا من مصر، ولا من سورية، ولا من العراق، لكانت اختلفت استراتيجيتنا عما كانت عليه، ولبقيت القدس في حوزتنا حتى اليوم. لأنه طوال الأيام القليلة لهذه الحرب الخاطفة، كنا دوماً نراعي احلال المصلحة العربية في المكان الأول، واضعين مصلحتنا الخاصة في المحل الثاني من الأهمية. وهكذا كنت أفهم معنى التضامن. إلا أن الجميع ويا للأسف لم يتقيد بنفس القاعدة التي انتهجتها.

لم تأت المساندة الخارجية، وتلاشت بتوالي الساعات والأيام المعونة المطلوبة التي وعدنا بها. فاضطررنا أن نتصرف بأسلوب الحركات التلقائية وأن نبتدع الحلول البديلة في اللحظة الأخيرة. كنا إلى حد ما نرتجل ارتجالاً، في حين أن اشتباكاً عسكرياً في هذه الأهمية لا يعالج بالارتجال.

في اليوم الثالث، عندما اضطررنا أن نتحقق من أن أحداً سوف لن يخف لمساعدتنا، كان الوقت قد فات. كانت إمكاناتنا أقل بكثير مما كنا نستهلك من أسلحة ومعدات. وكانت المقايسة بين القوات غير متوازنة إطلاقاً. فمنعنا هذا العائق منعاً باتاً من افشال وإيقاف تقدم العدو واحباط خططه. كان في مواجهتنا جيش مدرب خير تدريب، موحد ومسلح بالعزم والتصميم، لا يعتمد سوى على نفسه، ولا يتكل على مساعدة أحد. أما هنا، فقد كنا نعول على التضامن العربي وعلى المعونة التي وعدنا بها منذ أشهر والتي كنت ما زلت أنتظرها بلا طائل! ولعل الذي كان أشق على النفس وأقسى، هو ليس الساعات ولا الأيام التي تلت الهزيمة، وإنما الأشهر التي كانت تمضي، الأشهر التي كانت تثقل كاهلي، وتحمل إليّ العناء والاعياء سواء من الناحية المادية أو الجسمية. كان لابد لي من المقاومة والصمود. كنت أشعر بأن أعصابي على وشك الانهيار والانفجار. وكنت أحس بأن صحتي قد تمكر بي في أية لحظة وتتلاشى مقاومتها. وهذا ما كان لا ينبغي أن يحدث. كان علي أن أبقى صلباً متيناً لاواصل قيادة بلادي حسبما كان شعبي يتوقع مني، ومثلما كنت أرجو وأتمنى. فسافرت كثيراً خلال هذه الأشهر التي تلت العدوان الإسرائيلي، ودافعت بإيمان وقوة عن قضية شعبي.

مرة أخرى ذهبت إلى مقر الأمم المتحدة في نيويورك بعد مضي ثلاثة أسابيع على نشوب القتال. وألقيت خطاباً أمام المحفل الدولي الكبير. كنت مقتنعاً بأن الجيش الأردني قد قاتل قتالاً أفضل مما فعلته سائر الجيوش العربية التي كانت متواجدة في المعركة. كانت تعليقات الصحف تثبت لي ذلك وكنت سعيداً من جراء هذا. كانت بلادي هي التي ذاقت النصيب الأوفى من الآلام والنكبات خلال هذا العدوان فخسرت أكبر عدد من الرجال والمعدات والأراضي. كنت إذن

أحس بأنني أكثر الناس جدارة بالتحدث باسم القضية العربية. وهذا ما فعلته من صميم قلبي. ربما أيضاً تحت تأثير الإنفعال النفسي والتعب والعناء من هذه الحرب. اقترحت من علياء هذا المنبر، عقد اجتماع عاجل لمؤتمر قمة عربي فووفق على عقد هذا الاجتماع في نهاية الصيف، وهو موعد متأخر جداً في رأيي. كان يجب أن نضرب الحديد حامياً متوقداً وليس بعد مضي ثلاثة أشهر على نشوب الحرب، عندما تكون الاذهان قد تطرق إليها النسيان...

انتهزت الفرصة التي أتيحت لي للتواجد في الغرب، فقابلت عظماء هذا العالم في طريق عودتي. بدأت بالرئيس جونسون. وإذا كان قد أبدى لي بالغ اللطف وأكثر من العبارات الودية. وكان شديد الاصغاء والالتفات إلى أقوالي، فقد أظهر لي بعض الحنق إزاء مصر، والكثير من التبرم نحو اسرائيل التي كانت في الربيع قد أكدت له بأنها سوف لن تتخذ أية مبادرة عسكرية. وفي أوربا كانت أولى زياراتي مخصصة لرئيس وزراء العمال هارولد ويلسون الذي كان هو أيضاً بالغ المودة تجاهي ومدركاً واعياً للموقف كما يظهر على حقيقته. أما الرأي العام الانكليزي، فقد كان معادياً لنا بلا شك، وكان يتجلى ذلك في الاحاديث وفي الخطابات وفي مقالات الصحف. إلا أن رئيس الوزراء وجورج براون وزير الخارجية قد أعربا لي عن الكثير من التعاطف والمشاركة الوجدانية. وإنني اعتقد بأنه قد جرى بيننا تفاهم أكيد. وهذا هو الأساس.

أما أفضل لقاءاتي في الغرب وأحفلها بالفائدة والخصب، وأكثرها إيجابية، فقد كان بلا ريب لقائي بالرئيس شارل ديغول، الرجل الكبير العظيم الذي كان يعرف تمام المعرفة مشكلة الشرق الأوسط وقضية العرب بشكل خاص. لقد كنت دوماً أكن لهذا الجندي الكبير أحر الاعجاب. وانني أعتقد بأنه كان يعرب لي كلما قابلته عن تعاطفه الوجداني إن لم أقل عن محبته. كانت أقواله تأخذ طريقها المباشر إلى قلبي. كان يعرف اختيار الكلمات الصحيحة والنغمات التعبيرية التي تفيض بالصدق والإخلاص ولاسيما هذه العبارة التي سوف لن أنساها أبداً:

«إذا كان من حق اسرائيل أن تعيش بسلام وأمان، فإن الأردن بكل تأكيد

يستحق ذلك سواء بسواء» .

بقي عليّ أيضاً أن أقابل الرجل الأخير الذي كنت لا أعرفه لأنني لم أذهب أبداً إلى بلاده بحكم أنني لم أكن أقاسمه آراءه ومعتقداته ألا وهو الرئيس الروسي نيقولاي بودغورني. وقد حدد موعد الزيارة في الثاني من تشرين الأول (أكتوبر).

ولكن قبل أن ألتقي بالزعماء الروس الذين هاجمتهم بعنف طوال الخمس عشرة سنة من حكمي الملكي، أردت أن أقابل جمال عبد الناصر الذي خرج من هذه الحرب مثخناً بالجراح، وفاقداً للكثير من هيبته ونفوذه، والذي كف عن التحامل عليّ مباشرة بهجماته. لم يكن في مؤتمر القمة في الخرطوم الذي انعقد فيما بين التاسع والعشرين من آب (أغسطس) والأول من أيلول (سبتمبر) إلا ظلاً لما كانت عليه شخصيته القديمة. وقد كدت من ناحية أخرى أن لا أصل إلى القاهرة في الثلاثين من أيلول ١٩٦٧ هذا، من جراء رداءة الأحوال الجوية التي كانت سائدة فوق كل البحر الابيض المتوسط الشرقي من قبرص إلى مصر مروراً ببيروت وعمان. استلمت قيادة الطائرة من رئيس الطيارين وأقلعت باتجاه القاهرة التي كان مطارها مغلقاً ومدى الرؤية فيه لا تتجاوز مائتي متر، وهبطنا بأقل الخسائر.

لقد اتسمت المحادثات التي أجريتها مع الرئيس المصري بطابع غاية في الود والحرارة. لأول مرة تواجدت في مواجهة رجل آخر حلو الحديث لطيف المعشر ودود حسن الالتفات، ودار الحديث بيننا حول ما أسميناه (بالموقف العربي). كان هنالك خمس نقاط أساسية وجوهرية بالنسبة إلينا:

١ ـ الاعتراف بحق العيش بسلام وأمان لكل دولة في هذه المنطقة بما في ذلك إسرائيل.
٢ ـ الاتفاق على وضع حد لحالة الحرب وللحرب نفسها.
٣ ـ فتح الطرق الملاحية الدولية للجميع بما في ذلك قناة السويس.
٤ ـ انسحاب إسرائيل من سائر الأراضي العربية التي احتلتها خلال حرب حزيران.

٥ ـ التسوية النهائية لقضية اللاجئين الفلسطينيين المحزنة والاعتراف بحق هؤلاء الرجال والنساء بالعودة إلى أراضيهم.

وبديهي أن النقطتين الأخيرتين لا تتعلقان بنا فحسب، بل بأولئك الذين يتواجدون في مواجهتنا أيضاً. . . بعض هذه النقاط وردت في القرار الأمريكي الروسي ولكنها لم تؤخذ بعين الاعتبار من جراء بعض المتطرفين العرب الذين كانوا يفضلون تدابير أكثر صرامة وأسرع تنفيذاً. ومع ذلك حتى الجزائريين الذين كانوا يسلكون طريقاً أشد صلابة مما انتهجناه، قد بذلوا لي بعض التشجيع عندما التقيت بزعمائهم، بعد قليل من مغادرتي القاهرة فقد وافق الرئيس بومدين أن يدعنا أنا وعبد الناصر، لنحاول تحقيق ما اقترحناه موضحاً لنا في الوقت نفسه بأنه لا يؤمن بذلك أبداً. وعلى أثر هذه الاتصالات واللقاءات المتتالية بين زعماء الدول العربية، ونتيجة للجهود التي بذلناها، ظهرت مهمة الدكتور جونار يارنج أثر قرار اتخذه مجلس الأمن بالاجماع في تشرين الثاني (نوفمبر) من عام ١٩٦٧.

في الأول من تشرين الأول (أكتوبر) كنت في موسكو: قابلت فيها السيدين بودغورني وكوسيجين. وكان الاستقبال ودياً جداً ومرة أخرى أكد لي الروس الدعم الذي سوف يبذلونه للشعوب العربية أيا كانوا. كنت في موقف مبهم بعض الشيء. لأنني كنت لا أشارك المصريين والسوريين والعراقيين نفس الحماسة التي تتقد في صدورهم إزاء الكرملين. كان الروس يعرفون بأنني لا أكنّ لهم وداً. وكان ما زال عالقاً في كل ذاكرة خطابي الأول في الأمم المتحدة في عهد خروتشوف. ولكنني حاولت تبديد سوء التفاهم الذي كان طوال سنوات، يؤثر على العلاقات بين بلدينا. عدت إذن راضياً جداً عن زيارتي الأولى لموسكو وعن موقف الزعماء الروس إزاء بلادي. فقد بدا أنهم يعرفونها جيداً أو أنهم ميالون لمساعدتها مع وضع القضية العقائدية جانباً.

نعم إن بعض جروح عام ١٩٦٧ قد اندملت بعض الشيء، كما قلت، ولكن بعضها الآخر ما زال ينزف دماً ولفترة زمنية سيطول مداها.

ولكن ثمة نقطة لست أتفق وإياك إطلاقاً عليها، عندما قلت بأن عام ١٩٦٧ كان حربي وأن عام ١٩٧٣ لم يكن مثل ذلك. فمنذ سنين كانت جميع المعارك التي خاضتها الشعوب العربية هي معاركي. كانت جميعها تعنيني. وكانت كلها تجتذب اهتمامي، سواء وقعت في الشرق الأوسط أو في أي طرف من الأراضي الإسلامية.

لقد قاتل الهاشميون منذ أربعة أجيال، في سبيل نفس القضية ونفس الهدف والغاية. لقد كان الشريف حسين في مكة أول من رفع الراية. ثم جاء بعده جدي الملك عبدالله، وتلاه والدي الملك طلال. أما انا فاني من أبناء الجيل الرابع الذي قاتل في سبيل نفس القضية ونفس الهدف والغاية. إن كل الحروب والمعارك لا تتشابه والوسائل المستخدمة للدفاع أو الهجوم لا تتماثل أيضاً.

كانت حرب عام ١٩٦٧ وحرب عام ١٩٧٣ مختلفتين تمام الاختلاف فالمعتدون والمعتدى عليهم لم يعودوا كما كانوا عليه في الماضي. وهذا بديهي. ومع ذلك فهاتان الحربان كانتا حرباي. ولو أن المواقع على الأرض لم تتحرك بالنسبة للأردن.

إن جدي الأعلى مدفون في القدس كما تعلم. أما جدي الملك عبد الله، فقد لقي مصرعه في القدس بين ذراعي. إن هذه المدينة هي مدينتنا لأكثر من سبب. ومنذ ثمانية أعوام والمسلمون في العالم أجمع ملوك وجنود وأغنياء وفقراء ينتظرون لكي يقيموا الصلاة من جديد في المسجد الأقصى الذي يمثل الشيء الكثير في أعيننا.

*** لقد قيل وكتب بأن حرب الأيام الستة هـذه قد أجهـدتكم معنويـاً وجسمياً وأنكم لم تعرفوا النوم طوال كـل أيام القتـال. ما هي بـالنسبة إليكم وإلى شعبكم النتائج المباشرة لهذه الحرب وانعكاساتها على الصعيد الداخلي؟**

ـ لست أنـا فحسب، بل ان رجـالي وشعبي خرجـوا جميعاً مجهـدين من هـذه الحرب، مزعـزعين مثخنـين بالجـراح. لم يكن من السهل كفكفـة سائـر الدمـوع وإطفاء كل الرماد الذي كان مـا يزال حـاراً، وإزالة جميـع ما تـراكم من أنقاض. ولكن مرة أخرى، لقـد فعلت البلاد ذلـك بشجاعـة ونبل ووقـار، كما كـان يفعل الأردنيون دوما في الظروف المماثلة.

لقد سقطت القدس في صباح السابع من حزيران، فـاحتلها الإسرائيليـون مع قبة الصخرة وسائر الأماكن المقدسة الروحية كـما احتلوا بيت لحم ونابلس ورام الله والخليل، لقد دافعنا بضراوة عن كل متر مربع من هذه الأرض مضحين بحياة المئات والآلاف من الرجال. وانني أعتقد بأن من المستحيل أن يفعل غيرنا أكثر ممـا فعلنا، رجالي أيضاً لم تغمض لهم جفون طوال هذه الليـالي. وبعد ثـلاثة أيـام من المعارك الضارية التي كانوا يقاتلون فيها رجلاً مقابل خمسة رجال، اضـطروا، وقد نال منهم التعب المرهق، إلى التراجع مرفوعي الرؤوس. ليس لدي ما ألوم قـواتي عليه. وانني لعلى يقين من أن المراقبـين الأجانب قـد أعربـوا بوضـوح عن آرائهم حول الطريقة التي حاربت بها الجيوش العربية ولا سيـما الأردنيين الـذين كانـوا في نظرهم خير من قاتل منهم.

تدهورت اقتصاديات البـلاد إلى الحضيض. فقد خسرنـا كل شيء. وكـان علينـا أن نبدأ من الصفـر. ولكن ليس هذا الـذي يستطيـع إيقافنـا. ولقـد أقمنـا

الدليل على ذلك. وللمرة الأولى لعب التضامن العربي ذروة أدواره. فإذا كان قد غاب عنا أثناء القتال فقد ساعدنا مساعدات ضخمة طوال السنوات التالية. إذ إلى جانب المعونة التقليدية التي كان يقدمها الغرب إلينا كالولايات المتحدة وبريطانيا العظمى، فقد كنا نعتمد على الإمدادات التي كانت تزودنا بها كبرى الدول العربية المنتجة للبترول ولا سيما العربية السعودية والكويت وليبيا، التي أنشأت في أيلول ١٩٦٧ صندوقاً خاصاً من أجل الدول التي اشتركت في الحرب وخاصة الأردن ومصر وسورية، يبلغ مقداره (١٣٥) مليوناً من الجنيهات الاسترلينية. منها أربعون مليوناً خصصت للأردن. وقد أعاننا الأشقاء العرب أيضاً في سبيل مئات الآلاف من النازحين الذين يقيمون في ضيافتنا.

لقد استمرت لحسن الحظ بعض صناعاتنا في العمل في حزيران (يونيو) وتموز (يوليو) ولا سيما الفوسفات الذي صدرنا منه حولي مليون طن في عام ١٩٦٧ ومليون و (١٥٠) ألف طن في السنة التي تلتها. وإذا كنا قد تركنا مزارعنا وأراضينا الخصبة في الغرب، فإن مناجمنا ومستخرجاتها واقعة في الضفة الشرقية من نهر الأردن. وهذا ما عوض علينا بعض الشيء، فقداننا لفواكهنا ولموارد سياحتنا التي عادت علينا بعشرين مليون جنيه استرليني في عام ١٩٦٦، وهو مبلغ مهم بالنسبة إلى بلد صغير كبلدنا.

ثم هناك مشكلة السلاح. فقد فقدنا الطيارات والدبابات والأسلحة الثقيلة والخفيفة. وغدا من الضرورات المستعجلة أن نحصل على بديل لها. وكنت على استعداد لأن أتلقى السلاح من أية جهة كانت، سواء من الشرق أو من الغرب. ذهبت إلى موسكو في تشرين الأول (أكتوبر) ولم يخف عني الذين تحدثت إليهم من المسؤولين بأنني إذا كنت في حاجة إلى شيء، فهم تحت تصرفي، تقرّباً إلي واكتساباً لمرضاتي. إلا أنني فضلت الاستمرار في التزود بالسلاح من أولئك الذين كانوا يدعمونني دوما. فعوضني الانكليز ببعض طائرات الهنتر ودبابات السنتوريون. وأسلمتني الولايات المتحدة طائرات من طراز ستار فايتر وبعض الأسلحة المختلفة.

وهكـذا بعد مضي ثـلاث سنوات، كـان لدي جيش كـامل العـدد والعـدة حسن التـدريب، يملك بشكل خـاص (٣١٠) من الـدبـابـات من طـراز بـاتـون وسانتوريون، وعشرين طائرة هوكر هنتر وثماني عشرة ستار فايتر. كما جهزت البلاد بنظام دفاعي من الصواريخ. كان علي أن أكافح للحصول على كل هذه المعدات، لأن العقـول كانت مـا تزال مستعـرة اللهيب، وكان الجميـع يتحدثـون عن حرب جديدة في حـين أنني بين عـامي ١٩٦٨ و ١٩٦٩ لم أتلق سوى نصف التجهيـزات التي كنت أنتظرها. إلا أن حدة التوتر خفت لحسن الحظ بعض الشيء. وابتعدت أصوات الجزمات العسكرية.

بعد أن نهضت اقتصاديـات البلاد من كبـوتها، وجهـز الجيش من جديـد، كانت هنالك مهمة من نـوع خاص وعـلى جانب أعـظم من الخطورة، تنتـظرني. وكنت في ذلك العهد لا أدري أنها سوف تستغرقني سنوات عديدة، ألا وهي تحرير الأراضي المحتلة. لم يكن من المعقول أن ننال هذا التحريـر بالقـوة، ولقد اعـترتني الـدهشة عنـدما سمعت عبـد الناصر يحبـذ مثلي أن نحقق هـذا التحريـر بالـطرق الـدبلوماسيـة. كنت أرى أن مما لا شـك فيه بـأن المفاوضـة هي الوسيلة الـوحيدة لاسترداد أراضينا. لذلك كـان لا بد لنـا من التلاقي وبحث هـذا الموضـوع بهدوء وبمعزل عن الانفعال. فاقترحت عقد مؤتمر قمة جديد نتداول فيه بشكل خاص في الموقف المشترك الواجب اتخاذه إزاء إسرائيل. كانت الدولة اليهـودية عـلى استعداد للتحدث مباشرة معي ومعي وحـدي، ولكنني لم أكن راغباً في الانفـراد والانشقاق عن الشعوب العربية الأخرى التي وقعت ضحية العدوان في حزيران (يونيو). لهذا كان لا بد من توحيد قضيتنا وإعداد خطة مشتركة. وهذا ما أدى إلى لقاء الخـرطوم الذي قاطعته الجزائر وسوريـة. وانني أكتفي من البلاغ النهـائي الصادر عن هـذه القمة بهذه الفترة الهامة:

«قرر ملوك ورؤساء الدول العربية توحيد جهودهم السياسية على الصعيدين الدولي والدبلوماسي لإزالة آثار العدوان الإسرائيلي والحصول على انسحاب قـوات العدوان الإسرائيلية من الأراضي العربية المحتلة في الخامس من حزيـران. وسيتم

ذلك ضمن نطاق المبادئ الأساسية التي تعتمدها الدول العربية وهي : لا صلح مع إسرائيل، ولا اعتراف بإسرائيل، ولا مفاوضة معها، وتأكيد حقوق الشعب الفلسطيني في أراضيه».

لقد وجهت إلينا انتقادات مريرة من جراء ما اتصف به هذا النص من الصلابة والحزم ولكنه كان الوسيلة الوحيدة لتأكيد إرادتنا التي لا تتزعزع في البقاء متحدين مصممين.

وجاءت فيها بعد مهمة يارينج، وهو رجل يتصف بالنباهة والذكاء. كنا نبدوا أننا نتقدم بخطوات متثاقلة. ولكن مع تراجع الزمن، يدرك المرء اليوم أنه طوال كل هذه السنين التي أعقبت حرب حزيران ١٩٦٧، كنا نراوح في مكاننا لا نريم وندور حول دائرة لا نتجاوزها.

ومع ذلك، على الرغم من تدمير جزء كبير من طاقتنا العسكرية، وعلى الرغم مما أصاب اقتصادنا من معوقات في هذا الصيف من عام ١٩٦٧، فقد كانت هنالك مشكلة مهمة، وفي منتهى الأهمية أيضاً وهي: المشكلة الإنسانية الخاصة بالإبقاء على حياة الشعب الفلسطيني. قبل عدوان حزيران، كان عندنا في الأردن بمعناه المحصور، أي في الضفة الشرقية من نهر الأردن، حوالى خمسمائة ألف لاجئ فلسطيني، انضم إليهم مائة وخمسون ألفاً هربوا من الضفة الغربية. كانت أحوالهم المعيشية مقلقة، غير مستقرة، إن لم نقل إنها كانت لا تلائم حاجات البشر. وقد ركزت سائر جهودي لكي يتسنى لهؤلاء الناس الذين أقصوا عن ديارهم، العيش على توالي الأشهر ثم السنين، بكرامة وبصورة طبيعية. ومن أجل ذلك كنت في حاجة إلى المال. إلى المال الكثير. ولئن كانت المعونات تردنا من القارات الخمس ومن المؤسسات الخيرية، فقد كانت هزيلة تبعث على السخرية، في مواجهة ضخامة المشكلة. وكان هذا البطء لا يروق للاجئين وزعمائهم، ومنهم ياسر عرفات الذي جعل يزداد وزناً وأهمية، يضاف إلى ذلك أن زعيم فتح وزعيم منظمة التحرير آنئذ أحمد الشقيري، كانا يستغلان وصول اللاجئين الجدد والعاطلين عن العمل الجدد لإلحاقهم في منظماتها الفدائية وتدريبهم وتسليحهم

استعداداً للضربات التي كانا يعتزمان القيام بها في المستقبل. كنا نسير على مهل نحو تصعيد لا سبيل إلى معالجته وتفاديه، بلغ ذروته القصوى في أيلول عام ١٩٧٠، وهو تاريخ أسود وشهر من الحداد في حياتي.

كان الفلسطينيون قد وطدوا العزم على استرداد أراضيهم التي احتلت ظلماً وعدواناً في أقرب وقت يتيسر لهم: كان لهم أقارب في الجانب الآخر من نهر الأردن، كان لهم أولاد وبيوت وبساتين تمثل سنين عديدة، إن لم نقل أجيالاً من الجهود والتضحيات. كانت سورية تدعمهم دعماً فعالاً، وهذا ما كنا نعرفه قبلاً، وكان يساندهم العراق أيضاً الذي كان له خمسة عشر ألف جندي يرابطون في الأردن باستمرار منذ الحرب. وقد كان الفدائيون بمباركة من دمشق وبغداد، يجتازون الحدود الجديدة للقيام بضرباتهم ومناوشة العدو بعملياتهم. وقد حدث ما لا بدَّ من حدوثه.

كانت إجراءات إسرائيل الانتقامية ملطّخة بالدماء في شباط من عام ١٩٦٨. وقد ألحَّ عليّ بعض قوادي العسكريين أن أتولى بشكل أكثر فعالية، رقابة وتوجيه هؤلاء الفدائيين. الذين بدأوا يتمادون في التصرف على هواهم في الأردن. وقد صرح وزير داخليتي وقتئذ بشكل خاص بأن: «الأردن مصمم على أن يضرب بقبضة فولاذية كل الذين يقدمون لإسرائيل بأعمالهم، الحجج والأعذار للعدوان على وطننا».

كان علينا أن لا نصطدم وجهاً لوجه مع الفدائيين. ولكن كنا مصممين على الاحتفاظ بزمام الموقف في أيدينا.

ثم وقعت الغارة على الكرامة في آذار (مارس) من عام ١٩٦٨ من قبل القوات اليهودية، كان الاشتباك دموياً من الجانبين خسائر في الأرواح البشرية، تدمير للمعدات. وكان دفن الشهداء من الفدائين مناسبة لقيام مظاهرة ضخمة. مؤيِّدة لهم، وبداية، ولا شك، لنواة من المقاومة أكثر رسوخاً وأمتن بنياناً، وما من شك في أن المنظمة التي كان الفدائيون يجاهدون تحت لوائها كانت تلفت النظر

بـروعتها حقـاً، كانت حسنـة التجهيز، جيـدة التدريب. وقـد قاتلت في معـركـة الكرامة إلى جانب القوات الأردنية ببسالة وفعاليـة. ولكن لا بدّ لي من الاعـتراف بأن من الصعب عليّ أن أمارس رقابتي وتوجيهي على جنود لا نستطيـع تمييزهم من غـيرهم في الأردن حيث توجـد قوانـين، وحكومـة لجميع المـواطنين مهـما كـانت أصولهم وأجناسهم ومعتقـداتهم. هذه القـوانين واجبـة التطبيق عـلى الجميع بـلا استثناء. لم أكن أرغب في دولة ضمن دولة.

هؤلاء الفدائيون الذين كانت سورية تتولى تسليحهم وتجهيزهم وإطعـامهم وإيواءهم ودفع مرتباتهم، كان أصدقاؤهم في دمشق والقاهرة يبعدونهم بلبـاقة عن أراضيهم. فقـد ألغت سوريـة كل عمـل فدائي انـطلاقـاً من حـدودهـا، أي من الجولان. كانت دمشق تـرتاب بشكـل خاص في منـظمة فتـح التي كانت تعتـبرها مزعجة جداً. فكان الفدائيون، دون أن يطردوا من سورية «يوجهـون» نحو لبنـان والأردن فينـطلقون منهـما للقيام بعمليـاتهم ضد الـدولة اليهـودية. وهـذا ما كنت أرفضه، وما زلت حتى اليوم أرفضه.

إنني لا أحتاج إلى دروس في القومية والوطنية أتلقاها من احد فإذا كان أحد يعتبر وقتئذ، وما زال يعتبر الآن، بأنه أكثر قومية عربية مني، فليبرهن عـلى ذلك في بلده نفسها، وليس باتخاذ الأردن أرضاً للتجارب.

إزداد عدد الفدائيين شهراً بعد شهر في الأردن ولا سيما في المدن. وأصبحت عـمان معقلاً لهم. كـانـوا يتجـولـون في شـوارع العـاصمـة وأسلحتهم في أيـديهم يتحدّون السكان وأفـراد جيشي. في تشرين الأول (أكتوبـر) من عام ١٩٦٨، بلغ التوتر بين جيشي والفدائيين ذروته. كانت الاشتباكات والخطب وبلاغات محـطات الإذاعة كلها كانت تحضّ وتحرّض على الهيجان والفوران. ولقد وقـع ويا لـلأسف ما كان لا بدّ من وقوعه والذي كنت أخشاه.

*** لقد قابلتم ياسر عرفات عدة مرات بين عامي ١٩٦٨ و١٩٧٠. أما كنتم أنتم الاثنان تستطيعان إيقاف هذا التصعيد؟**

ـ بالطبع، فقد أجرينا عدة محادثات أنا وياسر عرفات طوال هذه الأشهر الحرجة. وعقدت اتفاقيات مع الفدائيين، اعترفوا بموجبها، في الفترة الأولى، بسلطة الجيش الأردني. ولكن الجميع كان يعرف بأن منظمة التحرير الفلسطينية ليست هي التي تسلّح الفدائيين فحسب، بل كان هنالك أيضاً جماعات أخرى غير معروفة إلاّ قليلاً في ذلك العهد، ثم ازدادت أهميتها بالتدريج فيما بعد. لقد أجريت محادثات ودية جداً وإيجابية مع ياسر عرفات في شباط من عام ١٩٦٩. ولكن ما العمل عندما ترفض القوات طاعة رؤسائها وتقرّر تشكيل مجموعات أخرى أشدّ اضطراماً واحتداماً وأكثر تصميماً. كنت راغباً في قبول القرار رقم (٢٤٢) الصادر عن مجلس الأمن الدولي. وكانت محادثاتي مع نيكسون الذي كان قد دخل البيت الأبيض قبل قليل، قد رسخت رغبتي التي كانت رغبة العرب جميعاً، وهي العمل على حمل إسرائيل على احترام المقررات التي كانت الأمم المتحدة قد اتخذتها منذ مدة غير بعيدة.

ولكن الدبلوماسية بطيئة، والضحايا الأبرياء للعدوان الإسرائيلي لم تعد تقبل الانتظار. كان الفلسطينيون تواقين إلى أن يستردوا بالسلاح ما جردوا منه ظلماً في عام ١٩٦٧. فازداد التوتّر تفاقماً في الأردن في عام ١٩٦٩ هذا، ولا سيما في العاصمة عمان. كانت المظاهرات واستعراضات القوة والنداءات إلى التمرّد والشعارات المعادية للأردن وزعمائه، يتوالى ظهورها في كل يوم.

إزاء خطورة الموقف في نهاية الصيف، عينت خالي الشريف ناصر قائداً عاماً

لقواتنا المسلحة، ومحمد رسول الكيلاني وزيراً للداخلية. كانا رجلين يتصفان بالصرامة والفعالية والوطنية، ويعرفان تمام المعرفة ما أتوقع منهما، وهو إعادة الهدوء إلى داخل أراضينا، والقيام بالمراقبة المشددة الدقيقة للحدود مع إسرائيل.

لقد سبق لي القول: بأن الصعوبة تكمن في أن الفدائيين كانوا شيعاً وأحزاباً. فالاتفاقيات التي تعقد مع بعضهم لا يعنى بها الآخرون. والالتزامات التي توقّعها قوة ثالثة، ترفضها مجموعة أخرى. كنت أحتفظ بعلاقات مجاملة مع ياسر عرفات. ولكن القرارات التي كنا نتخذها معاً، كانت تتجاهلها الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، التي يتزعمها الدكتور جورج حبش، والجبهة الديمقراطية الشعبية لتحرير فلسطين التي كان يترأسها نايف حواتمه. هاتان الحركتان المتطرفتان إلى أقصى حدود التطرف، كانتا تناديان بأعلى الأصوات على كل من يودّ الاستماع بأنه: «قبل تحرير فلسطين، ينبغي تحرير عمان».

ولكي يعرّفوا بأنفسهم، ويعترف بهم الناس، كانت هاتان المجموعتان تستخدمان أكثر الأساليب مسرحيّة واستلفاتاً للنظر، كتحويل الطائرات عن خطوط سيرها.

ولقد تعرّضوا حتى إلى أسرتي، ولا سيما إلى زوجتي الأميرة منى. فقد أوقفوها بينما كانت تستقل سيارتها في شوارع عمان قبل قليل من حلول عيد الميلاد وأطلق سراحها حرسي الخاص بعد بضع ساعات.

في بداية شباط (فبراير) من عام ١٩٧٠ قمت بزيارة عبد الناصر في القاهرة للتباحث معه في الموقف الداخلي الذي كان سائداً في بلدي، واستطلاع رأيه بشأنه. كان الرئيس المصري ما يزال محتفظاً بكل هالة النفوذ التي كان يتمتع بها في العالم العربي وكانت نصائحه ومشوراته مسموعة ومأخوذاً بها. ولكن إذا كان قد نصحني سرّاً وبعيداً عن الأنظار الفضولية، بأن التزم جانب الحزم إزاء الفدائيين، فلم يكن في مقدوره أن يفعل ذلك في خطاباته، لأن هذا كان سيثير الاستهجان في سائر العالم الإسلامي وعندما عدت إلى عمان في العاشر من شباط (فبراير) كنت

أعلم أنـه كان لي في شخص الـرئيس المصري، صديق يتعـاطف معي وجدانيـاً، ولكن ليس حليفاً رسمياً في أية حال. كنت أعرف أنني وحيد، وحيـد أكثر من أي وقت مضى. وأن أقـل خطوة عـاثرة ضـد المنظمات سـوف تكلفني استثـارة غضب الشعوب الشقيقة وقـطع المعونـات المهمة التي كـانت تمدّني بهـا ليبيا والكـويت ولا سيما منذ عام ١٩٦٧.

في هذا اليوم اتخـذ محمد رسـول الكيلاني قـراراً بمنع حمـل السلاح في سـائر الأراضي الأردنيـة وأجرى رقـابة جـديدة عـلى كافـة السيارات المـدنية. . فـاعتـبر الفلسـطينيون التدابير التي اتخـذها وزيـر الداخليـة بمثابـة استفزاز حـربي. كـانـوا يرفضون بأي ثمن الموافقة على التخلي عن أسلحتهم. وكان لا بـدّ لي من استخدام كل ما أملكه من أساليب الاقناع خلال حديث مع الزعماء الفلسطينيين، جرى في منزل رئيس الوزراء بهجت التلهوني، للتوصل إلى تنازلات متبادلة،فتقوم الحكومة بتجميـد مقـررات الـوزيـر بعض الـوقت، شريـطة أن يضـع الفـدائيـون حـداً لتجاوزاتهم.

في الـرابع عشر من شبـاط (فبرايـر) وخلال مؤتمـر صحفي، أعلنت بشكل خـاص، أن مقررات وزيـر الداخليـة قد كـانت خـطأ يعـود إلى عـدم الإحـاطـة بالموضـوع، وقلت: بكل اخـلاص، لم أكن أتوقـع ردود الفعل هـذه بعد صـدور القرار الحكومي القـاضي بمنع حمـل السلاح. ربمـا حدث انقـطاع في الإتصالات، فالحكومة لا تريد من الفدائيين أن لا يحملوا سلاحهم، إنمـا تود فقط مـوقفاً يتسم بالتنسيق والتنظيم. على كل حال فإن قرارات الوزير سوف يجري تجميدها. . .».

بعد عشرة أيام أعفيت محمد رسول الكيـلاني من منصبه فـاعتبر كـل جانب أن ما حدث كان نصراً له، وبدا كـل من الطرفـين أنه قـد كسب المعركـة. ولكن الحرب، ماذا حل بها؟ هل ابتعدت؟ هل زالت معالمها؟ لا ويا للأسف. فقد تبـع ذلـك فترة هـدوء قصيرة تغمـرها الكـآبة ويلفهـا القلق: فترة لم تـدم سوى أربعـة أشهر.

في صباح التاسع من تموز (يوليو) كان زيد الرفاعي مساعدي في القصر، والذي غدا فيما بعد، رئيساً للوزراء، قد استيقظ مبكراً جداً على قعقعة الأسلحة الأتوماتيكية. فاتصل هاتفياً بابن عمي زيد بن شاكر لمعرفة ما كان يحدث. فأبلغه الأخير بأن الفدائيين كانوا يطلقون النار على المقرّ العام للمخابرات. فذهب إلى هناك على عجل ماراً تحت النيران المتشابكة الصادرة من رجال جيشي ومن الفدائيين، واستطاع كيفما اتفق أن يدخل إلى دار وأن يتصل بي هاتفياً منها لإبلاغي وتحذيري. وعلى الرغم من توسلاته إلي لكي أبقى حيث كنت أقيم في الحمّر، فقد اندفعت في سيارة مع القائد العام لجيشي وعدد قليل من الحرس، لنرى رأي العين ما كان يجري إذ كان أيضاً من مقتضيات مهنتي أن أتواجد حيث تدعو الحاجة إلي حتى ولو كان ثمة خطر، وأي خطر كان سائداً في هذا اليوم!

وما كدنا نمر أمام مركز القيادة العسكرية في صويلح، حتى جعلت نيران الرشاشات تدوي. فلاقى حتفه أحد الجنود المتواجدين في سيارة الجيب التي كانت تتقدمني وجرح آخر. فأطلقنا جميعاً نيران أسلحتنا للإفلات من هذا الكمين، واستمر إطلاق النار بضع دقائق أيضاً إلى أن توقف، أسفر ذلك ويا للأسف عن وقوع قتلى: ثمانية من الفدائيين، وأحد جنودي، وأربعة جرحى. ربّاه، لماذا كل هذا؟ لماذا؟. وما أن بلغت القصر حتى أخبرني مساعديّ بأن المنظمات الفلسطينية لا تنسب إلى نفسها هذه المؤامرة وأنها على العكس من ذلك قد استنكرتها. غدا الوضع فوضى متزايدة باستمرار. لا أحد يطيع أوامر أحد. كل يلقي اللوم على الآخر. كانت الأذهان في حالة غليان، ولا سيما بين رجالي من أبناء العشائر الذين كانوا ينتظرون مني أن أعطيهم النور الأخضر حتى يندفعوا إلى المعركة. وانطلقت الشائعات التي لا تساعد على تسوية الأمور، وتهدئة الخواطر: قيل بأنني أصدرت أمري إلى الجيش بمحاصرة مخيمات اللاجئين في الوحدات، وفي مخيم الحسين حيث «سقط مئات القتلى والجرحى». ياله من هذيان... ومن باب الإنتقام قامت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بمحاصرة أهم فندقين في العاصمة واحتجزت ثمانية وخمسين من المواطنين الأجانب كرهائن: وأعلنت بأنها سوف تطلق سراحهم عندما تصمت نيران الأسلحة وإلا فإنهم سوف يقتلون، وسيدمر الفندقان.

في العاشر من حزيران، جرى وقف لإطلاق النار. ولكنه لم يدم سوى فترة قصيرة. وفي اليوم التالي أصرّ الفدائيون على استقالة أربعة من أقرب المستشارين عندي. كان بينهم خالي الشريف ناصر، وابن عمي زيد بن شاكر. كان هذا غير معقول. ثم وقعت حادثة مؤلمة عندئذٍ: قتل الفدائيون الذين كانوا منتشرين في كل مكان في المدينة، شقيقة زيد بن شاكر، ابنة عمي، جوزاء التي كانت قد صعدت إلى سطح بيتها لتشاهد ما كان يجري وسواء أقتلت عمداً أم سهواً فقد كان الفدائيون قد أحدقوا بدار أم قائد الفرقة المدرّعة، وفي نيّتهم أن يظهروا تواجدهم بطريقة أو بأخرى. كانت جوزاء الضحية البريئة لذلك. ولما كان من الممكن أن يستمر التصعيد وأن يستتبع هذا سقوط قتلى آخرين. فقد اتخذت على كره مني، قراراً بإعفاء الشريف ناصر وزيد بن شاكر من منصبيهما، وأبدلت خالي في قيادة الجيش، بالجنرال مشهور حديثة، مقابل ذلك أطلق الفدائيون رهائنهم. وهذا لم يمنع من إطلاق نيران الرشاشات على مشهور حديثة في اليوم التالي لتقلده منصبه في إحدى ضواحي عمان. ولحسن الحظ لم يصب بأذى.

أحسست بأن وجود خالي في الأردن في هذا الصيف من عام ١٩٧٠ كان يزعج الفدائيين الذين كانوا يأخذون عليه «توجيه دفة الأمور» من وراء الكواليس. فتسامحت أيضاً ورجوت الشريف ناصر أن يأخذ بعض الإجازة في الخارج، ريثما تعود الأوضاع إلى نصابها من جديد. وفي السابع عشر من حزيران، خلال مؤتمر صحفي عقدته، لم أستطع أن أتمالك نفسي من توجيه المديح والثناء للرجلين اللذين أعفيتهما من منصبيهما وهما: خالي وابن عمي اللذان عادا فيما بعد إلى العمل، واللذان كانا في رأيي مفخرة لجيشنا ولشعب الأردن. في السادس والعشرين من الشهر المذكور عينت عبد المنعم الرفاعي رئيساً جديداً للوزراء. وفي اليوم التالي استقبلنا في عمان بعثة عربية رسمية قادمة من الجزائر وتونس وليبيا ومصر والسودان. وقد جاءت بدعوة مني للإدلاء برأيها والاعراب عن مشاعرها حول المشكلة التي تثير الهم والقلق وتقسم السكان إلى طائفتين متناحرتين متعاديتين، ومستعدتين لكل شيء. استمرت أعمالنا أسبوعين، وأخيراً، في العاشر من تموز (يوليو) وقّع اتفاق من قبل مختلف الأطراف. وقعه الرفاعي

باسم حكومتي ووقعه عرفات باسم الفدائيين (والحكماء) العرب الخمسة، وقد اعترفنا بموجبه بوجود (لجنة مركزية) للفدائيين على أراضينا ندع لها كل حرية للمناورة والتنقل مقابل أن يتخلى الفدائيون عن قواعدهم ومستودعات ذخائرهم في التجمعات السكانية الأردنية ويكفوا عن حمل السلاح في المدن.

كان هذا من شأنه أن يجعل المرء يتطلع إلى المستقبل بهدوء وسكينة. لقد كان هنالك ما يدعوني، بحكم طبيعتي المتفائلة، ان أعتقد بأننا بذلك قد نجونا تماماً من مواجهة قد يقتل فيها الأخ أخاه. ولكنني ما لبثت أن اضطررت إلى تضييق مدى ما كنت أرتجيه: إذ لم تدم الهدنة سوى شهر واحد، بلا زيادة يوم واحد. كنت وافقت مثل عبد الناصر على الاقتراح الأمريكي بإيقاف النار لكي نتيح لوسيط الأمم المتحدة مواصلة جهوده في جو أكثر هدوءاً. وعندما قررت مصر والأردن الاحترام الدقيق لوقف إطلاق النار ثارت ثائرة الفدائيين مرة أخرى. فقد اعتراهم شعور بأن عبد الناصر وأنا قد خذلناهم وغدرنا بهم وأن قضيتهم قد «أغفلت». لقد تكون لديهم انطباع خاطىء طبعاً بأننا بعملنا هذا لم نعد نريد محاربة إسرائيل، بل مقاتلتهم هم الفلسطينيون. ومنذ ذلك الحين تجاوزت الأحداث ياسر عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية. وأمسكت جبهة التحرير والجبهة الديموقراطية بالأمور في أيديها. كانوا يودون العمل بسرعة، وبسرعة قصوى. لم يعد أي شيء يستطيع منذئذٍ أن يوقفهم. كان الأمر في نظرهم مسألة تتعلق بالإبقاء على حياتهم.

* ثم كان الانفجار وكان أيلول الأسود . . .

ـ اعتباراً من ذلك الوقت ظهرت الأزمة. فاما نحن أو هم. لم يقبل أحد أن يقدم تنازلات ولم يكن أحد راغباً في أن يتراجع عن موقفه. كانت المواجهة أمراً لا يمكن تفاديه، ويا للأسف!. بالطبع كان ثمة خلافات بين المنظمات الفلسطينية مثلما توجد خلافات بينها اليوم أيضاً. ولكن من أجل الإبقاء على حياتها كانت لا تستطيع إلا أن توحد جهودها.

ذهبت في الأول من أيلول لاستقبال إبنتي الكبرى عاليه في مطار عمان. فتعرضنا في طريق العودة لنيران غزيرة من أسلحة أتوماتيكية كان يطلقها الفدائيون علينا من بيوت تحصنوا فيها. وثبنا خارج سياراتنا وألقينا بأنفسنا في الخنادق وفتحنا النار. وقد خرجنا من هذا الكمين كيفما اتفق.

بعد مضي خمسة أيام حوّل الفدائيون الفلسطينيون طائرتين مدنيتين عن خطوط سيرهما. إحداهما سويسرية والثانية أمريكية وأرغموهما على الهبوط في ميدان دوسون (قيعان خنّا) على بعد بضعة كيلو مترات شمال شرقي الزرقاء. كانتا تقلان (٣١٠) من الركاب والملاحين، بمن في ذلك (١٢٥) امرأة وطفلاً. كما فشلت في لندن محاولة تحويل أخرى أجريت على طائرة تابعة لشركة العال الإسرائيلية. وقد دمرت أيضاً طائرة جامبو أمريكية في القاهرة بعد هبوطها بقليل. هذه الهجمات نسبها إلى نفسه وديع حداد الرجل الثاني في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين باعتبار أن جورج حبش كان وقتئذٍ في كوريا الشمالية. وفي التاسع من أيلول هبطت أيضاً طائرة بريطانية من طراز (في سي تن) في ميدان داوسون وعلى متنها (١١٥) راكباً. كان المفروض إطلاق سراح الرهائن إذا ما أفرج عن سبعة

فـدائيـين محتجـزين في السجـون الأوروبيـة، وبعض آخـر معتقلين في السجــون الإسرائيلية. كانت منظمات المقاومة منقسمة فيما بينها حول الأساليب التي تنتهجها الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. كان يـاسر عرفـات معارضـاً لهذه الإختـطافات وكانت تجاريه في موقفه المعارض سائر الأقطار العربيـة بلا استثنـاء. في الثاني عشر من هذا الشهر، أطلق سراح معظم المسافرين الذين كانوا محتجزين ضمن ظروف وأحوال شاقة عسيرة كانت تتفاقم باستمرار، ما عدا أربعة وخمسين شخصـاً وزعوا في مختلف إنحاء البلاد ريثما تتم مبادلتهم بالفدائيين المعتقلين. وقد أطلق سراحهم جميعاً سالمين معافين في نهاية الشهر.

وفي رأيي، وهذا ما قلته وأعدت قـوله: أن هـذه التحويـلات لخطوط سـير الـطائرات المـدنية لهي (عـار على العـرب أجمعين). عبثـاً طوقت ميـدان داوســون بقوات من جيشي، وعبثاً حاول القائد العام الجنرال حديثه مفاوضة الفدائيـين من (٦) حتى (١٢) أيلول (سبتمـبر)، فلم نخرج من الأمـر بـطائـل. كـان الصـدام العسكري غير معقول لوجود هذا العـدد من الرهـائن في أيدي الفـدائيين. كـانوا يستحثونني في كل جانب لكي أتدخل بفعالية. ولكن كان هذا غايـة في الخطورة. وكـان الجيش يريـدني أن أنتقـل إلى العمـل الفعـال، ولـو أدى إلى سقـوط بعض القتلى.

حتى أن بعض جنودي، من بين أخلصهم وأشدهم ولاء، لم يعودوا يعرفون مـاذا يفعلون وإلى من يلجأون. كنت متـواجداً يـوماً، خـلال الأسبوعـين الأولين الحرجين من أيلول (سبتمبر) في مواجهة سرية مدفعية مستعـدة لعمل أي شيء مـا عدا البقاء في وضع سلبي كانت تتقدم في أحد مفارق الطرق جنوبي الحمّر، وبينـما كنت أتجه في سيارتي نحو هذه السرية في محاولة لإيقاف سيرها، ناداني أحد الجنـود بعد أن قفز من سيارة شاحنة وقال: «توقفوا وعـودوا من حيث أتيتم، إذهبوا. إلى الخلف درا» وجاء آخر فزاد على ذلك قائلاً: «انسحبوا من طـريقنا أو أقتـل نفسي أمامكم». وكان قد جذب مسمار قنبلة وأضاف: «لقـد كنتم أملنا، وكنـا نحبكم. كل هذا قد انتهى!».

لقد تقاضاني هذا الأمر ثلاث ساعات لأصرف رجالي عن محاولة القيام بهجوم عسكري والعثور على حل آخر غير الحرب الأهلية وقتل الأخ لأخيه. تموز

في ليلة الرابع عشر من أيلول، كان رئيس وزرائي عبد المنعم الرفاعي وياسر عرفات يعملان بنشاط متواصل في محاولة لارساء قواعد اتفاق يكفل بعض الحقوق للفدائيين ويتيح لهم إنشاء معسكرات أخرى خارج المدن الكبرى. ولكن في اليوم الخامس عشر، عندما عرض عليّ الرفاعي الخطوط العريضة لهذا المشروع الذي أعده طوال ساعات الليل كلها مع زعيم منظمة فتح، لم أستطع إلا رفضه. ولكي لا أصدم أحداً في مشاعره، قلت بأنني سوف أفكر في الموضوع فيما بعد، بذهن مسترخ. وبعد ظهر اليوم نفسه، جمعت في الحمَّر بعضاً من أقرب مساعديّ ومستشاريَّ، وهم وصفي التل، وزيد الرفاعي واثنان من كبار الضباط هما مازن العجلوني وقاسم المعايطة، وابن عمي زيد بن شاكر الذي كنت قد عينته في آب (أغسطس) على رأس دائرة العمليات في القيادة العامة للجيش. فأتفق الجميع في الرأي على وجوب إجراء عمل حازم وسريع ضد الفدائيين، ولاسيما وأنه في فترة بعد الظهر هذه قتل ابن قاسم المعايطة أثناء اشتباك بين الجيش والفدائيين في الزرقاء. كانوا يريدون الصدام العسكري قالوا ذلك بصريح العبارة.

اتخذ القرار إذن في مساء الخامس عشر من أيلول (سبتمبر) كان لابد من العمل بسرعة، وإلا سار الأردن كله في طريق الإنهيار. وفي ساعات متأخرة من الليل، بعثت في طلب رجل لا يعرفه الجمهور إلا قليلاً، رجل مسن هو الزعيم محمد داوود. كان فلسطينياً محترماً، رفيع المنزلة عند عارفيه. كان دائم الاستياء من تطرف بعض زعماء منظمة التحرير، ومن فشل ياسر عرفات في محاولته السيطرة على سائر العمليات الفلسطينية، ومن انعدام الإنضباط لدى بعض وحدات الجيش. ولسوف تبقى التعابير التي ارتسمت على وجهه عالقة في مخيلتي، عندما طلبت إليه ترؤس حكومة عسكرية، قدمت إليه قائمة بأعضائها. كان الزعيم محمد داوود يعرف ما يتوجب عليه عمله: إذا لم يجل الفدائيون عن المدن كما تقضي بذلك إحدى نقاط اتفاقية الرفاعي عرفات، في الساعة الثامنة من صباح

السادس عشر من الشهر، فإن الجيش سيشرع في الهجوم. كان الجو ثقيل الوطأة، فأتخذ مع مستشاري الرئيسيين هذا القرار البالغ الأهمية الذي كنت قد رفضت اتخاذه منذ أشهر، لا بل منذ سنوات.

كان الزعيم محمد داوود، يقدره الفلسطينيون. وكان له العديد من الأصدقاء بين زعماء المقاومة. فلربما كان تعيين رجل متزن حازم، سيؤدي إلى انقاذ ما يمكن انقاذه!.

في الساعة السادسة صباحاً، أذاعت محطة اذاعة عمان، نبأ تشكيل الحكومة الجديدة التي كانت تتألف من سبعة جنرالات وثلاثة عقداء، وثلاثة رواد، وحل المشير حابس المجالي في قيادة الجيش محل الجنرال مشهور حديثه. وفي الرسالة التي وجهتها إلى شعبي، أعلنت بشكل خاص بأن: «حالة من الشك والفوضى وانعدام الطمأنينة والأمن، تسود بلادنا العزيزة، وأن الخطر الذي يهدد الأردن قد ازداد. فقدرنا أن من واجبنا اتخاذ سلسلة من التدابير لإعادة القانون والنظام وحماية حياة كل مواطن، وسبل عيشه وما في حوزته...».

اعتبر الفدائيون هذا القرار وهذه الأقوال بمثابة اعلان حرب. واستدعى ياسر عرفات اللجنة المركزية إلى مقر قيادته في جبل الحسين حيث أتخذ قرار في غاية الخطورة: إذ قررت جميع منظمات المقاومة أن تتحد تحت لواء ياسر عرفات والجبهة الشعبية، ومنح اللواء يحيى منصب رئيس أركان حرب، وهو الآن قائد لجيش التحرير الفلسطيني. وتقرر القيام باضراب عام يبدأ في اليوم التالي ويستمر «إلى أن تسقط الحكومة الفاشية.». حاول داوود عبثاً طوال نهار السادس عشر، الإتصال بياسر عرفات إلا أن الاتصال الهاتفي القصير الذي أجراه معه في ساعة متأخرة من بعد الظهر لم يغير من الأمر شيئاً. كان ذلك يعني الصدام العسكري والمواجهة التي طالما خشيناها والتي يقتل فيها الأخ أخاه.

بدأت المواجهة في الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والخمسين من صباح السابع عشر من أيلول. كان يتواجد من ناحية، خمس وخمسون ألف رجل

مجهـزون خير تجهيـز ومدربـون خير تـدريب، ويشكلون كتلة واحدة وفي حـوزتهم ثلاثمائة دبابة وحوالي أربعون طائرة. ومن ناحية أخرى خمسـون ألفاً من الفـدائيين يمكن اعتبار حوالي نصفهم من الجنـود الحقيقيين، يسـاندهم عشرة آلاف آخـرون متمركزون في سورية، بالإضافة إلى أنهم يستطيعون أن يتمتعوا في أية لحظة بدعم اثني عشر ألف جندي سوري وعراقي مرابطين في الأردن منذ عام ١٩٦٧.

كان أول رد فعل أجنبي خلال نهار السابع عشر هذا، قد جاء من الـرئيس السوري نور الدين الاتاسي، الـذي أيد الفـدائيين فـوراً، وكان يشجعـه في ذلك مساعداه صلاح جديـد ويوسف الـزعين اللذان كـانا يـطالبان بـالتدخـل الفوري للجيش السوري إلى جانب الفدائيين. ولكنهما أوقفا بعض الشيء في اندفاعهما من قبـل وزير الـدفاع السـوري الفريق حـافظ الأسد، وهـو رجل راجـح العقل نـير الفكر. إذ كان يعتقد بأن من المحتمل أن يؤدي اتيان عمل كهذا الى حمل اسرائيل على اتخاذ إجراء ضد دمشق.

كان عبد الناصر يبدو في حيرة وارتباك. فقد أرسل إلينا، بعد حديث مطول أجـراه مع العقيـد القذافي، رئيس أركـان حربـه الفريق محمـد صادق الـذي دعـا الفريقين عند وصوله إلى إيقاف إطلاق النار. ولكن الوقت كان قد فات.

ثم جاءت طعنة الخنجر التي تلقيتها في الظهر إذ تغلب المتطرفون في كل من سورية والعراق وهاجموني في العشرين من أيلول، في اللحظة التي كنـا أقل النـاس توقعاً لها. كان لدى السوريين بشكل خـاص، (٨٨٠) دبابـة ومائتـا طائـرة، هل كـانت النهايـة في هذه المرة؟. كان علينـا أن نواجـه بجيشنـا الصغـير ووسـائلنـا الضعيفة، خصوصاً ثلاثة، في الداخـل وفي الشمال وفي الشرق، دون أن نجـرد من أجل ذلك حـدودنا الغـربية من حـاميتها. ثم مـالت الدول العـربية الـواحدة تلو الأخرى إلى جانب المعسكر الفدائي. وعمد أقرب الأصـدقاء لنـا، أولئك الـذين كانوا دوماً يكنون لنا التقدير والوداد إلى قطع علاقاتهم معنا، ومنـع المعونـة الماليـة عنا.

لقد عاد الكفاح من جديد، من أجل البقاء، من أجل الحياة. كنت أهاجم

من كل ناحية بموجات متتالية من عشرات الطائرات وبحملات من مئات المدرعات، دون أن أستطيع الرد إلا بضربات صغيرة سريعة وفعالة كنت أوجهها إلى قواعد الخصوم الخلفية. كان ميزان القوى واحداً ضد ثلاثة، وحتى ضد أربعة! كان لابد من مناوشتهم بلا انقطاع.

في الثاني والعشرين من الشهر، استردت نفوسنا الأمل والرجاء. فقد استقرت الجبهات وتوازنت. وفي اليوم التالي تراجع المهاجمون. لقد كانت الهزيمة. وفي مساء الثالث والعشرين من الشهر، كانوا قد غادروا ترابنا الوطني، تاركين وراءهم أكثر من ستين دبابة وعشرات من الشاحنات، ومئات من الأسلحة. ولكنهم تركوا بعض القتلى أيضاً. ربَّاه لماذا كل هذا؟

وفي مساء الثالث والعشرين نفسه، جاءت بعثة أخرى تحمل النوايا الطيبة، وكان على رأسها الرئيس جعفر نميري رئيس جمهورية السودان. لقد أتاح لنا النصر الذي أحرزناه إمكانية ترجيح وتغليب وجهات نظرنا التي تقضي بما يلي:

١ ـ وجوب إخلاء الفدائيين وقوات الجيش للمناطق المدنية.

٢ ـ وجوب حصر نشاطات الفدائيين في مناطق الحدود مع إسرائيل.

٣ ـ منظمة التحرير الفلسطينية هي وحدها التي يعترف بها كممثلة شرعية للمنظمات الفلسطينية.

٤ ـ على الفدائيين أن يحترموا قوانين الأردن وسيادته.

رفض ياسر عرفات هذا الإتفاق. وبعد رحلة خاطفة إلى القاهرة، عاد النميري إلى عمان لمقابلة الزعيم الفلسطيني. جرت المقابلة في مساء الرابع والعشرين من الشهر. وقبل ياسر عرفات في النهاية النقاط الأربع من الإتفاق. وأصدر أمره إلى قواته بإيقاف إطلاق النار. وفي ليلة الرابع والعشرين إلى الخامس والعشرين، أذاع هذه الرسالة من محطة إذاعة دمشق: «أيها الشعب العزيز العظيم الشجاع الثوري. من أجل تفادي المزيد من سفك الدماء، ولكي يتسنى لنا مداواة

جراحنا، واستئناف الحياة الطبيعية، أعلن لكم، بوصفي القائد الأعلى لقوات الثورة الفلسطينية، بأنني، استجابة للطلب الذي أعربت عنه بعثة رؤساء الدول العربية، قد وافقت على شروط وقف إطلاق النار. وانني أطلب إلى الأخوة أن يفعلوا مثل ما فعلت، إذا ما قام الجانب الآخر بعمل الشيء نفسه».

عاد النميري إلى القاهرة وبرفقته ياسر عرفات الذي استقبل فيها كرئيس دولة. لقد تحدثوا هناك عن «مذبحة»، وعن «عشرين ألف قتيل بين الفلسطينيين» وعن مشاهد من التقتيل. وقصارى القول: لقد أدين الأردن. جمد الدم في عروقي. فإذا كان عبد الناصر قد سمع رواية عن الحوادث، فلسوف أسمعه الرواية الأخرى، روايتي أنا. في صباح الأحد السابع والعشرين من الشهر، وصلت القاهرة استقبلني عبد الناصر، وأوصلني إلى فندق هيلتون، حيث اجتمعت في الساعة الثانية والدقيقة الثلاثين مع فيصل ملك العربية السعودية والشيخ صباح السالم الصباح أمير دولة الكويت، ومعمر القذافي رئيس جمهورية ليبيا وجعفر النميري رئيس جمهورية السودان، وسليمان فرنجية رئيس جمهورية لبنان، والشامي ممثلاً لليمن والباهي الادغم ممثلاً لتونس بالإضافة الى عبد الناصر وعرفات. وهنالك حادث تفصيلي طريف: كنت أنا وياسر عرفات نحمل سلاحاً!. وبإيجاز أدخلت أمام نوع من المحكمة. استغرقت المحادثات ست ساعات ونصف الساعة. كان الإتفاق الذي ووفق عليه قبل بضعة أيام قد تعدل إن لم نقل قد استهتر به. لم يعد الموضوع يتعلق بابعاد الفدائيين خارج المدن بل: «باحلالهم في مواقع مناسبة من أجل المعركة مع اسرائيل.». لم تتكلم أية من النقاط الأربع عشرة للإتفاق الجديد، عن «احترام قوانين الأردن وسيادته». وبناء على الطلب الصريح الذي أعرب عنه الملك فيصل، اضطررت إلى مصافحة ياسر عرفات.

كل طرف كان يدعي النصر لنفسه. جيشي المنتصر في الميدان، والفدائيون المنتصرون على الورق. ولكن من الذي كان رابحاً؟ ومن الذي مني بالخسارة؟. نعم لقد سقط مئات القتلى. ألف وثلاثمائة حسب أقوال المشير حابس المجالي، وليس عشرون ألفاً. كان الفلسطينيون يتواجدون في المعسكرين. وكان الأردنيون

متواجدين أيضاً في المعسكرين. وكانوا يتبادلون إطلاق النار على أنفسهم. نعم فرّ بعض الجنود من الطرفين، حتى لقد اكتشفت أن سائق سيارتي كان فدائياً وأن أحد الطهاة عندي قد حاول مرات عديدة أن يسمم ما أتناوله من طعام. وعندما جرى اعتقاله كان يحمل قنبلة في جيبه!.

ما أشد الحزن الذي كان يعتريني عندما أستعيد ذكرى كل هذا، وما أشد الكآبة التي كانت تستبد بي! كان لا بد من إعادة تنظيم الأمور في بيتي الأردني، وإعادة الثقة إلى الشعب والجنود. طوال هذه الأحداث الفاجعة، وخلال هذه الأسابيع المؤلمة الشاقة على النفس. نسيت حتى أن رئيس وزرائي قد استقال، فاستبدلته بأحمد طوقان. لقد أهملت اتصالاتي مع شعبي، التي كنت في مسيس الحاجة إليها.

قمت بجولات عادت عليّ بالكثير من الراحة النفسية، إذ كانت بالنسبة إليّ مدعاة لتقوية المعنويات عجيبة. في القواعد العسكرية، استقبلت بالهتاف: «يا حسين، يا حسين». بالطبع لم تنتظم الأمور في يوم وليلة. وقعت أيضاً بعض الاشتباكات هنا وهناك. وجرى بعض الاحتكاك. ولكن الجيش كان يعيد النظام بسرعة في كل مرة. ووردتني أسلحة جديدة من واشنطن ولندن.

ثم جلجل الرعد في العالم العربي، ووقعت المصيبة الفجائية: بإعلان الوفاة المباغتة للرئيس عبد الناصر. وهكذا مات «الخصم الودود»!. ماذا كنت أستطيع أن أستشعر غير الكثير من الألم والحزن أيضاً، على الرغم من الهموم والمتاعب التي تسبب لي بها طوال سنين عديدة؟

لم يبق أحمد طوقان طويلاً في إدارة الأعمال، فقد أبدلته بوصفي التل، أقرب المستشارين إليّ، وعينت في نفس المناسبة مستشاري الآخر، رئيس الوزراء الحالي، زيد الرفاعي، سفيراً في لندن.

خلال الأشهر التسعة التي تلت، قضي بالتدريج على كل مقاومة وغادر الفدائيون أراضينا. وهذا تم على فترتين: من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٠ حتى

نيسان (أبريل) ١٩٧١، حملهم الجيش على الخروج من المدن الكبرى: عمان، أربد، عجلون، جرش، ثم في الفترة الأخرى، من أيار (مايو) حتى تموز (يوليو) ١٩٧١ أخذ الفدائيون الذين تجمعوا في الغابات والقرى والأرياف، أسرى، وتمكن آخرون من الفرار إلى لبنان وسورية، وبعضهم الآخر اتجه نحو الأراضي ... المحتلة. وقد أطلق سراح جميع الأسرى وزعمائهم فيما بعد. وفي آب (أغسطس) من عام ١٩٧١ انتهى كل نشاط عسكري لهم. ومنذ ذلك الحين، غدوت وليّ الأمر في بلدي. كنت أعرف أن الخصم كان يتصف بالعناد والتصميم، وأنه كان ساهراً على الحدود، فطلبت من رئيس وزرائي أن لا يذهب إلى القاهرة في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧١ فلم يلتفت إلى ذلك، وقتله في ردهة الفندق الذي كان ينزل فيه، فلسطينيون كانوا يدعون انتسابهم إلى منظمة مقاومة لم نسمع باسمها سوى للمرة الأولى وهي منظمة أيلول الأسود. وفي الفترة ذاتها نجا زيد الرفاعي من رصاصات قاتلة في وسط لندن بالذات!

كان موقفي الحازم إزاء الفدائيين، محل انتقاد شديد من جانب مؤتمر عربي عقد في طرابلس لم يشترك فيه عملياً سوى قليل من الدول هي: ليبيا ومصر وسورية واليمن وياسر عرفات. كانت حرباً شريفة نزيهة وكان لا بدّ من كبش فداء لمشاكل الفدائيين. ولكني لم أتمالك نفسي من الابتسام عندما بلغني في الوقت نفسه أن السوريين قد صادروا أسلحة الفدائيين التي وردتهم من أوروبا عن طريق ميناء اللاذقية. وهكذا فعل آخرون ما كنت فعلته أنا نفسي. ماذا كانوا يستطيعون غير ذلك؟ وماذا كانوا هم فاعلون لو كانوا في مكاني؟

إنّ من يعمل ملكاً في الشرق لا يمارس في الحقيقة مهنة مريحة قطعاً.

*** لقد أوقفت حرب عام ١٩٦٧ بلا هوادة، جهودكم المبذولة لتحقيق النهوض الاقتصادي، ما هو الوضع الاقتصادي للأردن اليوم، بعد كل هذه الهزات التي طرأت في السنين الأخيرة؟**

- إنه في تحسن مستمر، وأستطيع أن أقول إنه في تحسن يبعث على الدهشة. ففي وقت قصير، انطلق إنتاجنا انطلاقة عظيمة، فاشتدت كثافة طاقة التنمية عندنا في خمسة قطاعات رئيسية: مصادر ثرواتنا المعدنية والمائية، وصناعتنا الخفيفة ووسائل المواصلات الداخلية، والسياحة.

ليس من يجهل الأحداث المؤلمة التي أصابت حياتنا القومية بالاضطراب في عام ١٩٦٧، وعواقبها الوخيمة التي ما زالت عالقة بنا حتى يومنا هذا، ولا أقل من أن نذكر منها الموجة العارمة التي كانت تتضخم باستمرار، من النازحين الفلسطينيين الذين استقبلناهم في أراضينا والذين بقيت أغلبيتهم غير منتجة.

إن الأردن يبدو لي اليوم متمتعاً بأكمل صحة لا سيما بعد المباشرة في تنفيذ مشروع السنوات الثلاث الذي يغطي الفترة الواقعة بين عامي ١٩٧٣ و١٩٧٥ والذي ترمي أهدافه الرئيسية التي سوف تتحقق في نهاية هذه السنة (١) إلى ما يلي:

١- إحداث سبعين ألف عمل جديد.
٢- زيادة الدخل القومي الإجمالي بنسبة ثمانية بالمائة.
٣- النهوض بالنشاطات الاقتصادية والاجتماعية عبر تنمية فعاليات البلديات

(١) عام ١٩٧٥.

والمجالس المحلية والمناطق الريفية خاصة فيما يتعلق بالماء والكهرباء والمواصلات.

٤ـ زيادة مصادر الثروة الداخلية للبلاد حوالى أربعين بالمائة.

٥ـ تحسين ميزان المدفوعات وتخفيض مقدار عجز الميزان التجاري (وهو عجز أوصلناه من (١١،٥) بالمائة بالنسبة للفترة الواقعة بين ١٩٦٧ و١٩٧٠ إلى (٦،٣) بالمائة، فكان علينا إذن خلال هذه الفترة أن نزيد من صادراتنا بمقدار (٥٦،٥) بالمائة وأن نزيد من دخلنا السياحي (١٥٠) بالمائة.

لقد قدرنا، عندما أعددنا هذا المشروع في نهاية عام ١٩٧١ أن التوظيفات الثابتة، ينبغي أن تبلغ خلال هذه السنوات الثلاث، (١٧٩) مليون دينار أردني (حوالي ٢،٧ مليار فرنك فرنسي)، منها (٩٩،٥) مليون دينار، ترد من القطاع العام، و(٧٩،٥) مليون دينار، ترد من القطاع الخاص.

وما من شك في أنه في السنوات المقبلة، وأقول في السنوات العشر القادمة سوف نبقى في حاجة لمعونة رؤوس الأموال الأجنبية،[1] لا سيما التي ترد من الشعوب الشقيقة: إن أكثر خبرائنا تفاؤلاً يعتقدون بأن استمرار هذه المعونة ينبغي أن لا يتجاوز ستة إلى ثمانية أعوام، أما أنا فأرى بأن عام ١٩٨٥ سوف يشير إلى منعطف في تاريخنا. ولكن من البديهي أن هذا الموعد سوف لن يتعلق تحقيقه بنا وحدنا بل سوف يكون، بصورة أساسية تقريباً رهيناً بالظروف الدولية:

كمقدار عدد اللاجئين الفلسطينيين الذين سوف يمكثون عندنا ليصبحوا مواطنين أردنيين متساوين في الحقوق والواجبات. ومقدار عدد الذين سوف يعودون إلى الضفة الغربية بعد أن يكونوا قد اختاروا الجنسية الفلسطينية. والزمن الذي سوف يستغرقه دوام الوضع الراهن الذي ما زلنا نتحمل نتائجه وحدنا. والوقت الذي ستعاد فيه الأراضي المحتلة نهائياً إلى الأمة العربية.

(١) بدئ في عام ١٩٧٦ بتنفيذ خطة التنمية الخمسية ١٩٧٦ ـ ١٩٨٠ التي تهدف إلى مواصلة المسيرة الإنمائية في المملكة.

فإلى جانب العبء الهائل من المساعدة التي نقدمها إلى اللاجئين والنازحين، قد أضيف تلاشي صناعتنا السياحية التي انخفضت مواردها من (١١،٣) مليون دينار، أي (١٧٠) مليون فرنك عام ١٩٦٦ إلى (٣،١) مليون دينار، أي (٤٥) مليون فرنك عام ١٩٧٢. وقد وازى ذلك أيضاً انخفاض نسبة الزيادة في إجمالي الإنتاج القومي من (١١،٥) بالمائة خلال الفترة الواقعة بين ١٩٥٦ و١٩٦٦ حتى بلغت أربعة بالمائة أثناء الفترة الواقعة بين ١٩٦٧ و١٩٧٢.

ولولا جميع هذه الهزات التي أصابت حياتنا القومية لكنا قد استغنينا عن المساعدة الخارجية منذ عام ١٩٧٠. فقد كان مشروع السنوات السبع الذي بدأنا في تنفيذه عام ١٩٦٤ والنتائج المشجعة التي أسفر عنها طوال الفترة الواقعة بين عام ١٩٦٤ وعام ١٩٦٧، قد ملأ نفوسنا اغتباطاً، وأتاحا لنا أن نعتبر عام ١٩٧٠ عام الانطلاق الاقتصادي.

لقد بقيت ذيول حرب حزيران عام ١٩٦٧ ظاهرة للعيان عندنا إلى ما بعد مرور خمس سنوات على نشوبها. ولكن منذ عام ١٩٧٣ بذل جهد لم يسبق له مثيل في بلادنا. فإذا ما وقى الله الأردن من أي اعتداء في هذه السنوات المقبلة، وإذا ما استمر الجهد المبذول اليوم على ما هو عليه طوال عشر سنوات، فإن ما كان يمكن إنجازه في عام ١٩٧٠ حسب تقديرات خبراء الإحصاء عندنا، سوف يتم تحقيقه حتماً في عام ١٩٨٥.

إن الأردن يملك كل مقومات الازدهار. فهو غني بالفوسفات فإنتاجه من هذه المادة سوف يبلغ (٢،٤) مليون طن في نهاية عام ١٩٧٥. وقد قدر له إنتاج خمسة ملايين طن في عام ١٩٧٦، وسبعة ملايين طن في حوالى عام ١٩٨٠، وهذا ما سيتيح لنا دفع قيمة ثمانين بالمائة من مستورداتنا، وهو غني أيضاً بالبوتاس، وسينتج المخصبات الكيميائية وكذلك النحاس والمغنيزيوم بكميات مهمة. ومن الممكن أن يكتشف البترول قريباً جداً في المناطق الصحراوية في جنوب البلاد. واحتمالات ذلك خمسون إلى خمسين.

وهنالك عنصر أساسي في اقتصادنا لا يجوز أن نغفل اعتباره: وهو أن

الشعب الأردني هو بلا ريب من أكثر شعوب المنطقة حباً للعمل وإقبالاً ومثابرة عليه. إنه متعطش للمعرفة، تواق إلى الاطلاع، راغب في أن يتعلم وأن يعلّم بعدئذ أولئك الذين لا يعلمون. إن شعبنا بالغ النشاط صابر مثابر لا تزعزعه الشدائد وليس من بلاد في الشرق الأوسط لم يشارك أردني في تنميتها وتطويرها. فمهندسونا وأطباؤنا وخبراؤنا موجودون في سائر أقطار الأمة العربية، من المغرب إلى أقاصي شبه الجزيرة العربية، يفيدون شعوبنا الشقيقة بعلمهم وخبرتهم.

لهذا فإنني أقول، وها هي الأرقام شاهدة على ذلك، بأنني جد متفائل بمستقبلنا. وليس من سبب يدعو لأن لا نصبح في بضع سنين مثلاً يحتذى للبلاد التي تحيط بنا.

* ولكن هنـاك أيضـاً الـتربيـة والتعليم والصحـة العـامـة، والعمـل، والاصـلاحات الإجتـماعية. مـاذا فعلتم منـذ عشرين سنـة لمكـافحـة آفـة القـرن العشرين التي تدعى الأمية؟

- إن قناعتنا بأن الجهل هـو عدو للعـرب، حملتنا عـلى التصميم على سرعـة تنمية وتطوير نظام التربية والتعليم عنـدنا. ان هـدفنا الفـوري هو إعـداد الشباب وتأهيلهـم في ميدان الخبرات الفنية والأساليب التقنية. واننا ندرك أهميـة العمل من أجل تنمية وتطوير ديموقراطية حقيقية ورفع مستوى المعيشة المضطرد والمنتظم لسائر العـمال. لقد كنت دومـاً أعلق أهمية كـبرى على تثقيف الأردنيـين وعـلى مكـافحـة الجهل.

وانني أعتقد بأن إيراد بعض الأرقام ستمكنك أكثر من أي شرح أو تفسـير، من أن تحكم على جهودنا وعلى ما أحرزناه من تقدم. ففي الوقت الذي ازداد عدد سكاننا بمعدل (٣,٢) بالمائة خلال العشرين عامـاً الماضيـة، فإن عـدد طلابنـا قد ارتفع من (١٤٠) ألفاً في عام ١٩٥١ إلى (٤٢٥) ألفاً في عـام ١٩٧٣، أي بزيـادة بلغت ثلاثة أضعاف. كما ازداد أيضاً عدد الأساتذة زيـادة محسوسـة جداً إذ انتقـل عددهم من ألفين في مطلع الخمسينيات، إلى أكثر من خمسة عشر ألفـاً اليوم، وقـد لازم ذلـك أن قفزت ميـزانية الـتربيـة والتعليم من (٣٠٨) آلاف دينـار إلى سبعـة ملايين ونصف المليون دينار في العالم الماضي[1].

ولا حـاجـة إلى القـول بـأن التعليم العـام مجـاني تمـامـاً في الأردن بـالنسبـة

---

(١) عام ١٩٧٤.

للصفوف الأولى، أي انه يشمل تقريبا جميع من في سن التلمذة من الصبية الذين تتراوح أعمارهم بين السادسة والخامسة عشرة. وفي نهاية هذه السنوات التسع التي أسميها «أولية»، يتوجب على التلاميذ أن يتقدموا إلى فحص يتيح لهم في حالة النجاح متابعة دراستهم. فمن أسعدهم حظ إحراز شهادة بالنجاح في هذا الفحص، تسمى «شهادة الإعدادية العامة»،[1] يستطيعون الاستمرار في دراستهم عن طريق مرحلة ثانوية مدتها ثلاث سنوات. وفي ختام هذه السنوات الثلاث، يفتح لهم الفحص النهائي، إمكانية دخول الجامعة سواء في عمان أو في الخارج.

وفي يومنا هذا يتلقى التعليم حوالي (٩٥) بالمائة من جميع الطلاب الأردنيين الذين تتراوح أعمارهم بين السادسة والثانية عشرة، ويدخل الجامعة خمسة وعشرون من أصل كل مائة طفل يدخلون مدارس الحضانة. وهذا أمر يستحق الإلتفات والاعتبار.

كانت الأمية في نهاية الحرب، أمراً مألوفاً، في بلادنا القديمة العهد، الشديدة التمسك بتقاليدها. وكانت نصيب معظم المواطنين الذين كانت أكثريتهم من سكان البادية والأرياف. وبمقتضى إحصائيات عام ١٩٧٢، كان أربعون بالمائة من السكان الذين تزيد أعمارهم عن الخامسة عشرة، ما زالوا أميين ولا بد لهذا الرقم الذي كان أكثر ارتفاعاً فيما مضى والذي جعل يهبط بانتظام منذ عام ١٩٥٢، لا بد له من أن ينخفض بنفس النسق خلال السنوات العشر القادمة. وقد بوشر بمكافحة فعالة للجهل منذ عشرة أعوام تقتصر على الضفة الشرقية لنهر الأردن فقط. ويوجد الآن أكثر من مائتين من مراكز التعليم الاستدراكية تتيح للرجال والنساء تعلم القراءة والكتابة بمقتضى برامج تدريسية تستغرق سنتين.

وأخيراً فإن لدينا أيضاً صفوتنا المختارة من الشباب الذين سيمثلون أردن

(١) توقف العمل بهذا الترتيب اعتباراً من السنة الدراسية ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦، وأصبح الباب مفتوحاً أمام سائر الطلاب لاكمال المرحلة الثانوية.

الغد. والذين يتلقون العلم في جامعتنا في عمان[1] أو يتابعون علومهم في الجامعات الأجنبية الكبرى في بيروت وغيرها من الحواضر العربية الكبرى أو في الغرب. ويؤخذ من أحدث الأرقام المتوفرة، أنه يجب أن يحصى أكثر قليلاً من (٤٢٧١٨) طالباً يدرسون في الجامعات منهم ما يزيد على الثلث من الفتيات. وهنالك ما يقرب من (٣٥٠٠) طالب يتابعون الدروس في المعاهد العليا الأخرى، ولا سيما في معاهد دور المعلمين، ليتخرجوا أساتذة.

واني أود أن أسمح لنفسي بعودة صغيرة إلى الوراء، إلى السنوات الخمسين الأخيرة: فقد ورثت دولة شرقي الأردن منذ تأسيسها في عام ١٩٢١، نظاماً تعليمياً تأصلت جذوره عندنا وفي سائر منطقة الهلال الخصيب من قبل الغزاة الأتراك. كان تعليمنا معتمداً على بعض المدارس الإبتدائية لا تتجاوز فترة التدريس فيها السنوات الثلاث. وكان لدينا أربعة مدارس إبتدائية في أربد والسلط والكرك ومعان، كان يمتد تدريسها لفترة ست سنوات. وكان ثمة أيضاً بعض المدارس الدينية الاسلامية والمسيحية مبعثرة في كل مكان تقريباً في مجموع أراضي الإمارة. ومنذ أن أقمنا مؤسساتنا الخاصة بعد مضي سنة على تأسيس الدولة، زدنا معاهدنا فبلغت أربعة وأربعين، كان يدرس فيها واحد وسبعون أستاذاً فقط. وفي عام ١٩٢٣ وضع الحجر الأساسي «لمدرستنا السلطانية» أي المدرسة الثانوية، باحتفال كبير في السلط. وبعد مرور سنة على ذلك، عقد أول مؤتمر للمدرسين في شرقي الأردن في البناء الجديد، ثم تتابع إنشاء المدارس بمدرسين وطلاب آخرين. وفي نهاية السنة الدراسية لعام ١٩٣١، أي بعد مضي عشرة أعوام على استقلالنا، كان لدينا ما يقرب من (٥٢٥٠) تلميذاً، موزعين على أربعة وخمسين مدرسة حكومية يتولى التدريس فيها (١٢٢) أستاذاً. وكانت ميزانية التربية الوطنية تمثل (٦,٣) بالمائة من ميزانيتنا العامة.

في خريف ١٩٤٠ أنشأنا أول وزارة للتربية والتعليم عندنا، وأقمنا البنيان الأساسي لتعليم جدي متين الأركان. وكان يتألف بشكل خاص من مرحلة أولى

(١) أنشئت جامعة اليرموك فيما بعد.

إبتدائية مدتها سبع سنوات. ومن مرحلة ثانوية تستغرق أربع سنوات، دون أن نغفل إمكانية أن يتابع الطالب لمدة سنتين ما نسميه (بالمرحلة الفنية) التي تعد الطلاب بصورة خاصة للأعمال التجارية والزراعية.

فيما يتعلق بفلسطين، بحصر المعنى، فإن تاريخ التعليم فيها مختلف تماماً عنه في الضفة الشرقية لنهر الأردن، بالنسبة للفترة الواقعة بين عامي ١٩١٩ و ١٩٥٠. ولم يكن يوجد في عام ١٩١٤ سوى مدرسة واحدة في القدس تقدم تعليماً ثانوياً كاملاً، ومعهدين آخرين في كل من عكا ونابلس يقدمان تعليماً ثانوياً محدوداً، أستطيع أن أضيف إليها حوالي خمسمائة مدرسة إبتدائية، جميعها خاصة، تمول وتدار من قبل الجمعيات الأجنبية التابعة للحكومات، أو للإرساليات الدينية. وبين نهاية السيطرة العثمانية وانقضاء أجل الإنتداب البريطاني، عملت الحكومة الإنكليزية أشياء كثيرة. فقد أنشأت (١٥٠) مدرسة إبتدائية وعشرين مدرسة متوسطة. وأربع مدارس ثانوية تؤهل لدخول الجامعات.

ومنذ توحيد الضفتين في عام ١٩٥٠، وضعت المؤسسات التعليمية القائمة على ضفتي نهر الأردن تحت الرقابة المباشرة لوزارة التربية والتعليم في عمان التي تولت تقسيم البلاد إلى ست مناطق تعليمية هي: نابلس والقدس والخليل في الضفة الغربية، وعجلون والبلقاء والكرك في الضفة الشرقية. كانت المملكة الأردنية الهاشمية قبل خمس وعشرين سنة تضم حوالي سبعمائة مدرسة وثلاثة آلاف مدرس و (١٢٣) ألف تلميذ. ولولا انفصال الضفة الغربية، لكان لدينا اليوم مجموعة قياسية من (٢٦٥٠) مدرسة وعشرين ألف أستاذ، و (٦٥٠) ألف طالب. إلا أن الأحداث قضت بأن تسير الأمور على نحو آخر. ولكن، كما تستطيع أن تتحقق منه، لقد بذل جهد لم يسبق له مثيل في مجال التربية والثقافة خلال السنوات العشرين الأخيرة.

إلى جانب التعليم العام ومكافحة الأمية، فقد طلبت إلى حكومتي أن تبذل على توالي السنين، جهوداً ضخمة فيما يختص بالصحة العامة والضمان الاجتماعي، وتأمين المساكن لأفراد شعبي، لقطع الطريق نهائياً على الجهل والإهمال أن يتسببا

في وقوع ضحايا لها. لقد عانينا أشد المعاناة طوال سنوات. فقد آوينا عدداً متزايداً بلا انقطاع من اللاجئين ومن الذين لا مأوى لهم. وإذا كان قد تم إنجاز الكثير في هذا المجال، فما زال المزيد من العمل يتطلب التحقيق.

ولقد كنت دوماً أعلّق أهمية كبرى على صحة ورفاه الأردنيين وهنا أيضاً، وضمن حدود الامكان، كنت تواقاً إلى أن ينفق مواطنيّ القليل من المال على العناية بصحتهم، إذا لم يتسن لهم عدم الإنفاق إطلاقاً. ففي يومنا هذا غدت العناية الطبية مجانية، سواء فيما يختص بالصحة العامة، أو بالنسبة للطب الوقائي. كما تدفع أجور زهيدة مقابل المعالجة الطبية أو استقبال المرضى في المستشفيات. وان الملكة علياء، زوجتي الثالثة، لهي أكثر مني اختصاصاً في التحدث إليك عن المساعدات التي نقدمها للنساء الحوامل وللأمهات الشابات والأطفال، وكذلك للطاعنين في السن والمعدمين. ولكن لاحاجة إلى القول بأن معظم ميزانيتنا تذهب إلى اللاجئين الذين أدى ازدياد عددهم بلا انقطاع، منذ عشرين سنة، إلى مضاعفة قلقنا. فهم أيضاً، بحكم أنهم يعيشون أحياناً، في ظل أوضاع حياتية انعدم فيها الاستقرار والثقة بالمستقبل، في حاجة إلى العيش الرغيد وإلى تعهد صحتهم والعناية بهم ومواساتهم.

فإذا أخذنا أحدث الأرقام وإذا اقتصرنا في الكلام على الضفة الشرقية لنهر الأردن فقط، فإن لدينا الآن في المملكة الأردنية الهاشمية أكثر قليلاً من (٧٠٠) طبيب، (٤٥٠) منهم يعملون في القطاع الخاص، وحوالي (١٢٠) طبيب أسنان، لأربعة أخماسهم زبائن خصوصيون، وأكثر من (٢٠٠) صيدلي و (٣٥٠) ممرضة محترفة. قد يبدو هذا قليلاً في نظر من يفكر بالعقلية الغربية، ولكن عندنا، تعتبر هذه الأرقام مشجعة للغاية.

إن إسداء العون للأمهات الشابات والعناية التي تسبق الأمومة والتوليد والمراقبة الطبية بعد ولادة الأطفال، جميعها مجانية تتحمل الدولة نفقاتها سواء عن طريق وزارة الصحة أو وزارة الشئون الإجتماعية والعمل. أما الضمان الاجتماعي، فحديث العهد عندنا، ويستفيد منه جميع الموظفين في البلاد مقابل دفع واحد بالمائة

من مرتباتهم الشهرية. وهكذا فإن الأمراض والولادات والوفيات تتحمل الدولة تكاليفها، كما يجري دفع مرتبات تقاعدية عند الإحالة على التقاعد، سواء عند بلوغ الستين أو بعد خدمة تدوم ثلاثين سنة. وموجز القول، فإن نظامنا قد اقتدى بالأنظمة المعمول بها منذ عشرات السنين، لدى بعض الأمم في العالم الغربي. فلنا إذن قوانيننا الاجتماعية وضماناتنا وصناديق الإدخار الخاصة بنا ككل بلد عصري، أو أي بلد يسير في طريق التنمية.

ولقد بذل مجهود خاص من أجل الإسكان. ولدينا في الوقت الحاضر، أربعمائة ألف مسكن، منها ما يزيد على الربع في العاصمة عمان. لقد وظف لغايات الإسكان أربعة ملايين دينار في عام ١٩٦٧ وعشرة ملايين دينار في عام ١٩٧٢. وان تقديرنا الحالي هو زيادة سنوية تبلغ عشرين ألف مسكن. ومنذ عشر سنين، تشرف مؤسسة الإسكان على هذا القطاع بمنتهى الكفاءة والفعالية سواء فيما يتعلق بالبيوت الخاصة أو الشقق أو المساكن التعاونية[1].

فالتربية والتعليم والصحة العامة والإسكان، هي دوائر رئيسية ثلاث أعلّق عليها أهمية كبرى.

ومع أن بلادنا دولة حديثة العهد، إلا أن الإصلاحات الإدارية تجري فيها باستمرار. وسنواصل الأخذ بهذه الإصلاحات، لأنها جزء لا يتجزأ من جهودنا الرامية إلى اقامة حكومة تتصف بالفعالية والديمقراطية الحقة. كما أننا نكافح الفساد الذي لا مكان له في دولة شيدت دعائمها على تعاليم الإسلام والإيمان بالله.

(١) لقد تجاوزت البلاد هذه الأرقام بمراحل في وقتنا الحاضر.

*** فلنعد إلى السياسة، أليس لديكم انطباع بأن قمة الرباط المعقودة في تشرين الأول (أكتوبر) من عام ١٩٧٤ التي حرمتكم من الضفة الغربية لنهر الأردن قد كانت بالنسبة إليكم، إلى حد ما، طعنة خنجر في الظهر وضعتكم أمام أمر واقع؟**

- إن التاريخ هو الذي سوف يحكم على ذلك. إذ لا ينكر أن موقفنا قد تغير منذ الخريف الماضي بصورة مأساوية مثيرة. هل حالفهم الصواب في أن ينكروا عليّ حق التحدث باسم الشعب الفلسطيني؟ سوف يتولى التاريخ إصدار حكمه في هذا الشأن. لقد عمل الهاشميون دوماً باخلاص لصالح الشعب الفلسطيني وحقوقه القومية المشروعة لقد طلبوا إليّ أن أقلب الصفحة. وها أنذا قد قلبتها. ولا فائدة ترجى من التشبث بماض فات وانتهى. ومهما كانت عواطفي الشخصية في هذه القضية المؤلمة، فإن هدفي الوحيد منذ ذلك الحين هو أن أساعد اخواني الفلسطينيين على استرجاع وطنهم المفقود بطريقة أو بأخرى. لقد طلب ذلك مني تسعة عشر رئيس دولة عربية. فقبلته بصورة عفوية تلقائية، بلا مناقشة. واني لأرجو من كل قلبي أن تظهر منظمة التحرير الفلسطينية، فيما تأتيه من أعمال في مستوى المهمة التي أوكلت إليها. ولسوف أمد لها يد المساعدة ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.

لقد قيل وكتب الكثير عن أن اسرائيل ترفض إطلاقاً التعامل مع منظمة التحرير أو أية منظمة مقاومة فلسطينية أخرى، وانها لا تقبل على ما يبدو إجراء الحديث إلا معي، ولكنني لا أعتقد بأن في وسع إسرائيل أن تستلزم ذلك. فهي لا تملك الخيار، وعليها منذ الآن، أن تتوجه بالخطاب مباشرة إلى منظمة التحرير. ولسوف لن أكون وسيطاً، أو سفيراً في هذه التحركات المقبلة. إن كل مشروع

يحتمل أن تعرضه الدولة اليهودية على الأردن، سوف يحول فوراً إلى منظمة التحرير. فمنذ مؤتمر القمة في الرباط، لم يعد الأردن معنياً مباشرة بهذا النزاع. إن هذه الأراضي ينبغي أن تعاد إلى أصحابها الحقيقيين الوحيدين. وبالنسبة إلى معظم أعضاء منظمة الأمم المتحدة، فإن منظمة التحرير التي يتزعمها ياسر عرفات، هي وحدها صاحبة الحق في أن تتولى حيازة الضفة الغربية، أي أن تتصرف بالأراضي التي كانت لنا في غربي نهر الأردن.

ولا حاجة إلى القول أيضاً، بأنه في حالة ما لو عمدت نفس الدول العربية التي أخرجتني في قمة الرباط المعقودة في تشرين الأول (اكتوبر) من عام ١٩٧٤، إلى الطلب إليّ في أن «أمثل» الفلسطينيين في المحادثات أو الاتصالات فإنني لن استطيع الرفض ولكن ذلك لن يكون إلا بصورة مؤقتة.

إنني رجل مسالم. ولقد قلت ذلك دوماً أو أفهمته لمن كنت أتحادث معهم. فالسلم في منطقتنا ممكن في كل وقت. كل شيء متوفر للعرب واليهود ليعيشوا سعداء في ظل سلام دائم. ولكن لا بد من أن تعيد اسرائيل الأراضي التي استولت عليها في حزيران من عام ١٩٦٧ وهذا أمر الزامي، لا غنى عنه. أما القدس، فيمكن أن تبقى موحدة وأن تصبح نقطة التلاقي للديانات المسيحية واليهودية والإسلامية. على أن يعاد عندئذ القطاع الشرقي من المدينة المقدسة إلى العبادة الإسلامية، وإلى السيادة العربية.

إن من حق كل زعيم عربي، وكل رئيس دولة، ومن واجبه أيضاً أن يتصرف كما يشاء ويفهم، ليتقدم خطوة بإتجاه السلام. فقضية مصر الخاصة، لا تشبه قضية سورية، كما أن قضية سورية لا تشبه قضية الأردن أو لبنان. ان كل محاولة، حتى لو تمت بصورة إنفرادية، يجب أن تحترم وتشجع، ما دامت إيجابية.

إن موقف (اللاسلم واللاحرب) قد طال عليه الزمن. ولقد عانينا جميعاً من نتائجه، نحن، وأولئك الذين يقفون في مواجهتنا ولذلك فإن جميع المخارج لهذا الوضع ستكون ممكنة الحدوث، حتى الفاجع المحزن منها. أما الفلسطينيون فلهم

مني الدعم والمساندة وانني أتعهد بالتقيد حرفياً بالمقررات التي أتخذت في مؤتمر الرباط ذات الطابع المأساوي أحياناً. لقد أصبح لمنظمة التحرير الفلسطينية مكتب في عمان، كما كان لجيش التحرير الفلسطيني دوماً وحدات عسكرية مرابطة في أراضينا حتى في الشهور التي أعقبت أحداث أيلول المؤلمة في عام ١٩٧٠، اننا نستقبل الفلسطينيين على الرحب والسعة عندنا، ما داموا يراعون قوانين بلادنا ويقبلون ضيافتنا. إنني أعرف أن تهديدات هنا وهناك، قد أطلق بعض الزعماء الفلسطينيين ألسنتهم بها ضدي. بعضهم كان يريد اغتيالي، وبعضهم الآخر كان يود اقامة (نظام ديموقراطي) في عمان.

إنني اعتقد بأن للعرب في وقتنا هذا اهتمامات أخرى. وان لهم عدواً آخر أشد صلابة وأقسى عوداً. إن علينا أن لا نبعثر قوانا في المنازعات الداخلية التي لا طائل تحتها والتي برهن التاريخ على أنها لم تنته دوماً في صالحنا. وهذا أقل ما يقال. وإلى أن يثبت العكس، فإنني صاحب الشأن في بلدي، وان الأردنيين ومن يرغب في أن يصبح أردنياً من الفلسطينيين، يستطيعون أن يبنوا مستقبلهم بالتعاون معي.

*** إن أقل ما يمكن قوله هو أن السنوات الأربعين من عمركم، قد كانت جميعها ملأى بجلائل الأعمال. ولكن في هذه الحياة التي تحيونها في خدمة شعبكم، ألم يكن هنالك مكان للسعادة؟ للحياة الخاصة والعائلية؟**

- إنني اعتقد بأن من العسير جداً إدراك السعادة في هذه الدنيا، سواء أكان المرء ملكاً أو إنساناً عادياً. ما هي السعادة بالنسبة للأغلبية العظمى من الناس؟، إنها الحصول على عمل مغر ممتع، وعلى راتب جيد، وأسرة لطيفة تستعذبها النفس، والقيام بالرحلات من وقت إلى آخر، وأن يكون للمرء بعض الأصدقاء، وأن يساعد الناس، ويساعدوه. لقد نلت كل ذلك. وما زال كل ذلك في متناول يدي. ولكن هل يعني هذا أنني حقاً سعيد؟ لا أعتقد ذلك.

نعم لقد كانت حياتي خصبة مليئة، كما قلت، ولربما لم يعرف مثلها إلا القليل من الناس. لقد عرفت السراء والضراء. ولعل الضراء رجحت على السراء. وعانيت لحظات في غاية الشدة. ومرت بي فترات في أقصى درجات الضيق، وألمت بي أوقات كنت أشعر فيها بأنني في منتهى العزلة، وعرفت الحداد والأحزان والنادر من الفرح، والقليل من السعادة. لقد عرفت كل ما يمكن أن يعرفه كائن بشري: الجوع والعطش والإذلال والهزيمة، والنادر من اليسار والبحبوحة والقليل من السلام والراحة والإبتهاج. ولقد كان شعبي معي في كل هذا. لأنني متعلق بشعبي في الأردن تعلقاً لا تنفصم عراه، وموثوق الصلة به إلى أبعد الحدود. فقد كانت آلامي هي آلامه، وأحزاني هي أحزانه.

ولما كنت أعلم أن مواطني، منذ الحرب العالمية الثانية، لم يتذوقوا إلا القليل من السعادة، فأنا أيضاً مثلهم، لم أعرف من السعادة إلا أقلها.

لا شك أن أبسط الأشياء تدخل السعادة إلى قلبي : كنجاح أحد المواطنين، وفوز إحدى المبادرات التي تقدم عليها بلادي، واليد التي تبسطها إليّ أمة صديقة، وابتسامات زوجتي وأولادي.

لأنني إذا لم أتحدث إليك عنهم إلا قليلاً، فإنهم مع ذلك يحتلون في حياتي مكاناً لا حد له. إنني كما تعلم قد تزوجت مرات ثلاث. ولي الآن ستة أبناء اثنان منهم من الذكور. (١) وان ما أفعله لشعبي، أفعله أيضاً لهم على السواء. فهم جميعاً أردن الغد. إن حياتي الخاصة والعائلية غير منتظمة فأعباء الدولة تحول بيني وبين أن أكون لهذه الكائنات الإنسانية العزيزة الغالية بالقدر الذي أرغب وأتوق إليه. وطالما أضطر أن أخيب آمالهم في الوقت الذي ينتظرونني فيه لتناول طعام الغداء معي. فأحتبس نفسي مع زائر أجنبي، أو سياسي أردني. ثم في حوالي الساعة الرابعة أو الخامسة من بعد الظهر، أطلب احضار بعض الشطائر لأكلها وأنا منهمك في عملي. أما في المساء، فإنني أغادر مائدة العمل في الساعة الثامنة أو التاسعة. ويكون أولادي عندها قد استسلموا إلى الرقاد. وبقى في انتظاري زوجتي الملكة علياء وحدها (٢) مع ابنتي الكبرى التي تتابع الآن دراستها الجامعية في عمان، ليمنحاني الحرارة التي افتقدها والتي أشعر بأنني في مسيس الحاجة إليها. (٣)

صحيح أنني أقضي بعض الإجازات في العقبة أو في الأرياف، ولكنها أقل مما يرغبون ويرتضون. ثم انني لا أذهب كما يفعل الملوك ورؤساء الدول، لممارسة

(١) في الثالث والعشرين من شهر كانون الأول ١٩٧٥، منّ الله سبحانه وتعالى على صاحب الجلالة الهاشمية الملك الحسين المعظم وصاحبة الجلالة شهيدة الواجب، الملكة علياء المعظمة، بأمير أسمياه «علي».

(٢) في مساء اليوم التاسع من شباط من عام ١٩٧٧، استشهدت جلالة الملكة علياء أثناء قيامها بالواجب الإنساني، في حادث طائرة هيليوكبتر كانت تستقلها وهي في طريق عودتها إلى عمان من زيارة تفقدية لمستشفى الطفيلة، للإطلاع على أحواله وتقويم أوضاعه تلبية لنداء استغاثة ورد من أحد المواطنين.

(٣) في الخامس عشر من حزيران ١٩٧٨ تم عقد قران حضرة صاحب الجلالة الملك الحسين المعظم على حضرة صاحبة الجلالة الملكة نور الحسين المعظمة.

رياضات الشتاء. وللمرة الأولى منذ ثمانية عشر عاماً، لبيت دعوة شاه إيران في شباط الماضي [1] لقضاء بضع ساعات بالقرب منه في الثلوج السويسرية. لقد تزلجت قبل ثماني عشرة سنة لمدة يومين. وفي هذه السنة أمضيت ثلاثة أيام في التزلج.

إنني لست في حاجة إلى من يتلهف عليّ. فقد نلت الحياة التي ابتغيها وأشتهيها. وإنني اعتقد بأنني أمارس مهنة شيِّقة تستهوي نفسي، ولكنها شاقة عسيرة. وإنني أجتهد في أن أتعاطى مهنتي على أحسن وجه استطيعه. ولقد وفرت لي بعض المسرات التي إذا ما بدت هزيلة في نظر الآخرين، فقد عوضتني الكثير عما كان لابد لي أن أكابده وأعانيه من ضيق وشدة وعذاب.

(١) من عام ١٩٧٥.

ملحق

نص الخطاب الذي ألقاه جلالة الحسين
في الأمم المتحدة في ٣ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٦٠

إن لوجودي هنا اليوم أربعة أسباب. أولاً: انني اعتبر نفسي معنياً إلى أقصى الحدود بهذا الهجوم الشديد الموجه ضد منظمة الأمم المتحدة. ثانياً. أود أن استوثق من أنه لا يتطرق أي خطأ محتمل إلى نظرتكم إلى المكان الذي يحتله الأردن في النزاع العقائدي الذي يهدد السلم العالمي. ثم كرئيس لدولة صغيرة، فإنني أعتقد بأن من واجبي ازاء الأمم الصغيرة الأخرى على هذه البسيطة، ولاسيما الأعضاء الجدد منها في الأمم المتحدة، أن أطلعهم على تجربتنا الخاصة بالدفاع عن الحرية التي نحن جميعاً في مسيس الحاجة إليها. وأخيراً أعتبر أن عليّ أن أقدم إليكم وجهة نظري حول ثلاث قضايا حيوية في الشرق الأوسط، تؤثر على السلم العالمي. وهي: التوتر المتزايد بين الأردن والجمهورية العربية المتحدة، واستقلال الجزائر، والقضية الفلسطينية.

ولعل من فضول القول، أن نؤكد مرة أخرى بأن الأمم المتحدة تمثل الأمل الوحيد في السلم والحرية للإنسانية جمعاء. وهذا أمر من الأهمية بمكان عظيم بالنسبة لسائر الأقطار الصغيرة في العالم لقد حاول الإتحاد السوفياتي من جديد تدمير الأمم المتخدة، وعرقلة مناقشاتها، وإيقاف مقرراتها، وبأساليب صاخبة، وخروج متكرر من قاعات الاجتماعات، يثير الجلبة واللغط، حاول اضعاف مكانة وسمعة مجلس الأمن والجمعية العامة.

وإن أحدث إيضاح لما أقوله، هو تصرفاته في الدورة الحالية، ومحاولاته

الرامية إلى اضعاف سلطات السكرتير العام واقتراحه نقل مقر المنظمة. إنها جهود لايكاد يخفيها، لتقويض دعائم الأمم المتحدة نفسها.

لا يستطيع أحد تابع مناقشات الجمعية العامة في الأسبوعين الأخيرين هذين، أن يتجاهل المعنى الحقيقي لمثل هذا الاجتماع. إن القضايا المعروضة علينا ليست جديدة، ولكن بحكم كونها ما زالت بدون حل، فإنها تتخذ حجماً من الضخامة بحيث يشكل استمرارها تهديداً ليس للسلم العالمي فحسب، بل لحياتنا نفسها وانني لا أملك مشروعاً له فعالية «المعجزات» لحل هذه القضايا. إن الأردن الذي لا يحتاز الأسلحة النووية والذي ليس في مقدوره إلّا أن يعاني أشد المعاناة من قيام حرب ذرية، لا يسعه إلّا أن يتوسل إلى الدول المعنية، لاستئناف جهودها ولأن تسعى، مهما كانت العوائق التي تعترض طريقها، إلى إيجاد صيغة، أو ربما بالأحرى، إلى إيجاد مخرج حقيقي لا ينقذها فحسب، بل ينقذكم جميعاً.

هنالك صعوبات أخرى. ولا بدّ أن يكون المرء أعمى في الحقيقة، لكي لا يدرك أن على أمم العالم أن تمارس عملية اختيار بين جميع القضايا الحيوية تقريباً التي تواجهها هذه المنظمة. هذا الاختيار لا يشوبه أي غموض. فالأمر يتعلق إما بأن نصبح جزءاً من الأمبراطورية السوفياتية وأن نخضع خضوعاً تاماً لما يفرضه علينا المجلس الأعلى للاتحاد السوفياتي، أو بأن نبقى أمة حرة ليس لها من ولاء خارجي سوى للأمم المتحدة نفسها. فنحن بين أمرين وعلى كل بلد أن يمارس اختياره.

هل لي أن أقول فوراً بكل قوتي وقناعتي، بأن الأردن قد مارس اختياره؟ إن جوابنا يكمن في أعمالنا. وإني هنا لأؤكد من جديد موقفنا أمام سائر أمم العالم. اننا نرفض الشيوعية. وإن الشعب العربي لن ينحني أبداً أمام الشيوعية مهما تنكّرت به من مظاهر لتفرض نفسها علينا.

لن تعمّر الشيوعية أبداً في العالم العربي لأن هذا إذا ما حدث فلسوف تحل الشيوعية محل القومية العربية. وعندئذ سوف يزول وجود الأمة العربية. إنني أعتقد بأن القومية العربية شديدة التأصل في حب الله وحب الحرية، وفكرة مساواة

الجميع أمام الله. ولذلك لن يخلفها نظام ينكر هذه المبادئ.

وإني أذهب إلى أبعد من هذا، فأعرب عن عقيدتي الراسخة بأن على سائر الأمم التي تؤمن بالله أن تتحد لمجابهة هذا التحدي لوجودها نفسه. فلا حدة الانفعال النفسي الناشئ عن حب الوطن ولا المقاومة الناتجة عن الرفاه المادي، ولا القوة الروحية المنبثقة عن مفهوم الحرية، ما من عامل من هذه العوامل وحده، هو في مستوى التهديد ضد السلام الذي تشكله الشيوعية الاستبدادية. ولن تهزم الشيوعية، ويسود السلام على الأرض، ما دام أولئك الذين يؤمنون إيماناً صادقاً بالله، وبما أوصى به من حب ومساواة وعدالة اجتماعية، لا يترجمون أفكارهم إلى أعمال.

لا يمكن أن يكون ثمة حياد في المجابهة الجبارة بين الشيوعية والحرية. كيف يمكن لموقفنا أن يبقى محايداً بين نظامي حكم، بين فلسفتين، إحداهما في مستوى هذه المبادئ في حين أن الأخرى تنكرها وتخنقها؟ إننا بانحيازنا إلى جانب العالم الحر، لا ننسى مع ذلك كفاحنا الطويل من أجل الحرية. ولن نستطيع أيضاً احتمال بعض المظالم التي يرتكبها بعض أعضاء العالم الحر. ولكن في الوقت الذي بلغ الاستعمار العجوز مرحلة الغروب، مرحلة الزوال، فإننا لسنا متعامين عن الامبريالية الجديدة التي تتمثل في الشيوعية، وهي امبريالية أشرس وأعتى وأخطر على فكرتي الحرية والقومية، من كل شيء سبق أن عرفه العالم.

وإذا كنا نرفض الحياد لأنفسنا، فإننا نحترم حق كل أمة في اختيار طريقها الخاص بها، مع البقاء يقظين إزاء الاستخدام المحتمل للحياد في سبيل استغلال الخلاف القائم بين الشيوعية والعالم الحر. ونحن يقظون أيضاً إزاء خطر التوسع الشيوعي تحت قناع الحياد.

أصل الآن إلى مشكلة الشرق الأوسط الحيوية جداً للسلم العالمي وذات الأهمية الكبرى بالنسبة للأمم المتحدة. إنني ألفت النظر، في الجزء الخاص بنا من العالم، إلى قضيتي الجزائر وفلسطين. في هذين البلدين، يسود وضع ينبغي على

الجمعية العامة أن تدرك أبعـاده. إنني لن أتوسـع في سرد الوقـائع التي تبعث عـلى الحزن والأسى، لأنني إن فعلت، فإن ذلك من شأنـه أن يزيـد، بدلاً من أن يقلل من خطر نشوب نزاع دولي، ولكن على خلاف ذلك، لـو أننا تـركنا هـذه الوقـائع تستمر وهي متوارية دون أن نثير انتباه الأمم المتحدة، فإن ذلك في نـظري سيكون خطراً أيضاً. لهذا فإنني أعتقد بأن من واجبي أن أتناول بالعرض والإيضاح التـوتر السائد بين الأردن والجمهورية العربية المتحدة.

إلى جـانب بعض القضايـا الأخـرى ذات المستـوى العـالمي التي يقلق بـال الجمعية العامة، ربما يبدو من باب الغرور أن نعرض ما يحتمل أن يتجلى كموضوع ذي أهمية محلية. ومع ذلك فـلا يوجـد ثمة قضيـة محض محلية. وكـما عرف العـالم الآن، ليس هناك من خلاف عقائدي أو تهديد بنـزاع مادي، يتـوقف أمام حـدود بلاد أولئك الذين تورطوا فيه. يضـاف إلى ذلك أن المبـادئ التي يجب أن تقود إلى الحلول، لهي قابلة للتطبيق في العالم أجمع، وفي الوقت الذي يفوز فيه بـالاستقلال عدد متزايد من البلدان، فإن التطبيق الفعلي لهذه المبادئ يرتدي أهمية متعاظمة.

وفي رأيي أن بقائي صامتاً والحالة هذه، من شأنه تشجيع قيام وضـع قابـل لتدمير الأمة العربية، ولجر الدول الكبرى في طريقه، إلى نزاع عالمي.

بدأ الأمر منذ سنين عديدة. في الفترة التي اضطر فيها الأردن الذي كـان قد نال استقلاله حديثاً، إلى مجابهة تهديد جديد ضد حريته، تهديد أكثر هولاً أيضـاً، اتخـذ شكل تغلغـل شيوعي في منـطقتنا. لم تعـد على الأردن، تحـذيراتنـا للشعب الأردني ولسـائر الأمـة العـربيـة، سـوى بـالتعيـير والتحقـير وبـالهـدم والتخـريب وبالضغوط الخارجية بمختلف أشكالها. وقد كانت هذه الضغوط من الشدة والحدة بحيث جعلتنا نعتقد بأن هدف هذا الشعب الشقيق من وراء ذلك، كان تدميرنا. كنا نستطيع افتراض أن حكومته كانت شديدة التعلق بالوحدة المنشودة مثل الأردن سواء بسواء، إلاّ أن الواقع هو أن هجمات الجمهـورية العـربية المتحـدة ضدنـا قد تكررت وبلغت حداً حملت الجمعيـة العامـة في الحادي والعشرين من آب ١٩٥٨ على المصادقة على قرار أصدرته الجامعة العربية، ينص على أن الجمهورية العـربية

المتحدة تتعهد بإيقاف حملاتها ضدنا. ومن سوء الطالع أنها لم تحترم ولم تف بوعدها. فقد استؤنفت الهجمات. وأصبح التحريض على الإطاحة بحكومتنا واغتيال ساستنا يذاع يومياً من محطة الإذاعة المصرية. أما الحدود القائمة بين الجمهورية العربية المتحدة والأردن، فقد أغلقت، لإلحاق الأذى باقتصادنا بينما يجري تشجيع خونة مشهورين، أو على الأقل يسمح لهم بالقيام بعمليات تخريبية هدامة ضدنا. وقد بلغ الموقف حالة من شدة الخطورة، حملت الجامعة العربية التي ينتسب إلى عضويتها كل من الجمهورية العربية المتحدة والأردن، على التصويت على قرار يدعو أعضاءها إلى الامتناع عن كل نشاط من شأنه أن يخل بالعلاقات الأخوية بينها.

وفي اليوم التالي لاختتام دورة الجامعة العربية هذه، اغتيل رئيس وزراء الأردن هزاع المجالي بقنبلة وضعت تحت مكتبه، مع أحد عشر شخصاً آخرين بينهم طفل يبلغ العاشرة من العمر. وإني إذ أمسك عن المزيد من الحديث عن هذا الموضوع، لأؤكد لكم بأنني أفعل ذلك وأنا لا أتمالك نفسي إلاّ في غاية الصعوبة. وإنني أود أن أضيف، مع ذلك، بأنني أضفي معنى كبيراً على واقع كون خلافاتنا مع الجمهورية العربية المتحدة يعود تاريخها إلى الفترة التي شهّرنا فيها بالخطر المتزايد للشيوعية في العالم العربي، يضاف إلى ذلك بأنني أرى توافقاً بليغ التعبير بين الأساليب المستخدمة ضد الأردن، والأساليب التي تصطنعها الشيوعية في بلاد العالم.

ولا يخفى على أحد بأن سياسة الاتحاد السوفياتي ترمي إلى حمل بعض الأقطار الصديقة على اختيار جانب القطيعة مع غيرها وإلى بذر بذور الشقاق والفتنة بين الشعوب، لكي تبلغ من ذلك غايتها وهي السيطرة التامة على العالم.

وإني أود من ذلك أن أخلص إلى هذا وهو إذا كانت آمالنا تتطلع إلى مزيد من الحرية وإلى مزيد من التعاون، وبإيجاز إلى عالم أفضل، كما يوحي بذلك إنشاء الأمم المتحدة، فإن بقاءنا يعتمد على واقع الاستخدام الفوري لكافة وسائل العمل المشترك المتوفرة لدينا. ولقوة الرأي العام الذي نمثله، لكي نضغط وبسرعة

وفعالية على كل أمة تخالف هذه المبادئ. إنني لا أدّعي بأن هذه الفكرة جديدة، إنها ببساطة فكرة الشرعية تطبّق على أفعال الأقطار ذات السيادة. أما فيما يختص بي، بوصفي رئيساً لشعب صغير تهاجمه ضغوط خارجية، فهي فكرة تستحق المراعاة والعناية في هذا الوقت. لأنني أعتقد بأن عليّ تطبيقها الصارم، يتوقف آخر الأمر، حياة وتقدم العديد من البلدان الصغيرة بما في ذلك بلدي. وان الأمم المتحدة هي الأداة الوحيدة القادرة على تطبيق هذا المبدأ بفعالية ونجاح».

وقبل أن أواصل الحديث لأطرق موضوع الجزائر وفلسطين، أود أن أضيف كلمة ختامية عن الجمهورية العربية المتحدة. فمع أن الأردن سوف يقدر دعم الأمم المتحدة الصريح العلني لموقفه، فإن بلادي لا تتوقع ولا تطلب جواباً خاصاً أو فورياً على ما سبق لي قوله. فإذا ما استطعنا مجتمعين أن نبتكر أو أن نستخدم وسائل أفضل من الوسائل الحالية لتأمين سلامة ووحدة أراضي الأقطار الصغيرة، وضمان قدرتها على تحسين مصيرها، حرة من كل التدخلات الأجنبية، فإنني أعتقد عندئذ بأننا نكون قد حققنا تقدماً. وإذا كان ما قلته سيساهم في هذا الأمر، فإنه حينئذ يكون قد استحق الجهد المبذول في قوله.

ما زالت المأساة الجزائرية خطيرة، كما يبدو عليها سيماء التفاقم وازدياد الخطورة أيضاً. إن القضية في رأيي هي من جديد، رفض الاعتراف لشعب بحقه في تقرير مستقبلة الخاص، وهذا هو جوهر الحرية نفسه. إن الأمم المتحدة لا تستطيع أن تمنح نفسها ترف الاستمرار في موقفها السلبي، أكثر مما بقيت سلبية فيما يتعلق بكوريا والمجر. وفي معنى من المعاني، تعتبر هذه القضية بأنها أكثر خطورة وأهمية لأن أحد طرفي النزاع هو أحد أعضاء العالم الحر. إننا نناشد فرانسا أن تراعي ما يبدو أنها قد أهملته وهو تقاليد الحرية والمساواة والإخاء التي أثرت عنها واختصت بها وما من شك في أن قسماً مهماً من الشعب الفرنسي مصمم من سويداء القلب على أن يدع لإشقائنا الجزائريين اختيار المستقبل الذي يريدون. ويا حبذا لو أن الحكومة الفرنسية تترجم بالأفعال هذه القناعة نفسها، فتجعل حق تقرير المصير الذي وعد به رئيس الجمهورية، يشمل الجزائريين أيضاً. فإذا ما

سلكت فرنسا هذا السبيل، فلسوف تسترد مكانها بين الأمم التي تكافح من أجل الحرية، ولن يكون هنالك عالم أفضل إذا ما استمر الاستهتار بالمبادئ الأساسية، فعلينا أن نضع حداً لحمامات الدم التي لا طائل تحتها. فالكثير من الشر قد سبق وقوعه. (١)

أما القضية الثالثة في الشرق الأوسط، فهي فلسطين. إن ضمير العالم قد بدا أنه قد أغمض عينيه بصورة مخجلة، ومنذ مدة طويلة جداً، على هذه المأساة الإنسانية. إن اتساع هذه القضية قد بلغ حداً جعل أكثر من مليون لاجئ عربي من فلسطين، يعيشون منذ اثني عشر عاماً، مجهولين من قبل عالم لم يحاول بشكل جدي حتى الآن، أن يعينهم على استعادة الحق الأكثر أهمية والأكثر قداسة في الوجود، ألا وهو الكرامة الإنسانية. إن فشل الأمم المتحدة في البداية، في منح هذا الشعب حق تقرير المصير في عام ١٩٤٧، قد ترك منذ ذلك الحين جرحاً لا يلتئم. وليس ثمة مراقب عادل وحيادي ينكر بأن الشعب العربي في فلسطين قد لحق به الأذى عند تقسيم هذه المنطقة، وما تبع التقسيم من إنشاء دولة إسرائيل. في ذلك العهد، كان التقسيم خطأ وظلماً سياسياً. وهو ما زال كذلك في يومنا هذا. فالعالم يقبل الأمر الواقع بسهولة، وكأنه إحدى المسلّمات السياسية الثابتة.

إن الجميع هنا يعرفون ذلك جيداً، فقد جرى التصويت على عدة قرارات وعلى سبيل المثال القرارات الصادرة في عامي ١٩٤٨ و١٩٥٩ ولكن لم يفعل شيء إطلاقاً لإقناع إسرائيل باحترامها. ومن الواجب على الأمم المتحدة أن تفرض إرادتها على عضو يرفض الخضوع لقراراتها. إذ لن يكون هنالك سلام حقيقي في الشرق الأوسط، دون حل مشرف وعادل للمأساة الفلسطينية، ودون إعادة الحقوق كاملة إلى شعب فلسطين العربي.

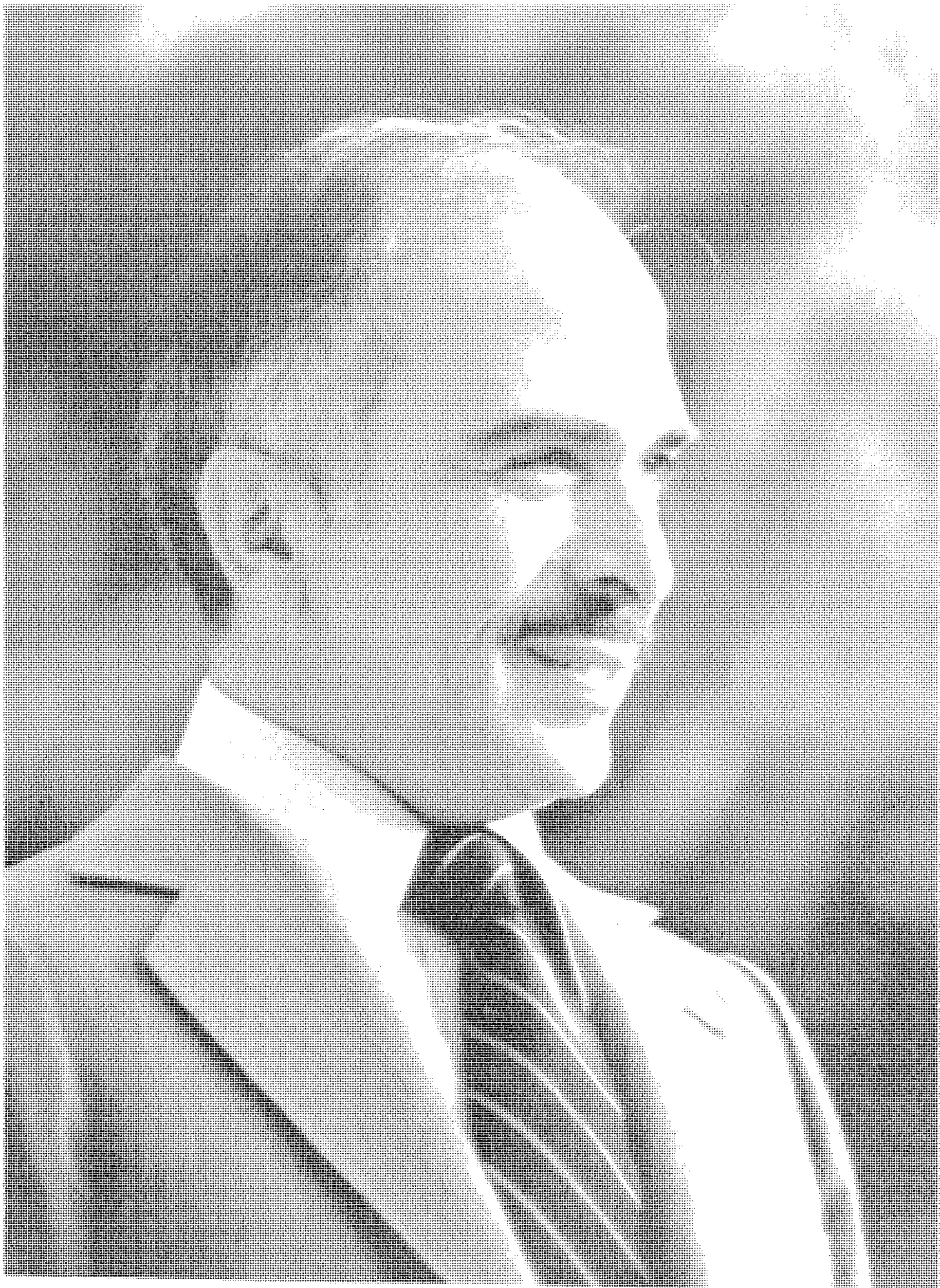
لقد سبق لي القول بأننا في الأردن، لسنا حياديين بين الخير والشر، كما أننا

(١) لقد وضع الرئيس شارل ديغول حداً لهذه الحرب الضروس بعد شهور كما تعلمون ومنذ ذلك الحين غدت الجزائر أمة حرة. وقد كان وزير خارجيتها منذ عهد قريب، رئيساً للجمعية العامة، وهذا ما ينبغي أن يجري لفلسطين، وهذا ما يمكن أن يفعل من أجل فلسطين.

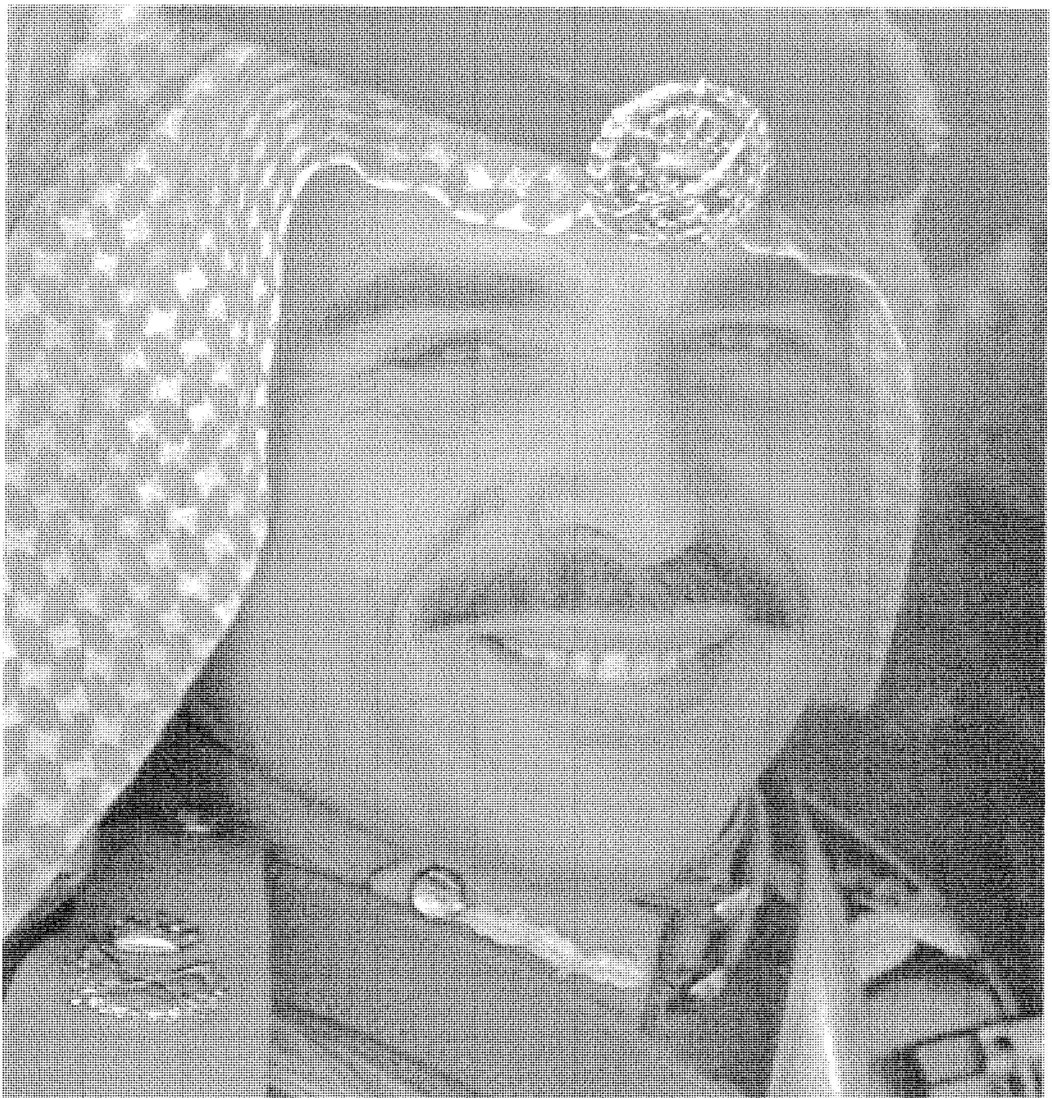
لسنا حياديين في إيماننا بالله. وإني أسأل الله الذي أومن به، أن يبارك هذه الجمعية العامة، لكي تتوفر لنا الشجاعة في البت بحكمة وبلا خشية أو رهبة، في القضايا التي تطرح أمامنا.

الفهرس

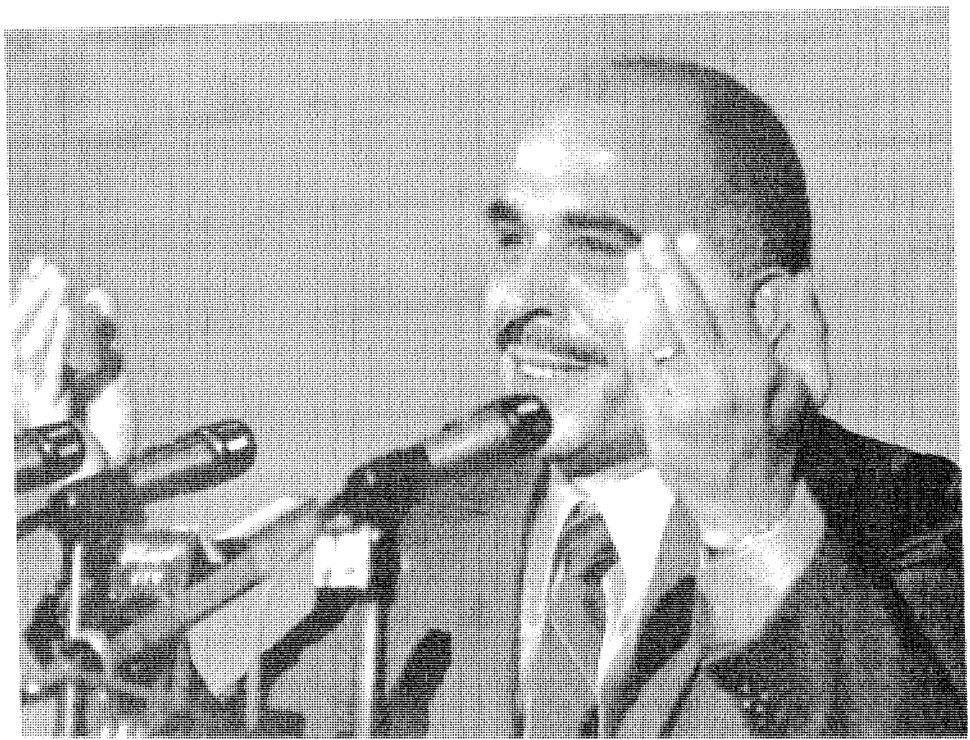
الصفحة رقم



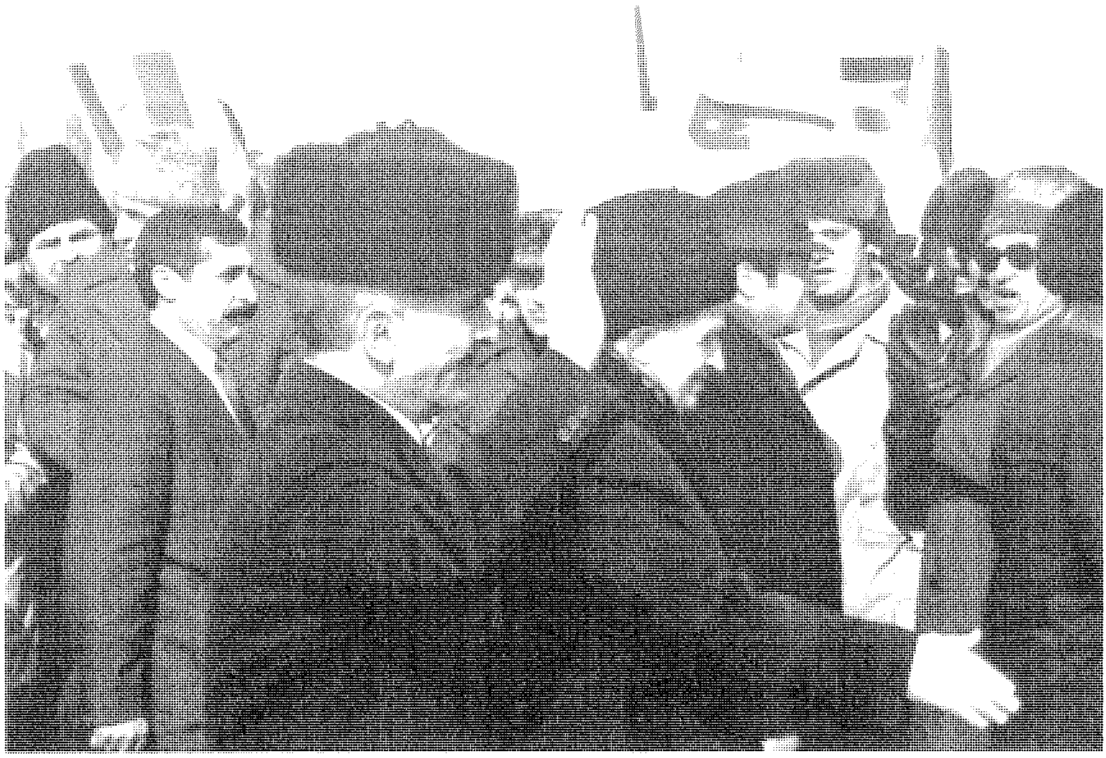
جلالة الحسين



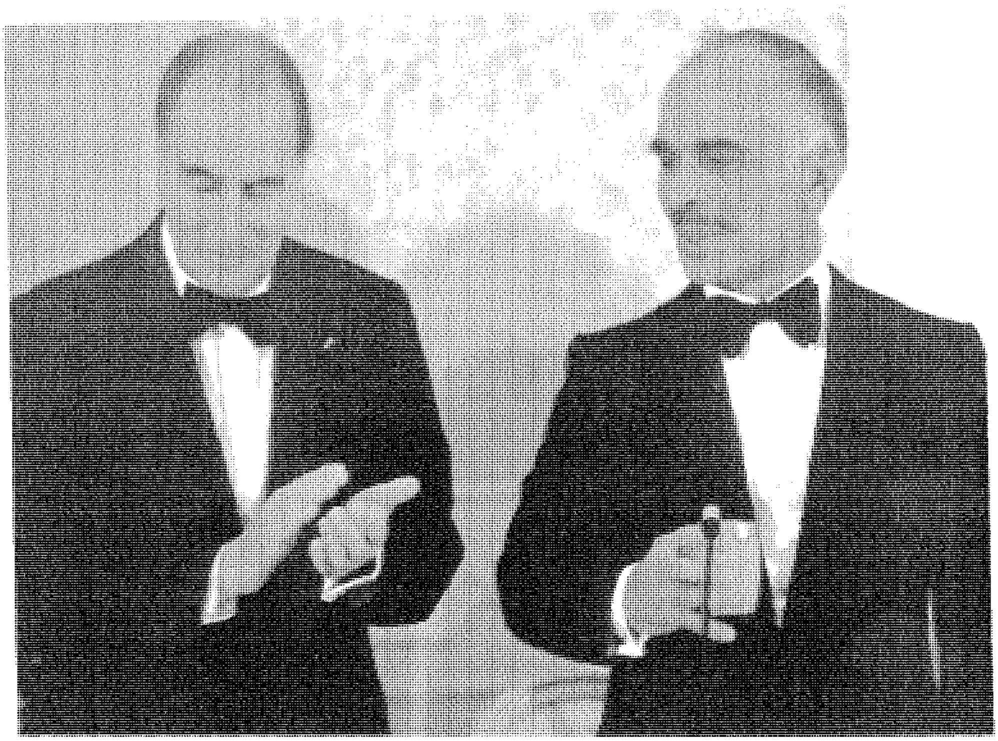
جلالة الحسين



جلالته في حديث لمؤتمر صحفي



جلالته يصطحب الرئيس الروماني تشاوتشيسكو



جلالته يرحّب بالرئيس الفرنسي ميتران في مأدبة أقيمت
على شرفه أثناء زيارته الرسمية للأردن



امبراطور اليابان هيروهيتو يرحّب بصاحبي الجلالة في
مستهل زيارتهما الرسمية لليابان



جلالته مع جلالة الملك فهد العاهل السعودي



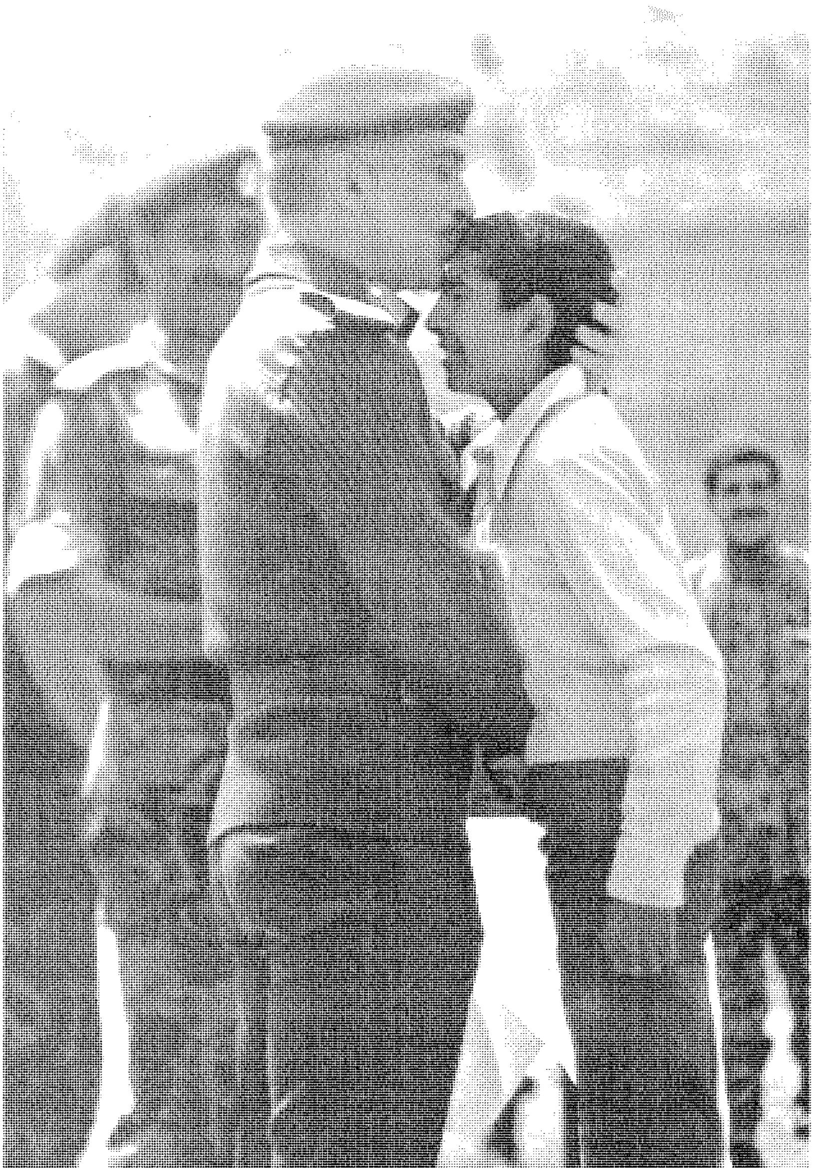
جلالته مع سمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيّان رئيس
دولة الامارات العربية المتحدة خلال مؤتمر قمّة عربي
في المغرب



اطفال تايلانديون يرحبون بجلالة الحسين أثناء زيارة
قام بها لقريتهم



جلالته بين جنوده الاشاوس



جلالته يواسي نجل احد الشهداء



جلالة الحسين مع أفراد من القوات الخاصة



جلالة الحسين يخطب في حشد من قواته المسلحة



والدة أحد الجنود تحيي جلالة الحسين



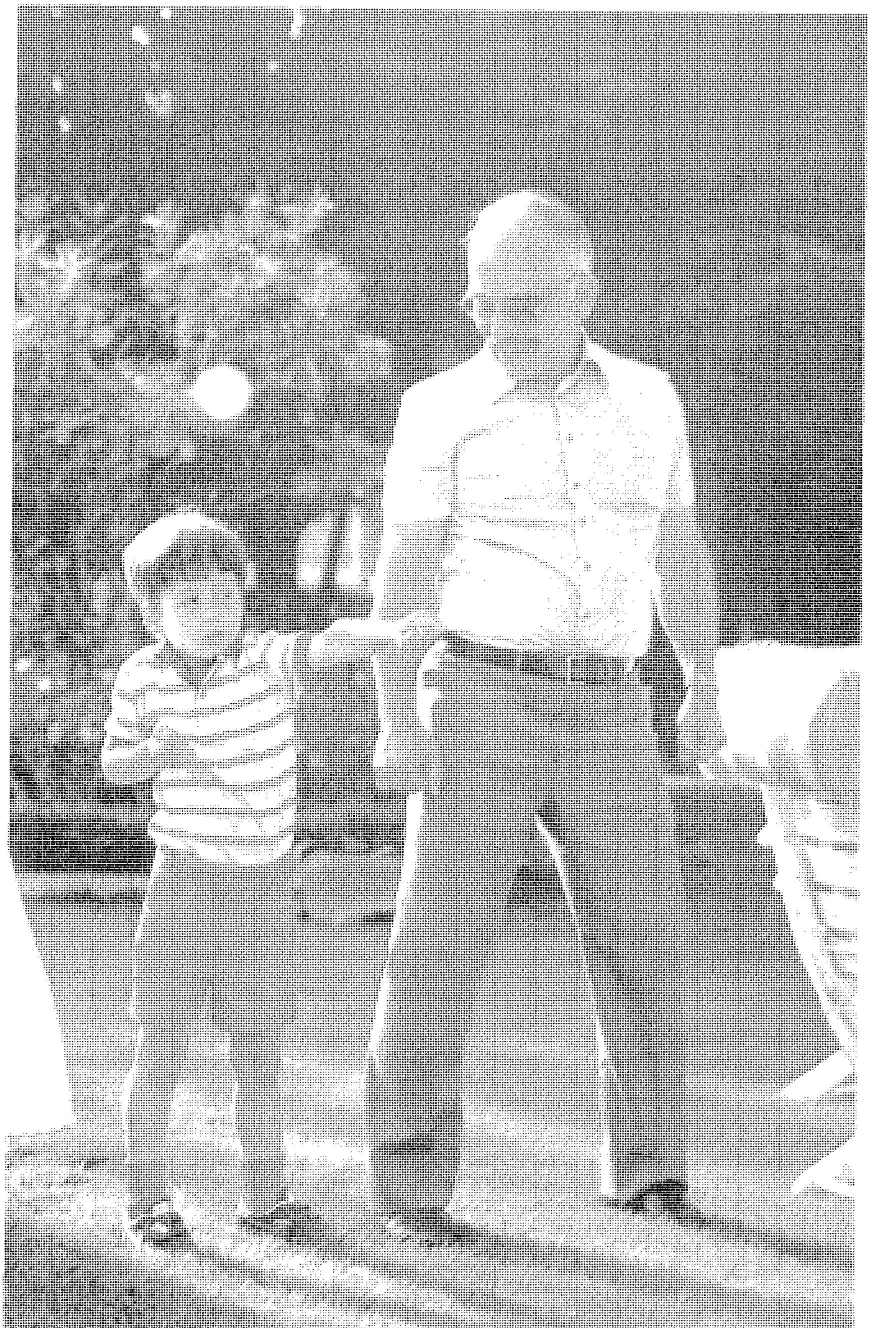
جلالته في استراحة أثناء مناورات عسكرية



جلالة الحسين يستعرض قواته المسلحة



جلالة الملك حسين مع جلالة الملكة نور



جلالته يعلم سمو الأمير حمزة فن الكاراتي



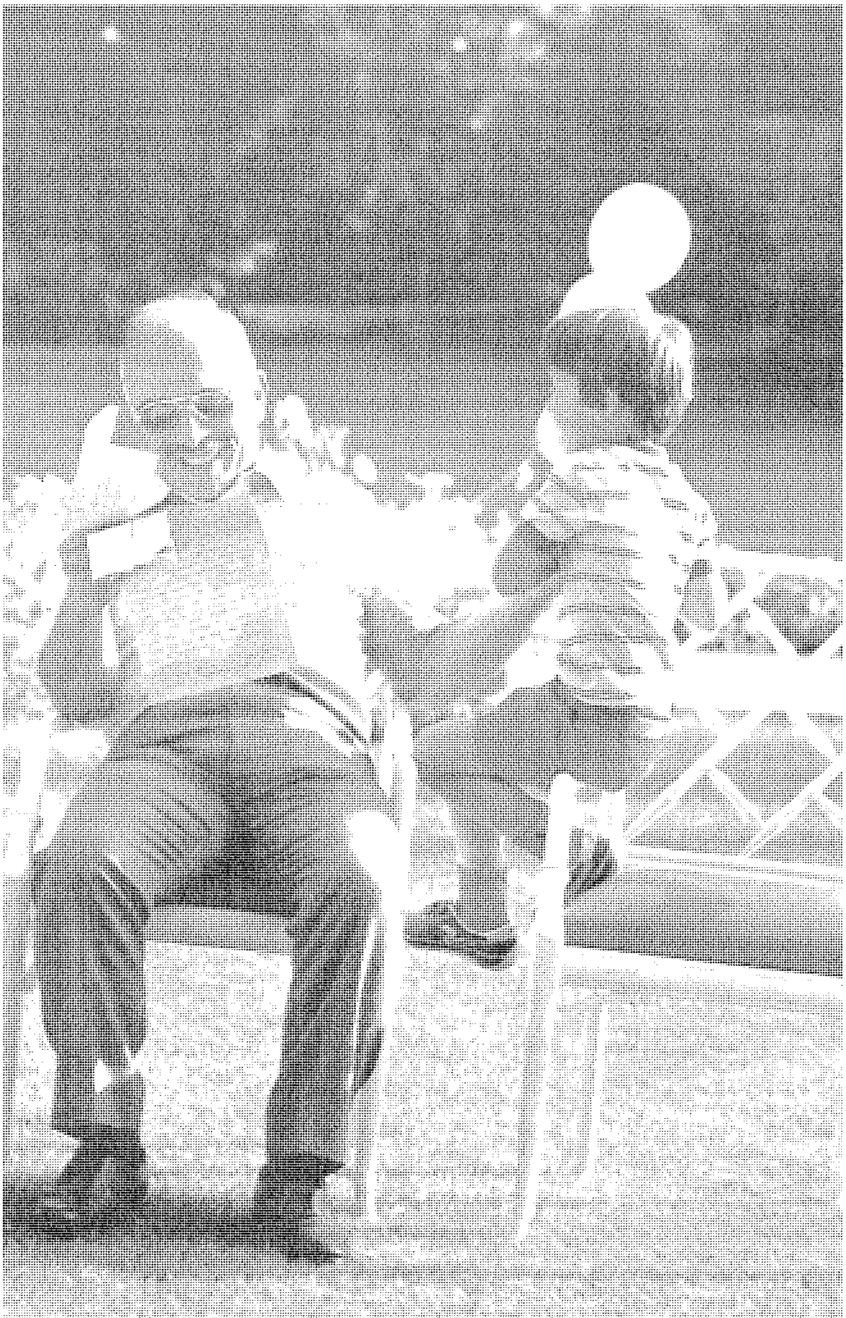
جلالته يقلد نجله الأكبر سمو الأمير عبد الله شعار المظلّيين



جلالته مع الملكة نور والأميرة ايمان



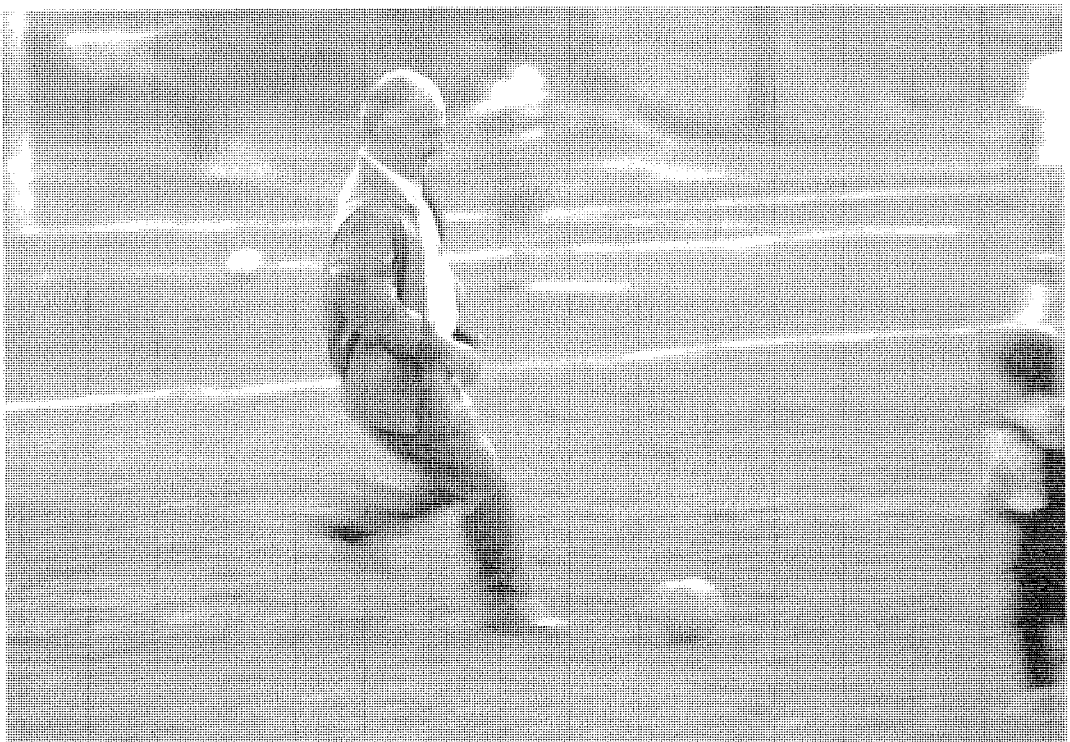
جلالة الحسين مع سمو الأميرة عالية ونجلها الأمير
حسين



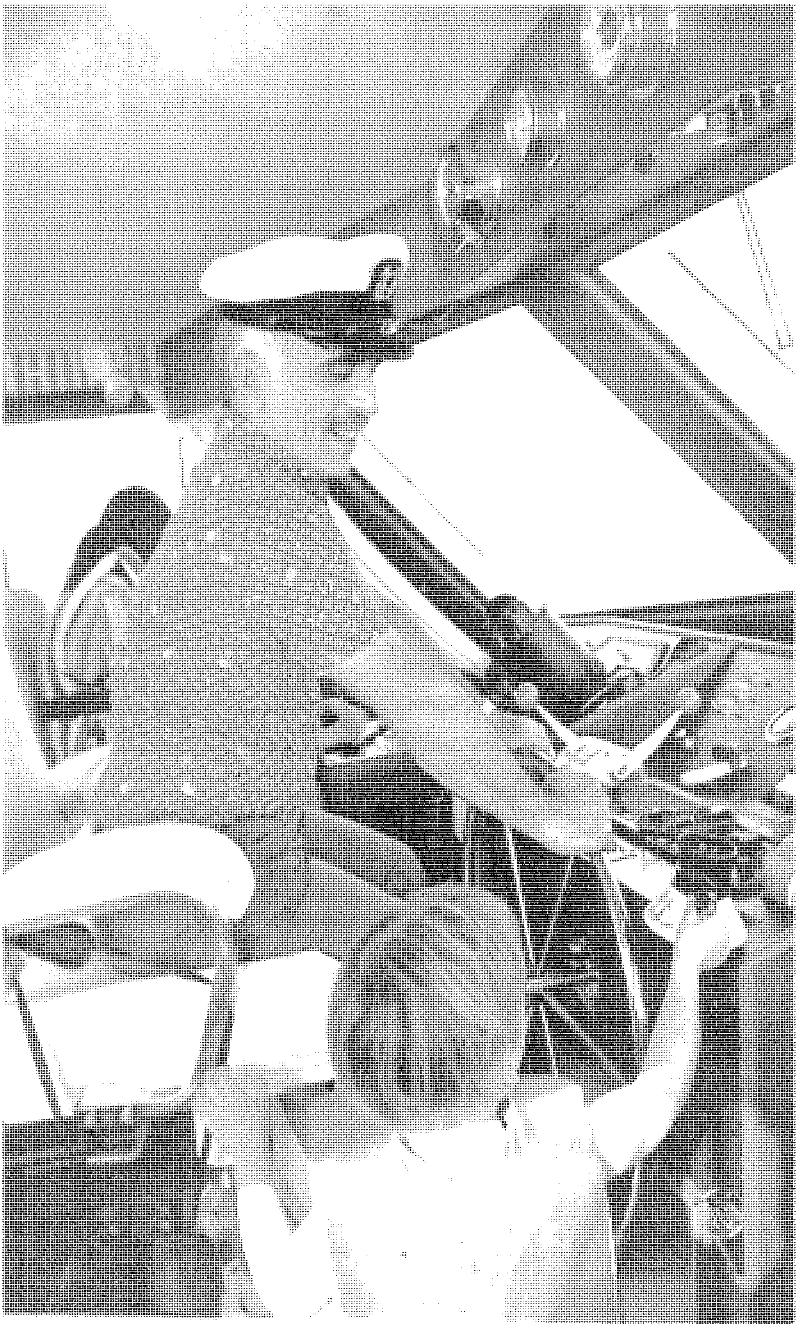
جلالته مع سمو الأمير حمزة



العائلة المالكة



جلالته يمارس رياضة كرة القدم



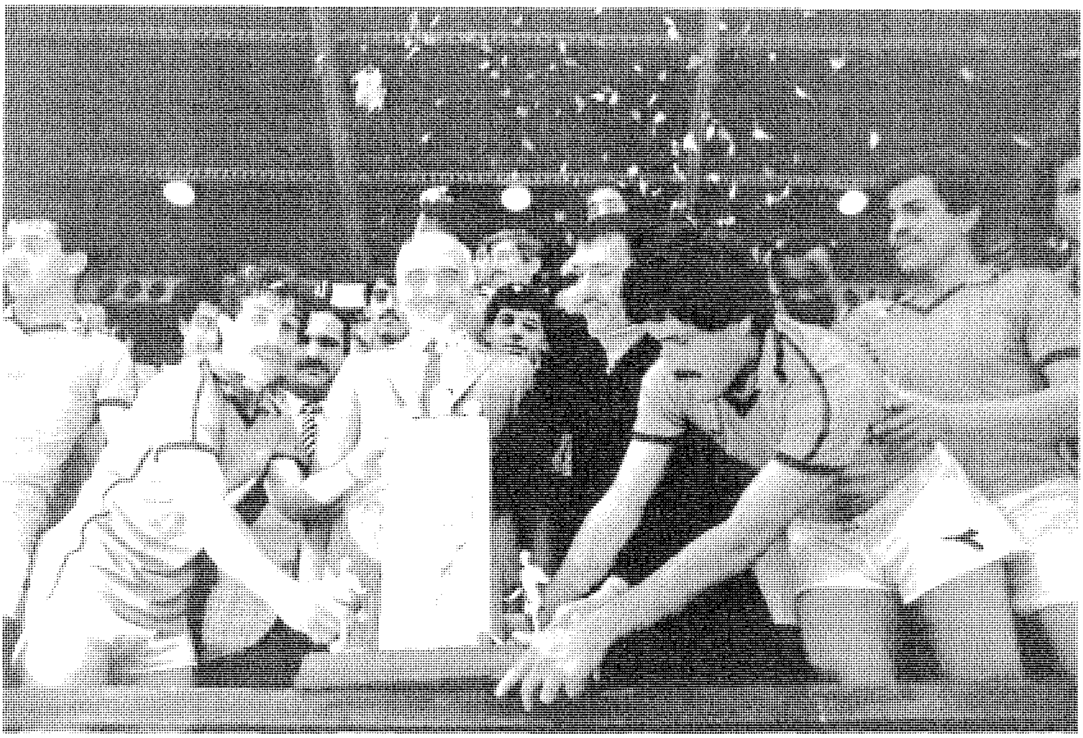
جلالته في يخته الملكي مع سمو الأمير هاشم



جلالته يقود طائرته الخاصة



جلالته في رماية على الاطباق الفخارية الطائرة



جلالته رائد رياضي يهنيء النادي الفيصلي لفوزه بكأس
رابطة أندية كرة القدم



جلالته بين أبناء شعبه الوفي في مدينة اربد



جلالة الحسين الأب الرؤوف يتحدث إلى طفل معوق



جلالته يحل ضيفا عزيزا على أحد شيوخ العشائر



جلالته يتفقد حاملة طائرات الهليكوبتر الفرنسية
جان دارك أثناء زيارة لميناء العقبة



الأهلية للنشر والتوزيع

تلفون: ٤٦٣٨٦٨٨ فاكس: ٤٦٥٧٤٤٥